

وأج الفتنه

دراسة نقدية لشبهات المرجفين
وقتنة الجمل وصفين
على منهج المحدثين

أحمد محمود الشوابكة

تقديم ومراجعة

أ. د. محمد العمري
أستاذ الحديث وعلومه
في جامعة اليرموك

أ. د. أحمد نوفل
أستاذ التفسير والدراسات القرآنية
في جامعتي اليرموك والأردنية

أ. د. محمود السرطاوي
أستاذ الفقه المقارن في
الجامعة الأردنية



سفر الطبع محفوظ

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٣/٩٤٠)

٩٥٦

الشوابكة، أحمد محمود
وآد الفتنة: دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجميل
وصفين على منهج المحدثين/ أحمد محمود الشوابكة - عمان:
المؤلف، ٢٠٠٩ .
() ص.
ر.أ.: (٢٠٠٩/٣/٩٤٠).
الواصفات: / التاريخ الإسلامي// الإسلام /

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا
المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار عمار للنشر والتوزيع

عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص. ب. ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن

E - mail : dar_ammara@Hotmail.com

وأد الفتنة

دراسة نقدية لشبهات المرجفين وقتنة الجمل وصفين

على منهج المحدثين

الأحمد السوابكة

تقديم ومراسلة

أ.د محمد العمري

أستاذ الحديث وعلومه
عميد كلية الشريعة في
جامعة اليرموك

أ.د أحمد نوفل

أستاذ التفسير والدراسات القرآنية
في جامعتي اليرموك والأردنية

أ.د محمود السطاوي

أستاذ الفقه المقارن في
الجامعة الأردنية



الإسراء

إلى من أوصاني ربِّي بهما خيراً، فقال :

﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء].

إلى من أسأل ربِّي لهما خيراً، فأقول :

﴿ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء].

أهدي هذا الكتاب المتواضع، والمؤلف الوادع.

ابنكما البارّ

الغنّي بالفقر إلى الله

أحمد محمود خليل الشّوايكة

أبو عبيدة

تقديم

أ.د محمود السّطاوي

الحمد لله حمداً يكافئُ نعمه ويوافي مزيده وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأصليّ وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فقد رَغِبَ إليّ الأُخ العزيز أحمد الشوابكة أن أقدمُ لكتابه (وأد الفتنة) فعشتُ مع الكتاب أقلبُ صفحاته وأقرأ ما بين سطوره فترةً من الزمن، وكلّما قرأتُ موضوعاً راودتني نفسي بالرجوع مرةً أخرى إلى ما قرأتُ للوقوف على مصادرِ البحث ؛ فقد قرأتُ في كتابه ما لم تألف الأذنُ سماعه من مصادرٍ كثيرة وفي مجالس علمٍ عديدة ، الأمر الذي رأيته يستحق الوقوفَ عنده والتأكد من ثبوتِ مراجعه ، فألفيتُ المؤلفَ - جزاه الله خيراً - غواصاً في بحرٍ لحي من الروايات التاريخية، لا يعترف منها إلا بقدر ما صحّح من أسانيدها ، ولا يقبل منها إلا أعلاها سنداً ؛ ينفي بها كلّ خَبثٍ أُلصقَ بتاريخ الصدر الأوّل من هذه الأُمَّة، ينافح بالأدلة الدامغة من القرآن الكريم والسُنّة النبويّة والحجج القويّة ، لا يتعصّب لرأيٍ ولا ينحازُ لفئةٍ إلا لرسول الله - ﷺ - وصحبه الكرام - رضي الله عنهم وأرضاهم -.

ولم يكن مبتدعاً لهذا المنهج، وإنما كان متّبعاً لمنهج أهل الحديث ينفي بكورهم كلّ خَبثٍ أوردته كتب التاريخ التي تسردُ الروايات والقصص من غير تمحيص ولا تدقيق ، فاستغلّ هذه الروايات مَنْ في قلوبهم مرض ، فاتّبِعوا الشُّبهات وحاولوا النيل من المرضيين والمرضيّات، والطيبين والطيبات من أمّهات المؤمنين وصحابة الرسول الكريم - ﷺ -.

وايم الله إنّ هذا من وسائل حفظ الدين أن قيّض الله رجالاً يواصلون الليل مع النهار

في البحث والدراسة والتنقيب ؛ بياناً للحق وكشفاً للزيف والبطلان، وأيُّ عمل أشرف وأنبل مقصداً من ردِّ الشُّبهات، التي ظنَّ قائلوها بأنَّهم قد ظفروا بها يحقِّق مبتغاهم ممَّا أوحى به إليهم شياطينهم؟! لقد جاء هذا الكتاب بسهام مسدَّدة فأصابتهم في مقتل، وأغنت الكثيرين من عناء البحث والتنقيب عن الإجابات الشَّافية الوافية عن تلكم الشُّبهات وردِّ الرِّوايات المكذوبة والضعيفة بأسلوبٍ علميٍّ لا يختلفُ عليه اثنان من أهل العلم الذين يبحثون عن الحقيقة.

لقد ناقش الباحث الفتنة التي ثارت زمن الصحابة بما عُرِف بمعركة الجمل ومعركة صفين، كما ذكر طرفاً من سير الصحابة الذين أُثرت حولهم بعض الشُّبهات، وبين فضلهم وما ورد فيهم من أحاديث صحيحة توجبُّ على كلِّ مسلمٍ أن يكفَّ لسانه عن الولوغ في أعراضهم أو التشكيك في عدالتهم.

ولم يكتفِ الباحث بهذا وإنما تناول في كتابه طرفاً من سيرة المصطفى - ﷺ - ووجوب محبَّته وآل بيته ومحبة أصحابه من المهاجرين والأنصار وجعلها في أول كتابه تيمناً وبركة، كما تناول في كتابه حُكْم من آذى رسول الله - ﷺ - أو استهزأ به أو سبَّه، أو استهزأ بصحابته الكرام، ثم ذكر طرفاً ممَّا نال النَّبيَّ - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين تمهيداً للحديث عمَّا تعرض إليه النَّبيُّ - ﷺ - من الأذى والاستهزاء في زماننا من الكفَّار والمنافقين، وكلُّ هذا لا يُنقص من قدره - ﷺ - ، وإنمَّا يزيد تشریفاً وتكريماً، وعرَّج الباحث على ما ينبغي للأنبيا من العصمة وأجاب عن كثير من الشُّبهات التي أثارها المستشرقون ممَّا أوقعهم في وهمٍ ينافي عصمة الأنبياء عامَّة وسيدنا محمد - ﷺ - خاصَّة.

لقد طوَّف بنا الباحث في ميادين كثيرة جمعها في سلك واحد سمَّاه " وأد الفتنة : دراسة نقدية لشبهات المرجفين وفتنة الجمل وصفين على منهج المحدثين " في ثوب قشيب من اللغة العذبة وحسن البيان وعدم وعورة الألفاظ.

وجاءت هذه الدِّراسة في زمن أحوج ما يكون القارئ والشَّباب المسلم إليه ؛ حرصاً على جمع الكلمة ونبد الفرقة والتَّعصب وتمسكاً بالكتاب الكريم والسُّنة المطهَّرة، فجزى

الله المؤلف خيرَ الجزاء وأثابه على صنيعه خيراً ونفعَ به من قرأه آمين.

أ.د محمد علي السطاوي
أستاذ الفقه المقارن في كلية الشريعة
الجامعة الأردنية

عمان / ٢٤ / صفر / ١٤٣٠ هـ

الموافق ٢٠ / ٢ / ٢٠٠٩ م

تقديم

أ.د أحمد نوفل

أكتبُ هذه الكلمات في اليوم التالي لمولد النَّبِيِّ - ﷺ - أي في الثالث عشر من ربيع الثاني لعام ألف وأربعمائة وثلاثين للهجرة، لأقدم لكتاب الأخ الباحث أحمد الشوابكة، بعنوان (وَأد الفتنه) تعرّض فيه لسيرة النَّبِيِّ - ﷺ - كجزء من بحثه في نقد شبهات المرجفين.

وقد كنت قدّمت للأخ الباحث كتاباً من قبل بعنوان (قصّة يوسف - عليه السلام - في القرآن الكريم) وتنبأتُ له بمستقبل طيّب في البحث العلميّ وثمر طيّب في غد قريب، وهاهو الثمر يزداد نضجاً، واللغة تزداد إشراقاً وتألقاً، والفكر يزداد عمقاً، فضلاً عن التوثيق العلميّ الأصيل، والبحث الدؤوب عن الحقيقة، كلّ ذلك مع الغيرة على الدين والحرص على نصره سيّد المرسلين وأُمَّته وتاريخ هذه الأمة، والدّبّ عن حياض المسلمين ورموزهم.

لقد رجّح الأخ الباحثُ إلى أزيد من مائتي مرجع في بحثه العلميّ الناضج هذا، ومع البحث المتقن والتوثيق المحكم فهمٌ سديدٌ، فما كلّ من قرأ أدرك المعنى، وفهم المقصدَ والرّمى، واستوعب الغاية والمغزى، لكنّ كاتبنا متمرس ضابط متقن مُجدّ مُجيد، وله في طريقة المحدّثين باع وذراع، وما كلّ أحد يطيق هذا الدرس المتأنيّ الممتحصّ الدارس للأسانيد، الناقد للمتون.

وتاريخنا عظيم مجيد، لكنّه لا يخلو من أخطاء تعرّوّه، فنحنُ أمة من البشر، والخطأ منا متوقّع، وهو ردُّ علينا، لا يحمل وزره ديننا، ولا نحمل خطايانا لسوانا، أضف إليه أنّ تاريخنا تعرّض لتشويه متقصّد متعمّد، وهنا يأتي جهدُ الباحثين الغيورين، وأحسب أنّ الأخ أحمد في

بحثه هذا قد أوفى على الغاية، وبلغ المطلوب في التسلح بالعلم، والتّمكّن من أدواته، فجاء دفاعاً متوازناً، ليس فيه شطط، ولا إفراط ولا تفريط، بل اتزان وهدوء العلماء، وحقّة المتمكّن، كما هو شأن المسلم المؤهل المعدّ المعدّ العُدّة.

بارك الله جهد الأخ الباحث، ووقفه لخدمة دينه وسيرة نبيّه وأصحابه وتاريخ أمته ضد هجمات المغرضين والمتعصّبين والحاquدين أجمعين.

وَنَصْرُ الدِّينِ بِالْحِجَّةِ مِنْ أَعْظَمِ أَوْجِهِ النَّصْرِ، أَمَا قَرَأْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].
سخرنا الله جميعاً لخدمة هذا الدّين ودعوته، والحمد لله ربّ العالمين وسلام على المرسلين.

أ. د أحمد نوفل

أستاذ التفسير والدراسات القرآنية

في جامعتي اليرموك والأردنية

١٣ / ربيع الثاني / ١٤٣٠ هـ

الموافق ١٠ / ٣ / ٢٠٠٩ م

تقديم

أ.د محمد العمري

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه
ويعد :

فقد دفع إليّ الأستاذ أحمد الشوابكة بهذا الكتاب الموسوم بؤاد الفتنة بهدف الاطلاع
على ما فيه، وإني إذ أقدر له هذا أقول وبالله التوفيق :

إنّ هذا الكتاب قد تناول موضوعاً هاماً ربّما كان البحث فيه وبهذا القدر من الجدّة في
هذه الأيام أكثر حاجة وإلحاحاً، وأعني بذلك دراسة واقع الفتنة التي حصّلت في صدر
الإسلام زمن سيدنا عثمان - رضي الله عنه وأرضاه -.

وإن كانت مثل هذه الدّراسات هي أشبه ما تكون بمعالجة لجملة من القضايا التّاريخيّة
من حيث كونها تمثّل جملة من المغالطات التّاريخيّة مضموناً وتناولاً من حيث المنهج، فشكّلت
بذلك جملة من الشُّبهات التي تركت أبعد الأثر في نفوس كثيرين ممّن لا يعرفون حقيقة واقع
المسلمين في الصدر الأول من حيث : طبيعة الصّحابة الكرام، وصلابة الإيمان آنذاك، وحجم
الهجمة الشرسة على دولة الإسلام، والحرص الشديد على الكيد لها. فما كان من مثل هؤلاء
إلا الاستجابة والقبول، بل وتمكن الرّيبة من نفوسهم ؛ فباتوا أبواب شكّ ومفاتيح فتنة في كلّ
زمان ومكان، في وقت ما ازداد المؤمنون إلا إيماناً مع ما رافق ذلك من حسن الظنّ بأصحاب
النّبى - ﷺ - دون تمييز وإن تمايز الصّحابة في مجال البذل والعطاء ، وأنّ ما تمّ بينهم من وجوه
الخلاف إنّما كان منشؤه الاجتهاد بحثاً عن الحقّ ، فهم على كلّ أحوالهم مأجورون بحسن

لقد عالج الأخُّ الباحثُ موضوعَ الفتنة من خلال دراسة منهجيَّةٍ لواقع الروايات التَّاريخيَّةِ ، ومعلوم أن كثيراً ممَّن كتبوا التَّاريخ أو نقلوه هم محلُّ نظر، ولذلك فقد اتَّفَق علماء الإسلام على أن كاتبَ التَّاريخ ينبغي أن يتمتَّعَ بأكبر قدر من الصِّلاح والتَّقوى، وحسن الفهم والبصر في الأمور، والقدرة النافذة على التَّحليل ، والمعرفة التامة بالعربية وأساليبها حال تناول الكتابة في التَّاريخ حتَّى لا يكون الكلامُ حمَّالاً أوجه، وخاصة فيما يتعلَّق بذكر الحقائق وتناول عظام الأمور.

وكلُّ المشتغلين بالتَّاريخ يشعرون بالحاجة إلى ضرورة كتابة التَّاريخ ، ولكن كيف ؟! هذا ما حاولَ الأخُّ الباحثُ أن يَجتهدَ فيه - وليس هو الأوَّل في ذلك - حيث حاولَ أن يُعيِّدَ النَّظَرَ في الروايات التَّاريخيَّةِ وفق منهج المحدثين باعتبارهم أوَّل من وضع القواعد والصُّوابط في مجال توثيق النُّصوص، وهي قواعد غاية في الدِّقَّة والإنقان، وتكفل الوصول إلى السَّلامة أو أقرب ما يكون. وإن كان لا بُدَّ من التَّعامل وفق تلك القواعد بقدر من المرونة إذ يصعبُ التَّعاملُ مع الرواية التَّاريخيَّة بذات القدر من الصَّرامة مع النُّصوص التَّاريخيَّة.

إن ممَّا يُشكرُ عليه الأخُّ الباحثُ أن هذه الدِّراسة كشفت عن أن جُلَّ الروايات في الفتنة وما قيل في شأن كثير من الصَّحابة لا سبيل إلى القبول به ؛ إذ لم يتوفَّر في الرواة أدنى درجات الرِّضا والقبول ، فضَعَفَ بذلك تلك الروايات التي تشكَّك في مواقف الصَّحابة الكرام ، وأنَّ ما بدا من بعضهم من رأيٍ أو فعلٍ إنما كان باعثه إحقاق الحقِّ وإبطال الباطل وإن اختلفت وجهات النَّظَر فيه.

لقد أحسن الباحثُ كثيراً فقد كان النصُّ القرآني ماثلاً بين يديه ، فاعتمده اعتماداً كبيراً وزَيَّن به صفحاتَ هذا الكتاب ، إضافة إلى لُغَةٍ سليمة دالَّة معبَّرة تتناسب تماماً مع موضوع البحث، مع قراءة واعية للنُّص بكلِّ أنواعه تدلُّ على سلامة فهم وتحليل ، وعناية واضحة بالسِّياق وأسباب التَّنزيل والورود للأحداث.

وكذلك كانت محاولته لتفسير النُّصوص وربط بعضها ببعض والاستفادة من ضوابط

فهم النصوص واضحة، مكتته من طرح قضايا الكتاب بشكل يُسجّم انسجاماً موافقاً للمنطق وبناء المقدمات ثم النتائج.

كما وكان من اللافت للنظر أيضاً تلك الغيرة على الإسلام وتوكيد فضل الصحابة الكرام بعيداً عن العاطفة ودون غلو أو تجاوز، مع سعة اطلاع وعودة أمينة للمصادر والمراجع الأمر الذي يؤكّد جودة هذا الكتاب وما فيه، راجياً للأخ الباحث المزيد من التوفيق في مستقبل أعماله.

أ. د محمد العمري

أستاذ الحديث وعلومه

عميد كلية الشريعة قى جامعة اليرموك

١٢ / صفر / ١٤٣٠ هـ

الموافق ٨ / ٢ / ٢٠٠٩ م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين، وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأتباعه الفاضلين الطيبين، وبعد :

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرَسُولِهِمْ كُنْتُمْ سَتِّهِزُونَ﴾ [التوبة: ١٥].

لا يَحْزُنُكَ تشييع جاهل، أو نقص مُتَهَوِّك، أو شتآن قوم لشخص النبي محمد - ﷺ -؛ فهؤلاء إنما اشتغلوا بدعاوى باطلة تَمَجُّهُمُ القلوب السليمة، وظواهر من العلم موضوعة، طلباً لعرض الدنيا، أو علو الصيت، أو رغبة في الثناء، أو مغالبة الأقران والنظراء، أو حسداً من عند أنفسهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦] ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١١٧].

رسول الله، سلامٌ عليك ما سَجَى ليلٌ وتَجَلَّى نهار! وسلام على أصحابك الأبرار المهاجرين والأنصار، الَّذِينَ أَيْدِهِمُ اللَّهُ تَعَالَى بما نصرُوا الله، ونافحُوا عن رسوله بأيديهم وألستهم. كَفَى نَفْسِي على هؤلاء الرِّجَالِ الْمُتَقَدِّدِي بفعالهم! كَفَى نَفْسِي على المتكرين لكل أمر مُنْكَر!

أما بعد، فقد ظنَّ أقوامٌ أنهم حين يتجرَّؤون على رسول الله - ﷺ - يطفئون نور الله بأفواههم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾

ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ [التوبة] بلى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١﴾ [المجادلة].

ولعمري لو علموا حقيقة رسالته ما وسعهم إلا اتباعه، لكنهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ﴿٧﴾ [الروم].

ولا ريب أن هؤلاء الأعداء، أهل الأراجيف والباطل، الذين بغوا على رسول الله - ﷺ - وجرَّأوا في الغواية على أصحابه وأمعنوا في الضلال ليسوا بشيء، وكلامهم الذي يعبرون به عن سويداء القلوب، العاقل لا يعيره الطَّرف، ولكن ما يدعو للأسى أن من بين هؤلاء قومٌ من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا ! جنحوا لرواياتٍ موضوعة وآثار مصنوعة في كتب التراث الإسلامي ...

وأنا أعلم أن الله تعالى أغنى نبيه - ﷺ - عن نصره الخلق، لكن والذي نفسي بيده، إن بطن الأرض أولى بنا من ظهرها إن عجزنا عن نصره نبينا - ﷺ - ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّبَلَاغٍ لِّبَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ... ﴾ ﴿٤﴾ [محمد]، ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ... ﴾ ﴿٢٥﴾ [الحديد]، ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ... ﴾ ﴿٨﴾ [الأنفال].

والله يشهد أنني وأنا أكتب هذا البحث لا يغيب عن خاطري قوله تعالى : ﴿ وَتَنْتَظِرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَنْتَ قَوِيٌّ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ [الحشر]، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿١١﴾ [الكهف]، ولذلك يا قوم : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِن آجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ... ﴾ ﴿٣١﴾ [هود] و﴿ لَا تَزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ ﴿١﴾ [الإنسان]، فأنا لم أضعه لأجل هذا أو ذاك، وإنما :

أرذتُ به نصرَ الإله تبتلاً وأضمرته حتى أوسدَ في قبري

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود]، ووضعت له لأردّ به غائلة المبطلين، ووساوس الشياطين، وشبهات المشككين، وأفانين المتقولين الخراصين، الذين ما قدروا الرسول - ﷺ - حقّ قدره، وما عرفوا فضل الصحابة - رضي الله عنهم - ليخزهم الله ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [١٤] ﴿[التوبة].

ووضعت تصيداً للعب والدرّوس، فالتاريخ يعيد نفسه، فهناك أحداث تشابه أحوالاً وأفعالاً بين الليلة والبارحة؛ لتشابه القلوب، وقد أشار القرآن الكريم لذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [١١٨] ﴿[البقرة]، فهناك تشابه بين قلوب الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ [٥٢] ﴿[الذاريات].

والعاقل من يعتبر بالسلف قبل أن يصير عبرةً للخلف، أو كما قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : " والسعيد من وعظ بغيره " (١).

أمّا منهجنا في الكتاب :

فقد أصّلنا إلى أنّ الطبري لم يلتزم بإيراد الصحيح في كتابه؛ لأنّ هناك قاعدة عند المحدثين والإخباريين مفادها : أنّ من أحال فقد برئ. وبالتالي فإنّ الروايات التاريخية لا تقبل ما لم تُعرف بالسند الصحيح، والمتن الصحيح، مثلها مثل الحديث الشريف؛ وإلا لقال كلُّ من شاء ما شاء كيف شاء.

فهناك علامات للوضع في السند، وعلامات للوضع في المتن يعرفها أهل العلم، ولا ينبغي لمسلم أن يجهلها؛ ولذلك تعرّضت لبعض الروايات التاريخية التي أخرجها الطبري

(١) " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٦/ص ١٩٣) كتاب القدر.

بالنقد لأسانيدها، وبالدراسة لمتونها، بعد أن رأيت إمعانَ أهل الأهواء في نقل هذه الأخبار، وإهمال الناس إلى أسانيد هذه الآثار، وذلك ليتعرّف القارئ المنهج الصحيح الذي ننفي فيه عن التاريخ تحريف الغالين، وتحامل القالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين.

والله يشهد، أنّه لا يبغض أهل الحديث إلاّ الوضّاعون وأشياعهم، كما قال أحمد بن سنان القطان : " ليس في الدنيا مبتدع إلاّ وهو يبغض أهل الحديث " (١)، أو كما قال أحمد بن سلام الفقيه : " ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناد " (٢) لأنّ أهل الحديث ميّزوا الطيّب من الخبيث، ودمغوا أهل الباطل بسنن النبيّ - ﷺ - وبها صحّح من الأخبار، وما ثبت من الآثار.

وقد اعترض كتابَ الله تعالى مَنْ في قلوبهم زيغ، ولغو فيه، وآتبوا ﴿ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ... ﴾ [آل عمران]، حرّفوا كلام الله تعالى عن مواضعه، وحكموا عليه بالتناقض، ونسوا أنّ الله تعالى أعجز بهذا القرآن كبراءهم من الإنس والجنّ من قبل، وإنّما حرّفوه من بعد ما عقلوه لئلا يُحتجّ عليهم به بما يخالف أهواءهم.

كما حملوا على سيرة النبيّ - ﷺ - وقضوا على أحاديثه الشريفة بالتناقض والاختلاف والضعف، ولم يتوقّفوا عند ذلك، وإنّما ألبسوا الحقّ بالباطل في شأن الصحابة - رضي الله عنهم - وسلقوهم بالسنة حداد، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ، ولم يحملهم على ذلك كلّه إلاّ قلة الدّين، والجهل المتين، والغباء المكين.

وهذا كلّه لو وقعت الغفلة عنه خيفَ ضرره، واستطار شرّه ؛ فجعلت كتابَ الله أمّامي وإمامي، وسنة الحبيب محمد - ﷺ - لساني وبياني ؛ لأفدّ بالحق على الباطل، بأوجز لفظ وأبينه، فظهر لذي عينين ولسان وشفيتين بطلان شبهاتهم الكليّة، وحججهم العليّة، كما ظهرت سيرة الصحابة - رضي الله عنهم - وسريتهم خالصة من كلّ شبهة وريبة وقادح.

(١) الحاكم " معرفة علوم الحديث " (ص ٤).

(٢) المرجع السابق.

وكان ابتداءنا باسم الله الملك الحق المبين بترجمة للنبي الصادق الوعد الأمين، ثم بصور من نصرته ونصرة أصحابه لهذا الدين، وتحملهم لأذى المشركين والمنافقين، وبعد ذلك رددت على أبرز شبهات المشككين، ولم أنفرد بالرد عليها، وإنما تناولها السلف بما أصابها بالتلف، غير أن هذه الشبهات النائمة هناك من يوقظها ويوججها ويجدها، مع أنها شبهات فارغة فرغت منها الأمة منذ قرون، ومع هذا جاء من يتعادها، ولكن هيهات أيها السادرون في الغي، أين تذهبون !؟

وقد كان لزاماً أن نردّ خشية أن يقع في النفس أن المبطل محقّ ؛ فالسكوت إقرار ! وقد جاء ردنا على وجه يرفع الحيرة عن إخواننا المؤمنين ويهديهم إلى الحق المبين، والصرط المستقيم، والفضل كله لله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج].

وقد أثبتت كثيراً من الكتب التي أفدت منها في دفع هذه الشبهات وغيرها في آخر هذا البحث لتصرّف في العبارة، وأدعي أنني كثيراً ما زدْتُ عليها في استقصاء الأدلة والبراهين فيما أنشد وأبتغي، فجاء الجواب واقعاً ما له من دافع.

وقد تحرّيت الحق بالأدلة والبيّنات، ووثقت نصوص السنن وخرّجت الآيات ؛ قياماً بحق كتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - وتصديقاً لقوله تعالى : ﴿تَتَوَفَّوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوْهُ وِتَّسَبِّحُوْهُ بِكُحْرٍ وَّاَصِيْلًا﴾ [الفتح].

وأتبع ذلك بالدّبّ عن الصحابة، بعد أن نَقَمَ عليهم مَنْ نَقَمَ، ووقع في عرضهم من وقع ! والصحابة إذا لم يرض عنهم هؤلاء وأولئك الذين أجلبوا عليهم بخيل أدلتهم الواهنة ورَجَلها، فقد ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة]، فظهر أن الصحابة كلهم عدول رغم ما جرى بينهم ؛ فقد نصّ الله تعالى على عدالتهم في آيات صريحة يكثر إيرادها، وصرّح بذلك النبي - ﷺ - في أحاديث صحيحة يطول تعدادها.

وقد حاولت جهدي أن أضمن هذا الكتاب من فنون اللغة وأفنانها، وعلوم الشريعة

وأنوارها، ما يجد فيه المسلم بُعَيْتَهُ وَغُنَيْتَهُ ؛ فالقرآن الكريم مشحون بفتون البلاغة وعيون
الفصاحة وأسرار البراعة، وتكاد لا تخلو سورة من أحكام أحكام، وإعجاز إيجاز، وحسن
تركيب، وبديع ترتيب، وبدائع بديع، وأجناس جناس، وسحر بيان يأسر الجنان ! وكيف لا
وهو الفصل ليس بالهزل ! أنزله الله على نبيّه - ﷺ - ليخرج الناس من الظلمات إلى النور،
وليقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فسبحان من أنزله بالحق بأدع أسلوب، وسلكه
ينابيع في القلوب !

وختاماً :

لو أن الدّهر عيني تنظر في عيون علوم القرآن، وسيرة سيّد الأنام - ﷺ - وصحبه
الكرام لَفَنِي العَمْرُ وولّى الزّمان وعيني لم تشبع من النّظر ! فَضَرَّ اللهُ وجوه أموات تحيا
القلوب بذكرهم، وجمعنا بهم على حوض حبيينا وحبيبهم - ﷺ - !

المؤلف

أحمد الشوابكة

القسم الأول المبحث الأول

النَّبِيُّ - ﷺ - في سطور من المولد إلى النشور

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ...﴾ (١٦٤) [آل عمران].

مولده - ﷺ -

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكِّرِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١٦٤) [آل عمران].

وُلِدَ - ﷺ - في مكة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول عام الفيل عام خمسائة وواحد وسبعين للميلاد (٥٧١م) أبوه عبد الله، وأمه آمنه بنت وهب.

نسبه الشريف - ﷺ - ومعدنه المنيف

هو محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قُصَيِّ، بن كلاب، ابن مَرَّة، بن كَعْبِ، بن لُؤَيِّ، بن غالب، بن فُهَر، بن مالك، بن النَّضْرِ، بن كِنَانَةَ، بن حُرَيْمَةَ، ابن مُدْرِكَةَ، بن إلياس، بن مُضَرَ، بن نِزَارِ، بن مَعَدِّ، بن عدنان^(١).

وهو من ولد إسماعيل، وجميع قبائل عرب الحجاز ينتمون إلى هذا النسب، ولهذا لما سئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن قوله تعالى ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾ (٢٣) ﴿

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٤ ج/٢٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ذكره البخاري معلقاً في باب مَبْعَثِ النَّبِيِّ - ﷺ - .

[الشورى]، قال : " إِنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - لم يَكُنْ بطنٌ من قريشٍ إلا كان له فيهم قرابةٌ " (١)، ومقتضى كلامه أن جميع قريش أقارب النبي - ﷺ - وأن عليهم أن يوادوا النبي - ﷺ - لحق القرابة التي بينهم وبينه - ﷺ -.

ونسبه - ﷺ - لا يدانيه نسب، فقد اختاره الله تعالى من أزكى القبائل، وأنصر الفروع، وأفضل البطون، وأطهر الأصلاب، ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن واثلة بن الأسقع، يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : " إِنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم " (٢).

والحديث فيه بيان فضل العرب على سائر الناس، وفضل قبيلة قريش على سائر العرب، وفضل بني هاشم على كافة الفروع.

والرسول - ﷺ - من بني المطلب، وبني المطلب وبني هاشم واحد؛ فنسبه - ﷺ - أشرف نسب.

البشارة بالرسول - ﷺ - في التوراة والإنجيل

القرآن الكريم مذكور في الكتب السماوية السابقة، مثل التوراة والإنجيل، قال تعالى:

﴿ وَإِلَيْهِ لَنَفِي زُجُرِ الْأُولِينَ ﴿١٦٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [الشعراء].

وقد أوجب الله تعالى على نبينا محمد - ﷺ - الإيمان بالكتب السماوية كلها، قال تعالى :

﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الشورى].

وأوجب علينا الإيمان بها، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ... ﴾ [النساء].

ولذلك فنحن المسلمين نؤمن بكل نبي مرسل وكل كتاب منزل، إلا أن الله تعالى لم

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٥/ص ٣٧) كتاب تفسير القرآن.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٥/ص ٣٦) كتاب الفضائل.

يتكفل بحفظ هذه الكتب كما تكفل بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

ولذلك لم تبق لنبيٍّ معجزة خالدة إلا لخاتم النبيين محمد - ﷺ - وهي القرآن الكريم، ومعلوم أن الله تعالى تحدى الثقلين أن يأتوا بمثله، وما زال هذا التحدي قائماً!

وكما أخبرت الكتبُ بكتابتنا، كذلك أخبر كتابنا عن بعض ما ورد في هذه الكتب، فمما ورد في صحف إبراهيم وموسى - عليهما السلام - قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَبْتَأِ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزَّرْنَا لَهُ الْكِتَابَ وَالْقُرْآنَ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَعْيِكَ مُسْتَعِزًّا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النجم].

ومما جاء في الصحف، قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى].

أما التوراة، فمن جملة ما جاء فيها، قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالْإِنْفِيسِ وَالْأَعْيُنَ بِالْأَعْيُنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة].

ومما جاء في الزبور الذي أنزل على داود - عليه السلام - من بعد التوراة، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

ومما اشتركت التوراة والإنجيل في بيانه البشارة بالنبي محمد - ﷺ -، والشهادة له بأنه رسول الله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

عَلَيْهِمْ... ﴿١٥٧﴾ [الأعراف].

ومن جملة ما تضمنته التوراة والإنجيل الإشارة إلى أصحاب النبي ﷺ - وبيان طائفة من صفاتهم، فقد جاء مثلهم في التوراة، قال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّهْمُ رُكْعًا سَجَدًا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ... ﴿١٦﴾ [الفتح].

وجاء مثلهم في الإنجيل، قال تعالى ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَازْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ... ﴿١٩﴾ [الفتح].

مبعثه - ﷺ -

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ... ﴿١٢٢﴾ [الأنعام]، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " أنزل على رسول الله ﷺ - وهو ابن أربعين، فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أمر بالهجرة؛ فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي - ﷺ - " (١).

وقد بُعث النبي ﷺ - من خير قرون بني آدم، روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ -، قال: " بُعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه " (٢).

وصح عن النبي ﷺ - أنه قال: " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " (٣).

وكانت رسالته للناس كافة: عربهم وعجمهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ [سبأ]، فرسالته -

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ٢٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ١٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء.

ﷺ - عامّة في المكان شاملة في الزّمان.

كنيته - ﷺ -

أخرج البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان النبيّ - ﷺ - في السّوق، فقال رجلٌ: يا أبا القاسم، فالتفت إليه النبيّ - ﷺ - فقال: إنّها دعوتُ هذا، فقال النبيّ - ﷺ -: سمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي" (١).

وقد أمر النبيّ - ﷺ - التّسمي باسمه الشّريف لأنّه مأمون التّبعه، فلا يحلّ أن يُنادى باسمه - ﷺ -، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾ (٦٣) [النور] بخلاف الكنية، فقد نهى عنها لأنّ المشاركة فيها قد تؤذي النبيّ - ﷺ -.

وقد اختلف في التكنّي بأبي القاسم على مذاهب، فقد ثبت عن الشّافعي المنع مطلقاً، ومنهم من أجاز مطلقاً وأنّ النهي يختصّ بحياته - ﷺ - وفهموا ذلك من السّبب المذكور في الحديث من أنّ النبيّ - ﷺ - التفت إلى الرّجل ولم يكن يعنيه، وقد زال بعده - ﷺ -، ومنهم من قال: لا يجوز لمن اسمه محمّد ويجوز لغيره، وهناك أقوال آخر تستحقّ أن تُطلب من مظانّها (٢).

صفته وصورته - ﷺ - كأنك تراه

وصف أنس بن مالك - رضي الله عنه - النبيّ - ﷺ - فقال: " كان ربعةً من القوم، ليس بالطويل ولا بالقصير، أزهر اللون ليس بأبيض أمهق ولا آدم، ليس بجعد قططٍ ولا

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٣/ص ٢٠) كتاب البيوع.

(٢) ذكر هذه المذاهب الإمام النووي في " صحيح مسلم بشرح النووي " (٧م/ج ١٤/ص ١١٢) كتاب الأدب، وانظر توجيه الإمام ابن حجر لهذه المذاهب في " فتح الباري على صحيح البخاري " (١٠م/ص ٤٧١) كتاب الأدب.

سَبَطِ رَجُلٍ" (١).

ومعنى كلام أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ - كان لا بالطويل الذاهب ولا بالقصير، لكنّه إلى الطول أقرب، وكان أبيض مُشرباً بياضه بحُمرة، وكان شعره وسطاً بين الجعد والمتسرح.

كذلك كان ﷺ - أحسن الناس وجهاً وأنورهم، لو رأيته رأيت الشمس طالعة، أو القمر بازغاً، لم يصفه واصف إلاّ شبهه بهما في الاستدارة والجمال سُئل البراء: " أكان وجهُ النبيّ ﷺ - مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر" (٢).

وقال رجل لجابر بن سمرة: " وجهُ مثل السيف؟ قال: لا، بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يُشبه جَسَدَهُ" (٣).

وقال كعب بن مالك: " وكان رسول الله ﷺ - إذا سُرَّ استنارَ وجهُه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه" (٤).

وجاء في مشيته أنّه ﷺ - كان إذا مشى أسرع وتمايل إلى قدام كأنها يمشي في الطريق صاعداً، أخرج أحمد بإسناد حسن، قال: " ما رأيت شيئاً أحسنَ من رسول الله ﷺ - كأنّ الشمس تجري في وجهه" (٥)، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ - كأنها الأرض تُطوى له إنا لنُجهدُ أنفسنا، وإنه لغيرُ مكترث (٦) وأخرج أحمد بإسناد صحيح عن محمد بن

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٤/ص ١٦٤) أحاديث الأنبياء.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٤/ص ١٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٥/ص ٩٧) كتاب الفضائل.

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٤/ص ١٦٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٥) شبه جريان الشمس في فلكها بجريان الحسن في وجهه ﷺ -.

(٦) أحمد " المسند " (ج ٩/ص ٥٣/رقم ٨٩٢٣).

علي عن أبيه قال : " إذا مَشَى تكفأً كأنها يمشي في صُعد " (١).

وكان النَّبِيُّ ﷺ - واسع العينين، طويل شعر الأهداب، وكان إذا التفت التفت بكليته، وكان غليظ أصابع الكفَّين والقدمين، فقد أخرج أحمد بإسناد صحيح عن محمد بن علي عن أبيه قال : " كان رسولُ الله - ﷺ - ضخمَ الرَّأس، عظيمَ العينين، هَدَبَ الأَشْفَارِ (٢)، مُشْرِبِ العين بحُمْرة، كَثَّ اللحية، أزهَرَ اللون، إذا مَشَى تكفأً (٣) كأنها يمشي في صُعد (٤)، وإذا التفتَّ التفتَّ جميعاً (٥)، شُنُّ الكفَّين والقدمين (٦) ". (٧)

وكان - ﷺ - دقيق شعر الصدر، فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن علي بن أبي طالب، قال : لم يكن النَّبِيُّ ﷺ - بالطويل ولا بالقصير، شُنُّ الكفَّين والقدمين، ضخم الرَّأس، ضخم الكراديس (٨)، طويل المُسربة (٩)، إذا مَشَى تكفأً تكفأً كأنها ينحطُّ من صَبَب (١٠)، لم أر قبله ولا بعده مثله - ﷺ - " (١١).

فيا مَنْ ترسمون صوراً للنبيِّ ﷺ - هذه هي صورة خَلْقِهِ - ﷺ - رسمناها نحن

(١) أحمد " المسند " (ج ١/ ص ٤٦٥ / رقم ٦٨٤)

(٢) الأشفار : جمع " شفر " وهو حرف جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، وهدبه : طول الشعر الذي ينبت عليه وكثرته.

(٣) تكفأً : تمايل إلى قدام.

(٤) الصُّعد : الطريق صاعداً.

(٥) التفت جميعاً : أي بكليته أراد أنه لا يسرق النظر.

(٦) شُنُّ : الغليظ الأصابع، ويُحمد هذا في الرجال ويذم في النساء.

(٧) أحمد " المسند " (ج ١/ ص ٤٦٥ / رقم ٦٨٤).

(٨) الكراديس : رؤوس الأصابع.

(٩) طويل المُسربة : أي دقيق شعر الصدر الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة.

(١٠) صَبَب : ما انحطَّ من الأرض.

(١١) الترمذي " مختصر الشَّاهل المحمَّديَّة " للألباني (ص ١٥).

المسلمين في شغاف قلوبنا، صورة مشرقة خالدة، تتوارثها الأجيال، ويعرفها من كل خَلْفٍ عُدُوله.

شيبه - ﷺ -

كان - ﷺ - قليل شيب الرأس واللحية، فقد قَبِضَ - ﷺ - ولم يبلغ ما في رأسه ولحيته من الشَّيب عشرين شعرة، قال أنس - رضي الله عنه - : "... فتوفاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرةً بيضاء" (١).

وروى مسلم عن أنس أنه سُئِلَ عن شيب النَّبِيِّ - ﷺ - فقال : " ما شأنه الله ببيضاء " (٢) يريد أن تلك الشعرات البيض لم تغيّر حُسْنَه - ﷺ -.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس، قال : " قال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله، قد شَبِتَ، قال : شَبَّيْتَنِي هُوْدٌ، والواقعة، والمرسلات، و(عَمَّ يتساءلون) و(إذا الشمس كورت) " (٣).

سنه - ﷺ -

أخرج البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، قال : " بُعِثَ رسول الله - ﷺ - لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجرَ عشر سنين، ومات وهو ابنُ ثلاثٍ وستين " (٤).

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج ٤/ص ١٦٥) أحاديث الأنبياء.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/ج ١٥/ص ٩٦) كتاب الفضائل.

(٣) الترمذي "الجامع الكبير" (٥م/ص ٣٢٥/رقم ٣٢٩٧) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في "المستدرک" (ج ٢/ص ٣٤٣، ص ٤٧٦) كتاب التفسير. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج ٤/ص ٢٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم =

واكرباه! (وفاته - ﷺ -)

أخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال : " لما نُقِلَ النَّبِيُّ - ﷺ - جعل يتغشاه، فقالت فاطمة - عليها السلام - : واكرب أباه، فقال لها : ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم، فلما مات، قالت : يا أبتاه، أجاب رياءً دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوسِ مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل نعاها، فلما دُفِنَ، قالت فاطمة - عليها السلام - : يا أنس، أطابت أنفُسُكم أن تُحْثُوا على رسول الله - ﷺ - التراب! " (١).

" الموافاة يوم القيامة "

قال الله تعالى خطاباً لِنَبِيِّهِ - ﷺ - ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفْأَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء].

فالمرجع إلى الله تعالى، والملاقاة لا بدّ كائنه وحاصلة يوم القيامة، أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس بن مالك أنّ النَّبِيَّ - ﷺ - قال لفاطمة لما وَجَدَ من كربِ الموت ما وجد : " لا كَرْبَ على أبيك بعد اليوم، إته قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً، الموافاة يوم القيامة " (٢).

= " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٥ج/١٥٢ ص) كتاب فضائل الصحابة، والتزمذي " مختصر الشّاهل المحمّديّة " (ص ١٩٢)

(١) البخاريّ " صحيح البخاريّ " (٣م/٥ج/١٤٤ ص) كتاب المغازي.

(٢) الترمذيّ " مختصر الشّاهل المحمّديّة " (ص ٢٠٢).

المبحث الثاني

أحبُّ من آلي ومالي

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ... ﴾ [١٩] [الفتح].

وجوب محبته - ﷺ - ونصرته

امتحن الله تعالى عباده الذين يحبون الله ورسوله هذه الآية، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران].

فقد اشترط الله على عباده لينالوا محبته أتباع رسوله - ﷺ - ولذلك فإن دعوى محبة الله والرسول دون اتباع دعوى باطلة وخاسرة؛ لأن من علامات محبة الله أتباع رسوله - ﷺ - ونصرة دينه، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه، وإحياء سنته، وتوقيره، ومن توقيره توقيير أصحابه - رضي الله عنهم - والإمساك عما شجر بينهم.

وقد أثبت الله الحب له، فقال: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة] وكلما كان العبد لله أعرف كان حبه أشد وطاعته أعظم، كما أثبت الله تعالى هذا التفاوت في الحب، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة]، ويزاد في محبة النبي - ﷺ - على محبة الله التخلق بخلقه - ﷺ - وقد عرفنا أن خلقه القرآن الكريم، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان.

وقد جعل الرسول - ﷺ - محبة الله ورسوله من شروط الإيمان في غير حديث، قال - ﷺ -: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " (١).

واسم التفضيل (أحب) هو أفعل بمعنى المفعول، أي حتى يكون الرسول محبوباً

(١) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ١ج / ٩ ص) كتاب الإيمان.

عنده أكثر من والده وولده والناس أجمعين؛ فمحبّة الرسول - ﷺ - أكد عليه من محبة من في الأرض جميعاً؛ لأن معرفة الحق بعد الضلال والنجاة من المهلكات والنار إنما كان بتوفيق من الله تعالى على لسان الرسول - ﷺ -..

ثم انظر كيف قدّم - ﷺ - الوالد على الولد للأكثرية، فكل واحد له والد، ولا يلزم أن يكون له ولد، ثم عطف النبي - ﷺ - الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص للأهميّة، فسبحان من بعثه بجوامع الكلم!

وقد بين - ﷺ - أن من ثمرات الإيمان محبة الله ورسوله، أخرج البخاري عن أنس عن النبي - ﷺ - قال: " ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما... " (١).

والإيمان بالله تعالى يستوجب محبة النبي - ﷺ - وإعلاء قدره على كل والد وولد ونفس، أخرج البخاري عن عبد الله بن هشام قال: " كنّا مع النبي - ﷺ - وهو آخذ بيد عمر ابن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنّ أحبّ إليّ من كلّ شيء إلا من نفسي، فقال النبي - ﷺ - له: لا والذي نفسي بيده حتّى أكون أحبّ إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنّه الآن والله لأنّ أحبّ إليّ من نفسي، فقال النبي - ﷺ - : الآن يا عمر " (٢).

ومن ثمرات محبة الرسول - ﷺ - أن من أحبه كان معه يوم القيامة أخرج البخاري عن أنس: " أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: ويملك، وما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها، إلا أنّي أحبّ الله ورسوله، قال: إنك مع من أحببت، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم؛ ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً " (٣).

(١) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ١ج / ١ ص ٩) كتاب الإيمان. والحديث فيه استعارة تخيلية جميلة، فقد شبه - ﷺ - الرغبة في الإيمان بشيء حلوا.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ٧ج / ٧ ص ٢١٨) كتاب الإيمان والنذور.

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ٧ج / ٧ ص ١١٢) كتاب الأدب.

توَعَدَ اللهُ مِنْ قَدَمِ مَحَبَّةٍ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَالرَّسُولِ - ﷺ - !

والأحاديث في محبة الله والرَّسول - ﷺ - كثيرة ومشهورة، ويلخصها قول الله تعالى:
﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا
وَبَنَاتُكُمْ فَتَحْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي
سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة].

ولا يخفى ما في هذه الآية من تهديد ووعيد ؛ فالله تعالى يتوعد من يحب هذه الأشياء
الثَّمانية، أو أَحَدَهَا على الله والرَّسول - ﷺ - وجهاد في سبيله، وينبه إلى أن من فعل ذلك ؛ فهو
من الفاسقين !

من مناقب الأنصار : محبة المهاجرين، ونصرة سيّد المرسلين ﷺ

ضرب لنا الأنصارُ المثل الأعلى في الأخوة في الله، فمن صفاتهم أنهم يحبون المهاجرين
ويؤثرونهم على أنفسهم بشهادة الله رب العالمين، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ
مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ... ﴾ [١] [الحشر].

ولذلك قال - ﷺ - : " لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شِعْباً لسلكتُ في وادي الأنصار،
ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار " (٢).

ولما سمع أبو هريرة - رضي الله عنه - ثناء النبي - ﷺ - على الأنصار، قال : " ما ظلم
بأبي وأمي ؛ أووه ونصروه، أو كلمة أخرى " (٣).

أي آتته - ﷺ - ما وضع هذا القول في غير موضعه، فإن الأنصار آووه وواسوه
ونصروه، وهذا شرف عظيم ذهب به الأنصار لا يدانيه شرف، فأبي شرف أعظم من نصرته

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ٢٢٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) المرجع السابق.

الله ورسوله - ﷺ - !؟ لكنهم لم يتفردوا به، وإنما شاركهم به المهاجرون، كما أن للتابعين حظاً منه .

" المحيا محياكم والمماتُ مماتكم "

ولما فتح النبيُّ - ﷺ - مكة ورأى الأنصار رافة النبيِّ - ﷺ - بأهلها وكف القتال عنهم، ظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها ويهجر المدينة وأهلها، فشق ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إلى رسوله - ﷺ - فأعلمهم النبيُّ - ﷺ - بقولهم، ثم أخبرهم بأنه ملازم لهم لا يحيا إلاّ عندهم ولا يموت إلاّ عندهم، ففاضت أعينهم من الدمع فرحا بما سمعوا من الرسول - ﷺ -
- روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - :

" يا معشرَ الأنصار، قالوا : لبيك يا رسول الله، قال : قُلْتُمْ أَمَا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتَهُ رَغْبَةٌ فِي قَرَيْتِهِ، قالوا : قد كان ذلك، قال كَلَّا إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هاجرتُ إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والمماتُ مماتكم، فأقبلوا إليه بيبكون، ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلاّ الصنّ بالله وبرسوله، فقال رسول الله - ﷺ - : إن الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم ^(١) ."

ولما أفاء الله على رسوله - ﷺ - يوم حنين بعد أيام من فتح مكة، قسم في الناس ولم يعطِ الأنصارَ شيئاً، فكان ناساً منهم حديثه أسنائهم ^(٢) وجدوا ؛ إذ لم يُصنِّهم ما أصاب الطلقاء، وكان النبيُّ - ﷺ - قد أعطى رجالاً من قريش حديث عهد بجاهلية يتألفهم، فلما حدث رسولُ الله - ﷺ - بمقاتلتهم من أنه أعطى قريشاً وتركهم، أرسل - ﷺ - إلى الأنصار، فجمعهم في قبة، وخطبهم، فلما علموا ما خفي عليهم من الحكمة رضوا بأن تكون غنيمتهم الكبرى مجاورة النبيِّ - ﷺ - حياً وميتاً، قال - ﷺ - :

" يا معشرَ الأنصارِ، ألمْ أجدُكم ضلّالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وعائلة فأغناكم الله بي ؟ كلّمنا قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ، قال : ما يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَجِيبُوا

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م / ج ١٢ / ص ١٢٨) كتاب الجهاد والسير .

(٢) ليسوا من فقهاء الأنصار أو رؤسائهم .

رسول الله - ﷺ - ؟ قال : كُلِّمًا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ، قَالَ : لَوْ شِئْتُمْ قَلْتُمْ : حِجَّتْنَا كَذَا وَكَذَا، أَلَا تَرَضُونَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاذِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكَتُ وَاذِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارُ وَالنَّاسُ دَنَائِرٌ^(١) إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ^(٢).

قتال جبريل وميكائيل عنه - ﷺ -

رأى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - الملائكة يوم أحد تقاتل مع النبي - ﷺ - وتدافع عنه، وهذه واحدة من مناقبه - رضي الله عنه - الثابتة، فقد رأى رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن النبي - ﷺ - كأشد القتال، روى مسلم عن سعد - رضي الله عنه - قال :
 " رأيت عن يمين رسول الله - ﷺ - وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض، ما رأيتها قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل - عليهما السلام -"^(٣).

نصرة أبي طالب للنبي - ﷺ - مع أنه لم يكن على دينه

كان عمه أبو طالب عضدًا له وناصرًا، فقد كَفَلَهُ من يوم مات فيه جدُّه عبد المطلب، واستمر على نصرته بعد أن بُعث إلى أن أدركه الموت. ولم تنل قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى في حياة أبي طالب ما كانت تطمع به ! فقد كان يردُّ عنه الأذى، ويمنعهم من الوصول إليه، وهو مقيم على دين قومه !

روى الحاكم بإسناد جيد عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي - ﷺ - قال : " ما زالت

(١) الشَّعَارُ هو الثوب الَّذِي يَلِي الْجِلْدَ، وَالدَّنَائِرُ مَا يَجْعَلُ فَوْقَ الشَّعَارِ، وَأَرَادَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَنَّهُمْ بَطَانَتُهُ وَخَاصَّتُهُ وَأَنَّهُمْ الْأَقْرَبُ إِلَى نَفْسِهِ.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج٥/ص١٠٤) كتاب المغازي، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج٧/ص١٥١) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج١٥/ص٦٦) كتاب الفضائل.

قريش كاعّة^(١) حتى توفي أبو طالب^(٢).

وسيرته في حياته النبي ﷺ - والدفاع عنه ذائعة، ومن مشهور شعره في ذلك، قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فلقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية ديننا
وكان أبو طالب يعرف أنه رسول الله، لكنه لم يقر له بذلك، ولذلك تجده يقول :

ودعوتني وعلمت أنك صادق
ولقد صدقت وكنت قَبْلَ أمينا
وظل أبو طالب مقيماً على نصره الرسول حياته كلها، ويأمر بنصرته، ولما حضرت
أبا طالب الوفاة، أراد النبي ﷺ - سيّد الأوفياء أن يردّ الجميل والمعروف لعمّه، فدخل عليه
قبل أن يدخل في الغرغرة، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال :

" أي عمّ قل لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن
أبي أمية : يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء
كلمهم به : على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ - : لأستغفرنّ لك ما لم أنة عنه، فنزلت :
﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا
تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة]، ونزلت : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ
أَحْبَبْتَ ... ﴾ [القصص]^(٣).

أما من قال : لم يُغنِ النبي ﷺ - عن عمّه شيئاً، مع أنّه كان ينصره ! فقد أجاب عن
هذه المسألة النبي ﷺ - نفسه، فقد أخرج البخاري في صحيحه أن العباس بن عبد المطلب

(١) أي جبانة.

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٢/ ص ٦٢٢) كتاب تواريخ المتقدّمين، وقال الحاكم : حديث صحيح على
شرط الشيخين ولم يخرّجاه، وقال الألباني : فيه عقبة المجدد، ولم يخرّج له الشيخان، وهو صدوق،
فالإسناد جيّد " صحيح السيرة النبوية " (ص ٣١).

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ٢٤٧) كتاب بدء الخلق.

قال للنبي ﷺ - : " ما أغنيت عن عمك، فوالله كان يحوطك ويغضب لك ؟! قال : هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" (١).

ونزل في حرص النبي ﷺ - على إيمان عمه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هدايته ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥١) [القصص].

والهداية المنفية في الآية الكريمة هي هداية التوفيق، فلا أحد يملكها إلا الله ؛ وإلا لهدى نوح - عليه السلام - ابنه، وهدى إبراهيم - عليه السلام - أباه... ولا تعارض بين الآية وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥١) [الشورى]، إذ أن الهداية المثبتة هداية التفسير والدلالة والبيان...

وتعجب حين تفق على حقيقة أن عمه الذي كان يدب عنه وينصره كان مقيماً على دين قومه، ومع هذا ظل فوق أربعين عاماً يدافع عنه، ويعز جانبه، ويغضب له، ويرد عنه القول والفعل !

أليس من باب أولى أن ننصره ونعززه نحن أتباعه الذين آمننا بالله ورسوله - ﷺ - ﴿ فَأَذِينِ أَمْنًا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٥٧) [الأعراف].

وما نصر أحد النبي ﷺ - على أعدائه بكبيرة أو صغيرة إلا كُتِبَ له ثواب ذلك، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٢٠) [التوبة].

لا عذر لنا عند الله إن خُلِصَ إلى رسول الله - ﷺ - !

يوم أحد بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن ثابت - رضي الله عنه - يطلب سعد بن الربيع

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ ج ٤ / ص ٢٤٧) كتاب بدء الخلق.

(أحد نقباء الأنصار)، فطاف - رضي الله عنه - بين القتلى حتّى وجده في آخر رمق وقد أصيب بطعنات، فقال له :

" يا سعد، إنّ رسول الله يقرأ عليك السّلام، ويقول لك : خبّرني كيف تجدك ؟ قال : على رسول الله - ﷺ - وعليك السّلام، قل له : أجد ريح الجنة، وقُلْ لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن يُلخِص إلى رسول الله - ﷺ - وفيكم عينٌ تطرفُ، قال : وفاضت نفسه "(١).

فأين نحن من وصيّة الصحابيِّ سعد بن الرّبيع - رضي الله عنه - وقد خُلص إلى رسول الله - ﷺ - ؟! هل يُقال ضاع الحقُّ على ألسنة أتباعه ؟! ألا نكون أنصاراً لله ورسوله ؟! أليس من نصر في الله دين محمّد - ﷺ - على من بغى في الدّين فقد رعى إلا ؟!

دفاع حسان بن ثابت عن النّبِيِّ - ﷺ -

حسان بن ثابت الأنصاري، شاعر الرّسول - ﷺ - في أيام النّبوة، وشاعر اليمن كلّها في الإسلام، وفي الصّحاحين من طريق سعيد بن المسيّب، قال : " مرَّ عمْرُ في المسجد وحسانٌ يُنشدُ، فقال : كنتُ أنشدُ فيه وفيه من هو خيرٌ منك، ثمّ التفتت إلى أبي هريرة، فقال : أنشدك بالله، أسمعْت رسول الله يقول : أحبّ عني، اللهمّ أيده بروح القدس، قال : نعم "(٢).

وفي الصّحاحين من طريق البراء بن عازب، قال : قال النّبِيُّ - ﷺ - لحسان : " اهْجِئْهُم أو هاجِئْهُم وجبريل معك "(٣).

وهذا واجب كل مسلم يسمَع أذى موجهاً للنّبِيِّ - ﷺ - أن يُجيبَ عنه - ﷺ - وأن ينافح عنه لطلب النّبِيِّ - ﷺ - من أصحابه ذلك بعد أن آذاه من آذاه، فقد ندب - ﷺ - المسلمين أن

(١) الحاكم : " المستدرک " (ج ٣ / ص ٢٠١) كتاب معرفة الصّحابة، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ٧٩) كتاب بدء الخلق. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النّوي " (٨م / ج ١٦ / ص ٤٥) كتاب فضائل الصّحابة.

(٣) المرجع السّابق.

يدافعوا عنه لما للكلمة من تأثير ووقع، فأرسل إلى عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، لكنّه لم يَرْضَ إلاّ عن أسد الشعراء حسان، ففي الصحيح عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - قال :
 " اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ، فَأرسل إلى ابن رواحة، فقال :
 اهُجُّهُمْ، فلم يَرْضَ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثمّ أرسل إلى حسان بن ثابت، فلمّا دخل عليه، قال حسان : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضّارب بذنّيه^(١)، ثمّ أدلّع (أخرج) لسانه فجعل يُجرّكه، فقال : والذي بعثك بالحقّ لأفريتهم بلساني فزّي الأديم، فقال رسول الله : لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلم قريش بأنسائها، وإنّ لي فيهم نسبا حتى يُلخّص لك نسبي، فأناه حسان، ثمّ رجع، فقال : يا رسول الله قد لخصّ لي نسبك والذي بعثك بالحقّ لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول لحسان : إنّ روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله، وقالت : سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: هَجَاهُمْ حَسَانٌ فَشَفَى وَاشْتَفَى، قال حسان :

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
 هَجَوْتُ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا رَسُـوْلَ اللَّهِ شَيْمَةً الْوَفَاءُ
 فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ^(٢)

وهذه الأبيات قالها حسان قبيل فتح مكّة، قالها في مدح النبيّ - ﷺ - وهجاء قريش، فوَقَّعت كلماته في نفوسهم موقع السّهام في شغاف القلوب فالهمم وأبكمهم، والقصيدة بطولها في ديوانه، ومنها قوله - رضي الله عنه - :

وقال الله قد أرسلتُ عبداً يقول الحقّ ليس به خفاءُ
 وقال الله قد يسرتُ جنداً هم الأنصار عرضتُها اللقاءُ

(١) شبه حسان نفسه بالأسد ولسانه بذنّيه.

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٦ج/٤٨ ص) كتاب فضائل الصحابة.

سبابٌ أو قتالٌ أو هِجَاءٌ
وَمِدْحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاءُ
وَبِحَرِي لَا تَكْذَرُهُ الدَّلَاءُ

يَلْقَى كُلَّ يَوْمٍ مِّنْ مَّعَدٍ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
لِسَانِي صَارَ لِي عَيْبًا فِيهِ
وَقَالَ يَمْدَحُ النَّبِيَّ - ﷺ - :

وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءُ
كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ^(١)

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي
خُلِقْتَ مِرًّا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ

وما من شك في أن دفاع حسان بن ثابت - رضي الله عنه - بلسانه عن النبي - ﷺ - كان له
تأثير أبلغ من السيف، فالشعر له وقع في النفس، ويتناقله الناس ويظلّ قرونا، وقد أصاب
وأحسن يعقوب الحمدوني حين قال :

وَلَا بُرءَ لِمَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وَقَدْ يُرْجَى لِحَرْحِ السَّيْفِ بُرءٌ

كما أحسن من قال :

وَيَقِي الدَّهْرُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وَجَرَحُ السَّيْفِ تَدْمِيْلُهُ فَيَبْرَأُ

(١) "ديوان حسان" (ص ١٧)

القسم الثاني المبحث الأول

من آذى النبيّ - ﷺ - فقد أغضب ربّه

﴿وَلَسْمُعَبٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا

وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْرِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران].

ألا تعجبون كيف يصرف الله عن نبيّه الأذى!؟

كان كُفَّارُ قريش من شدّة بغضهم للنبيّ - ﷺ - وكراهتهم له لا يسمّونه باسمه الدّال على المدح (محمد) لأنه اسم مفعول مشتق من الفعل الرّباعي (حمّد) المضاف للمبالغة أي كثير الخصال المحمودة على المفعول، أو كثير الحمد على الفاعل؛ فيعدلون عن هذا الاسم المشرف المشرق إلى ضده، فيسمونه مذمّماً.

ولذلك روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: " ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم! يشتمون مذمّماً، ويلعنون مذمّماً، وأنا محمّد" (١) فاعجب كيف يصرف الله عن اسمه - ﷺ - وصفته أذى قريش!

وقد كان الذي يذكرونه بحقه - ﷺ - مصروفاً إلى غيره، لأنّ مذمّماً ليس اسم النبيّ - ﷺ - فلا يُفسّر مذمّماً بمحمّد بوجه من الوجوه، ولذلك فإنّ شتم الشّانئين مصروف إليهم، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾ [الأسراء] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...﴾ [فصلت] فمن أساء إنّما أساء إلى نفسه في الدّنيا والآخرة! ولن يضرّ الرّسول - ﷺ - كلامٌ شانى أبداً:

(١) البخاري " صحيح البخاري " (م/ ٢ / ج ٤ / ص ١٦٢) كتاب أحاديث الأنبياء.

ما يضرّ البحر أمسى زاحراً أن رمى فيه غلاماً بحجر
وسيقى البحر الزّاحر زاحراً، وسيقى ذكر من رفع الله ذكره كائناً : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ [الرعد].

وإذا كان المقصود النيل من الإسلام فمعاذ الله أن يقدر أحد على ذلك، قال الله تعالى :
﴿ أَيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ... ﴾ [المائدة].

الذين يتناجون بالإثم والعدوان

روى البخاري عن أنس بن مالك قال : " مرّ يهوديّ برسول الله - ﷺ -، فقال : السّام عليك. فقال رسول الله - ﷺ - : وعليك، فقال رسول الله - ﷺ - : أتدرون ما يقول ؟ قال : السّام عليك. قالوا : يا رسول الله ، ألا نقتله ؟ قال : لا، إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم"^(١).

وروى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " استأذن رَهْطٌ من اليهود على النّبي - ﷺ - فقالوا : السّام عليك، فقلت : بل عليكم السّام واللّعة، فقال : يا عائشة، إن الله رفيقٌ يحبُّ الرّفقَ في الأمر كلّه. فُلتُ : أولم تسمع ما قالوا ؟ قال : قلتُ : وعليكم"^(٢).

وقد ترك النّبي - ﷺ - قتلهم، وصبر على أذاهم لمصلحة التّأليف، ولأنهم لم يعلنوا ولم يصرّحوا، وإنما لَوَّوا بالسّنتهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الذين كانوا يخيّنون النّبي - ﷺ - بهذه التّحية الظّالمة، الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية النّبي - ﷺ - ويقولون فيما بينهم : لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَهَوْا عَنِ التَّجْوِي مُمَّ يَعُوذُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَوْ يُحْيِيكَ بِهِ اللَّهُ

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/٥١ ص) كتاب استنابة المرتدين والمعاندين.

(٢) المرجع السّابق.

وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ [المجادلة].

وعلى ذلك فإنّ الذين يؤذون النبيّ - ﷺ - في زماننا، ولسان حالهم يقول: لو كان نبيّاً ما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، يجهلون أنّ الله حليم لا يعجل العقوبة لمن سبّه، فكيف من سبّ نبيّه!

فلا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيّ - ﷺ - قال: " قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيّاي فزعم أيّ لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إيّاي، فقوله: لي ولدٌ، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً" (١).

وكثير هي الآيات التي أشارت إلى ما بيّنته الأحاديث الشريفة من أنّ الله لا يعجل كعجلة أحدنا، وإنّا يميل للظالم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل]، وقال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر].

ولكن لمن تقول هذا الكلام: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبِكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال]، ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال].

ونحن المسلمون نُؤْمِنُ بجميع الأنبياء والمرسلين، ولا نستثني منهم أحداً، ولا أدري كيف يجترئ عبداً على مُعاداة نبيّ، والله تعالى يقول في الحديث القدسي: " من عادى لي ولياً

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٣م / ٥ج / ص ١٤٩) كتاب تفسير القرآن.

فقد أذنته بالحرب " (١) فما بالك بمن عادى نبياً! ولكن كما قال القائل :

لا يُصلِحُ الواعظُ قلبَ امرئٍ لم يعزِمِ اللهُ على رُشدِه !

من آذى النَّبيَّ ﷺ - فقد أغضب ربَّه !

لما اختلف أبو بكر وربيعة - رضي الله عنهما - في عذق نخلة، يقول ربيعة فقلت :
" هي في حدِّي، وقال أبو بكر : هي في حدِّي، فكان بيني وبين أبي بكر كلامٌ، فقال أبو بكر
كلمةً كرهها ونَدِمَ، فقال لي : يا ربيعة، رُدَّ عليَّ مثلها حتى تكون قصاصاً، قال : قلت : لا
أفعل، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : لتفوكنَّ أو لأستعدينَّ عليك رسول الله - ﷺ -، فقلت :
ما أنا بفاعل، قال : ورفض الأرض .

وانطلق أبو بكر - رضي الله عنه - إلى النَّبيِّ ﷺ - وانطلقتُ أتلوهُ، فجاء ناسٌ من
أسلم، فقالوا لي : رحم الله أبا بكر، في أيِّ شيء يستعدي عليك رسول الله - ﷺ -، وهو قال
لك ما قال ؟! فقلتُ : أتدرون ما هذا ؟ هذا أبو بكر الصِّديق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شبيبة
المسلمين، إياكم لا يلتفتُ فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله - ﷺ - فيغضب
لغضبه، فيغضب الله - عزَّ وجلَّ - لغضبهما، فيهلك ربيعة! قالوا : ما تأمرنا ؟ قال : ارجعوا .

قال : فانطلق أبو بكر - رضي الله عنه - إلى رسول الله - ﷺ - فتبعتهُ وحدي حتى أتى
النَّبِيَّ ﷺ - فحدّثه الحديث كما كان، فرفع إليَّ رأسه، فقال : يا ربيعة، مالك وللصِّديق ؟! قلتُ :
يا رسول الله، كان كذا كان كذا، قال لي كلمةً كرهها، فقال لي : قل لي كما قلتُ حتى يكون
قصاصاً، فأبيتُ، فقال رسول الله - ﷺ - : أجل فلا ترُدَّ عليه، ولكن قل : غفر الله لك يا أبا بكر،
فقلتُ : غفر الله لك يا أبا بكر، قال الحسن : فوَلَّى أبو بكر - رضي الله عنه - وهو يبكي ! " (٢) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج٧/ص ١٩٠) كتاب الرِّقاق .

(٢) أخرجه أحمد بسند صحيح عن ربيعة بن كعب الأسلمي في " المسند " (ج١٣/ص ٧٢/رقم ١٦٥٣٠)
وأخرجه الحاكم في " المستدرک " (ج٢/ص ١٧٤) كتاب النِّكاح، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح
على شرط مسلم، ولم يخرِّجه .

وانظر إلى ما يُستفاد من تحذير ربيعة بن كعب لقومه من أن يسمعهم أبو بكر ينصرونه عليه، فقد خشي أن يسمعهم أبو بكر فيغضب، فيخبر رسول الله - ﷺ - فيغضب، فيغضب الله لغضبهما، فيهلك ربيعة !

فالتعدي على النبي - ﷺ - يغضب له الله - عز وجل -، فليحذر الذين يؤذون النبي - ﷺ - أن يحلل عليهم غضب الله تعالى، فالله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [٨١] ﴿ طه.]

وقد جعلت الآيات شقاق الله ورسوله، ومحادة الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله، وأذى الله ورسوله أمراً واحداً، فقال الله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّكَ لَتَجِدَنَّ اللَّهَ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴾ [١٣] ﴿ الأنفال،] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ [٥] ﴿ المجادلة،] وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ [١٤] ﴿ النساء،] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِمًّا ﴾ [٥٧] ﴿ الأحزاب.]

وإذا كان أذى النبي - ﷺ - يترتب عليه غضب الله تعالى، فإن أذى الصحابة باب خطر أيضاً؛ أتى أبو سفيان نफراً من الصحابة فيهم سلمان، وبلال، وصهيب - رضي الله عنهم - وكان أبو سفيان يومها على الكفر في الهدنة بعد صلح الحديبية، فقالوا له قولاً كرهه أبو بكر - رضي الله عنه - فقال لهم أبو بكر: " أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ! " فجاء أبو بكر النبي - ﷺ - فأخبره بالذي كان منهم، فحشي النبي - ﷺ - أن يكون أبو بكر قد أغضب أصحابه، لما ينتج عن ذلك من غضب الله تعالى !

أخرج مسلم عن عائذ بن عمرو: " أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ! قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ! فأتى النبي - ﷺ - فأخبره.

فقال : يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فاتأهـم أبو بكر ، فقال : يا أـوتاه ، أغضبتكم ؟! قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخي " (١٠) .

وانظر كيف يخبر النبي ﷺ - أن أبا بكر الصديق - خير من طلعت عليه الشمس من الرجال بعد النبيين - إن كان أغضب أحداً من الصحابة فقد أغضب ربه ! فما بالك بمن يسب الصحابة وهو ليس واحداً منهم !

المغايرة في الجزاء بين أذى الرسول ﷺ - وأذى غيره

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ [الأحزاب] .

انظر كيف غاير الله تعالى وخالف في الجزاء بين أذى الرسول وأذى غيره من المؤمنين والمؤمنات ! فرتبة المؤمنين والمؤمنات دون رتبة النبي ﷺ - وأذى النبي ﷺ - ليس كأذى أحد من الناس ، فتدبر

حكم الاستهزاء بالنبي ﷺ -

لما توجه النبي ﷺ - إلى تبوك وكان معه ثلاثون ألفاً من أصحابه - رضي الله عنهم - وإذ بجماعة من المنافقين ومرضى القلوب يهزؤون بالنبي ﷺ - ويسخرون منه ، فذهب النبي ﷺ - إليهم يسألهم عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ يا أيها الرسول عن استهزائهم وهم سائرون إلى تبوك ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ معتردين ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخَوْضُ وَلَنَلْعَبُ ﴾ في الحديث لنقطع به الطريق ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ أَيَا لِلَّهِ وَإِيَّائِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ ٦٥ ﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ... ﴿ ١١ ﴾ [التوبة] .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٦/ص ٦٦) كتاب فضائل الصحابة .

هذا نص صريح في أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر، وأن كل من تنقص النبي - ﷺ - جاداً أو هازلاً فقد كفر! ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠) [يس].

فحلفوا بالله كاذبين أنهم ما استهزؤوا بالنبي - ﷺ -، قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما بلغك عنهم ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ والآية تشعر أن الكلمة الواحدة في هجاء النبي - ﷺ - موجبة للكفر! ﴿وَهُمْ أَوْ يَمَّا لَمْ يَسْأَلُوا...﴾ (٧٤) [التوبة] من الفتك بالنبي - ﷺ - ليلة العقبة عند عودته من تبوك ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤) [التوبة].

وقد ترك النبي - ﷺ - هؤلاء المنافقين ولم يجازهم ولم يقيم عليهم الحد لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ...﴾ (٤٨) [الأحزاب]، فلم يكن أمر بجهاد المنافقين بعد.

قلت: وليحذر المستهزون في كل زمان ومكان ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣) [النور]، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٤٥) [الحجر].

الحكم فيمن سب النبي - ﷺ -

هذه حكاية أم ولد لرجل كان أعمى، كانت تشتم النبي - ﷺ -، فكان يزجرها فلا تنزجر، وينهاها فلا تنتهي، فقتلها، فذهب دمها هدراً، أخرج النسائي بإسناد صحيح عن عثمان الشحام، قال: كنت أقود رجلاً أعمى، فانتهيت إلى عكرمة فأنشأ يحدّثنا، قال: حدثني ابن عباس:

" أن أعمى كان على عهد رسول الله - ﷺ -، وكانت له أم ولد، وكان له منها ابنان، وكانت تكثر الوقعة برسول الله - ﷺ - وتسبه، فيزجرها فلا تنزجر، وينهاها فلا تنتهي، فلما

كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، ذَكَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ - فَوَقَعْتُ فِيهِ فَلَمْ أَصْبِرْ أَنْ قَمْتُ إِلَى الْمَغُولِ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا فَاتَكَأْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهَا، فَأَصْبَحْتُ قَتِيلًا، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ - فَجَمَعَ النَّاسُ، وَقَالَ: أَنْشُدْ اللَّهَ! رَجُلًا لِي عَلَيْهِ حَقٌّ فَعَلَّ مَا فَعَلَ إِلَّا قَامَ، فَأَقْبَلَ الْأَعْمَى يَتَدَلَّدُ^(١)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَتْ أُمٌّ وَلَدِي، وَكَانَتْ بِي لَطِيفَةً رَفِيقَةً، وَبِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤَيْنِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَكْثُرُ الْوَقِيعَةَ فِيكَ وَتَشْتَمُكَ، فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ. فَلَمَّا كَانَتْ الْبَارِحَةَ ذَكَرْتُكَ فَوَقَعْتُ فِيكَ، قَمْتُ إِلَى الْمَغُولِ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا، فَاتَكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلْتَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَلَا أَشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدْرٌ"^(٢).

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ عَنْ أَبِي بَرزَةَ، قَالَ: "تَغَيَّظَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَجُلٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هُوَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -؟ قَالَ: لِمَ؟ قُلْتُ: لِأَضْرَبَ عُنُقَهُ إِنْ أَمَرْتَنِي بِذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَوْ كُنْتُ فَاعِلًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَوَاللَّهِ لَا ذَهَبَ عَظْمُ كَلِمَتِي الَّتِي قُلْتُ غَضَبَهُ، ثُمَّ قَالَ: مَا كَانَ لِأَحَدٍ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ -"^(٣).

حُكْمُ الْإِسْتِهْزَاءِ بِالصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَبِالْمُؤْمِنِينَ

لَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ - بَابَ التَّطَوُّعِ لِلجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْخَارِجِ إِلَى تَبُوكَ وَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ، يَقُولُ أَبُو مَسْعُودٍ: "فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنَصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، فَقَالَ الْمَنَافِقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا إِلَّا خُرٌّ إِلَى رِيَاءٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا

(١) يضطرب في مشيته

(٢) النَّسَائِيُّ "صَحِيحُ سُنَنِ النَّسَائِيِّ" لِلأَلْبَانِيِّ (ج ٣/ص ٨٥٣/رقم ٣٧٩٤) و"الْحَاكِمُ فِي" الْمُسْتَدْرَكِ " (ج ٤/ص ٣٤٥) كِتَابُ الْحُدُودِ وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يَخْرُجْ.

(٣) الْحَاكِمُ "الْمُسْتَدْرَكِ" (ج ٤/ص ٣٤٥) كِتَابُ الْحُدُودِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادُ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ.

يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ... ﴿٧٩﴾ [التوبة] (١).

هذه الآية فضحت المنافقين، ولذلك سميت سورة التوبة الفاضحة، وانظر إلى غيرة الله تعالى على أوليائه حيث سخر الله ممن سخر من المؤمنين وتوعدهم بعذاب أليم، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة]، فهذه العلة كافية في عدم المغفرة لهم! فإذا كان هذا حال من يَسْخَرُ من بعض المؤمنين الطائعين، فما بالك بمن يَسِبُ أصحاب النبي الكريم، وقد قال - ﷺ -: "مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (٢)!

من منَحِ المحنَةَ

كم من نعمة في طيِّ المكارهِ كامنة! فمن الفوائد الكامنة في هذه المحنة التي تعرّض لها المسلمون أنّ هذا الأذى الكبير الذي نسمعه في حقّ النبي - ﷺ - وأصحابه دليلٌ على صدق القرآن الكريم، فقد نطق القرآن به وأخبر عنه، قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا... ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران]، وما نحن نسمع هذا الأذى كما أخبرنا الله - عزّ وجلّ - فإلى الله المشتكى من ظلم العباد.

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج ٥/ص ٢٠٥) كتاب تفسير القرآن.
(٢) الألباني: "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٥م/ص ٤٤٦)، وقال: بمجموع طرقه حسن.

المبحث الثاني

صور مما لقي النبي ﷺ من الأذى وهو صابر وما نزل من القرآن

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ...﴾ (٣١) [الفرقان].

لكل نبي عدو

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...﴾ (١١٢) ﴿...﴾ [الأنعام]، فمن حكمة الله تعالى أنه لم يبعث نبياً إلا وجعل له أعداء يشككون بها جاء به ويعتدون عليه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١) [الفرقان]، فانظر إلى آدم وإبليس، وإبراهيم والنمرود، وموسى وفرعون، والنبي محمد ﷺ - وأبي جهل وأبي لهب... لكن من نعمة الله تعالى عليهم أن جعل مُقَابِلَ ذلك الهداية والنصرة لهم حقاً عليه، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١) [الفرقان].

وهذا الاعتداء على النبي ﷺ - قديم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَبْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ...﴾ (٤٨) [التوبة]، فكم هم الذين أجالوا الفكر في كيد النبي ﷺ - وإبطال دينه من المشركين والمنافقين، ولكن من كان الله معه فمن عليه؟!

كما أن أعداء النبي ﷺ - (شياطين الإنس والجن) باقون حتى يومنا هذا، ولا أدري ماذا يريدون من رسول الله ﷺ -؟! آذوه بعد مماته، كما آذاه أسلافهم من قبل في حياته؟!

فقد لقي النبي ﷺ - من ألوان الأذى شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين، اختبأ في دار الخيزران^(١)، وهم يتربصون به؛ فجعل يفرُّ بدينه من مكان إلى مكان، وهم يدمون قدميه

(١) الدار التي عند الصفا.

الشَّرِيفَتَيْنِ، وَيَشْقُونَ سَلَا الْجَزُورِ عَلَى ظَهْرِهِ.

ولبت عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومَجَنَّةً وَعُكَاطَ وَمَنَازِلَهُمْ مِنْ مَنَى، وهو يقول: "من يؤويني، من ينصري، حتى أبلغ رسالات ربي؛ فله الجنة؟ فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مِصْرٍ أو من اليمن إلى ذي رحمة، فيأتي قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك" (١).

وَتُكْسِرُ رَبَاعِيَّتَهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَيَشْجُ فِي رَأْسِهِ وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ! وَيَمُوتُ ابْنُهُ، وَتَقْذِفُ زَوْجَتَهُ، وَيُظْهِرُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ الْمِعْجَزَاتِ، وَهُمْ يَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦) ﴿الحجر﴾، فيكذبهم الله ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ (١٢) ﴿التكوير﴾.

ويصفونه بأنه شاعر أو كاهن: ﴿وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَتَأْرِكُوا إِلَهَاتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٣٦) ﴿الصافات﴾، فيهدم الله وصفهم، فيقول: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ (٤٢) ﴿الحاقة﴾.

ويصفونه بأنه ساحر كذاب: ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ﴾ (٤) ﴿ص﴾، فيقول الله: ﴿كَذٰلِكَ مَا آتَىٰ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَّسُوْلٍ اِلَّا قَالُوْا سٰحِرٌ اَوْ مَجْنُوْنٌ﴾ (٥٢) ﴿اَنْوٰصُوْرًا بِهٖۤ اٰتٰى هُمْ قَوْمٌ طٰغُوْنَ﴾ (٥٣) ﴿الذاريات﴾.

ويواجهونه دون استحياء بأنه مُفْتَرٍ مَتَقَوْلٍ عَلَى اللَّهِ بِمَا لَمْ يَقُلْ: ﴿قَالُوا اِنَّمَا اَنْتَ مُفْتَرٍ...﴾ (١١) ﴿النحل﴾، فيرد الله بما يدفع جهلهم: ﴿بَلْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ (١١) ﴿النحل﴾، ثم يرد مؤكداً: ﴿اِنَّمَا يَفْتَرِي الْكٰذِبَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيٰتِ اللّٰهِ وَاُوْلٰئِكَ هُمُ

(١) الحاكم "المستدرک" (ج ٢ / ص ٦٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الْكَذِبُونَ ﴿١١٥﴾ [النحل].

ويفسفونه بأنه ضَلَّ، فيهدم الله ما قالوا: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ... ﴾ ﴿٢﴾ [النجم].

﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ... ﴾ ﴿١١﴾ [التوبة] أي يسمع كل قيلٍ ويقبله، فيرد الله عليهم: ﴿ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾ ﴿١١﴾ [التوبة].

ويقولون: ﴿ مَا سَعَيْنَا يَهْدِي فِي الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ ﴿٧﴾ [ص]، فقال الله: ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ [ص].

فيا شياطين الإنس والجنّ في كلّ زمان ومكان، يا مَنْ تؤذون الله ورسوله ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ... ﴾ ﴿٧٠﴾ [آل عمران]؟ ﴿ لِمَ تَلْسِئُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ... ﴾ ﴿٧١﴾ [آل عمران]؟ ألم يصلحكم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ﴿٥٧﴾ [الأحزاب]؟ لعمرى ما صبر على ذلك نبيّ قبله؛ فهذا نبيّ الله نوح يضيق ذرعاً بقومه، فيقول: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ﴿٢٧﴾ [نوح]، وخاتم النبيين لما قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه عليه - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها - فقيل: هلكت دوس - قال: "اللهم اهد دوساً وأت بهم" (١).

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ ٣ ج / ص ٢٣٥) كتاب الجهاد والسير.

وهذا نبيُّ الله سليمان - عليه السَّلام - يقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص] ونبيُّ الرَّحمة يقول: "اللهم ارزق آل محمد قوتاً" (١).

حدّث عائشة - رضي الله عنها - قالت: "كان فراش رسول الله - ﷺ - من آدم (جلد مدبوغ) وحشوه من ليف" (٢) وقالت: "ما شبع آل محمد - ﷺ - منذ قدم المدينة من طعام برّ ثلاث ليال تباعا حتى قبض" (٣).

فمن يداني رسول الله - ﷺ - بأخلاقه وصبره وزهده وإشفاقه على أمته...! من يباري رسول الله - ﷺ - الذي أمره الله تعالى أن يصبر الصبر الجميل، وأن يصفح الصفح الجميل، وأن يهجر الهجر الجميل، قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج]، وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [٨٥] ﴿الحجر﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [١٠] [المزمل].

أشدّ ما صنع المشركون بالنبيّ - ﷺ - ودفاع أبي بكر عنه !

سأل عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - عبد الله بن عمرو عن أشدّ ما صنع المشركون برسول الله - ﷺ - فقال: " رأيتُ عُبَيْةَ بنَ أَبِي مُعَيْطٍ جاءَ إلى النَّبِيِّ - ﷺ - وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه، فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه - ﷺ - فقال: ﴿أَنْقَتُلُونْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ... [غافر] (٤) .

مقالة العاصي بن وائل وما أنزل فيه من القرآن

كان حَبَّابُ بن الأرت - رضي الله عنه - رجلاً حدّاداً، وكان له على العاصي بن وائل

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج ٧/ ص ١٨١) كتاب الرِّزاق.

(٢) المرجع السَّابق.

(٣) المرجع السَّابق.

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٤/ ص ١٩٧) كتاب أحاديث الأنبياء.

السَّهْمِيَّ دَيْنٍ، فجاءه يتقاضاه حقّه، فرفض العاصي أن يقضي له دينه حتى يكفر بالنَّبِيِّ - ﷺ - فقال له خَبَابُ : " لا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ " أي حَتَّى تَمُوتَ وتبعث أمامي، وهذا من باب التَّيْيِسِ والاستحالة، فقال العاص منكرًا : " وَإِنِّي لَمِيتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ ؟! قال : نعم . قال : فإنه سيكون لي، ثُمَّ مَالٌ وولِدٌ، فأفضيك " فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ قِرْآنًا يَتْلَى عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ .

أَخْرَجَ البُخَارِيُّ عَنِ خَبَابِ، قَالَ : " كُنْتُ قَيْنًا (حَدَادًا) فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِي بنِ وائِلِ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَنْقَاضَهُ . قَالَ : لا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ - ﷺ - . فَقُلْتُ : لا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ . قَالَ : دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ، وَأُبْعَثَ ، فَسَأَوْتِي مَالًا وَوَلَدًا ؛ فَأُفْضِيكَ . فَنَزَلَتْ : ﴿ أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ ﴾ [مريم] " (١) .

وَأَخْرَجَ الحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : " جَاءَ العَاصِ بنِ وائِلِ إِلَى رَسولِ اللهِ - ﷺ - . بِعَظْمِ حَائِلٍ (٢) فَفَتَّهٗ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ، أَيْعُتُّ اللهُ هَذَا بَعْدَمَا أَرَمُ ؟! قَالَ : نَعَمْ، بِيَعُتُّ اللهُ هَذَا، يُمِيتُكَ، ثُمَّ يَحْيِيكَ، ثُمَّ يَدْخُلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ، قَالَ فَنَزَلَتْ الآيَاتُ : ﴿ أَوْلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس] " (٣) .

(١) البخاري "صحيح البخاري" كتاب البيوع (٢م / ٣ ج / ص ١٣) . وأخرجه في كتاب الإجارة (٢م / ٣ ج / ص ٥٢) وكتاب تفسير القرآن (٣م / ٥ ج / ص ٢٣٧) .
(٢) أي متغير باللب.

(٣) الحاكم "المستدرک" (٢ ج / ص ٤٢٩) كتاب التفسير . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .

مقالة عبد الله بن سلول - رأس المنافقين - وما أنزل فيه من القرآن

في غزوة (بني المصطلق) ضرب رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار برجله، فنادى الأنصاريّ: يا للأنصار! ونادى المهاجريّ: يا للمهاجرين! وكانت الأنصار يومها أكثر من المهاجرين، فنهاهم رسول الله - ﷺ - عن دعوى الجاهلية، فسمع بذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول، فقال: " فَعَلُّوْهَا؟ " وهو استفهام ولكن حذفت الأداة، وقد خرج الاستفهام إلى معنى الأمر، فالمراد: افعلوها، أي الأثرة، وعدم الإنفاق على من عند رسول الله - ﷺ -، ثم أقسم إذا رجع من هذه الغزوة وعاد إلى المدينة أن يخرج الأعزّ منها الأذلّ، وعنى بالأعزّ نفسه وأتباعه، وبالأذلّ رسول الله - ﷺ - ومن معه، فسمعه زيد بن أرقم - رضي الله عنه - فأخبر بذلك رسول الله - ﷺ - وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنّه ما قال وكذّب زيداً، فنزل قول الله تعالى: ﴿ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۗ ﴾ (٧) يَقُولُونَ لِيَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا مِنَ الْأَعَزِّ مَتَّهَا الْأَذَلَّ ۗ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ ۗ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون].

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: " كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ! فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ: مَا بَأْسَ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟! قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعْوَاهَا فَإِنَّمَا مُتَنَّبَةٌ. فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِيّ، فَقَالَ: فَعَلُّوْهَا؟ أَمَا وَاللَّهِ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ - ﷺ - فَقَامَ عَمْرٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أُضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ -: دَعُهُ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " (١).

وأخرج عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: " لما قال عبد الله بن أبيّ: لا تنفقوا

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ ج٦/ ص ٦٦) كتاب تفسير القرآن.

على من عند رسول الله، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة، أخبرت به النبيّ - ﷺ -، فلامني الأنصار، وحلف عبد الله بن أبي ما قال ذلك، فرجعتُ إلى المنزل فتمت، فدعاني رسول الله - ﷺ - فأتيته، فقال: إن الله قد صدّقك ونزل: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا ...﴾ (٧) [المنافقون] (١).

مقالة أبي جهل، وما نزل فيه من القرآن

كان أبو جهل ينهى رسول الله - ﷺ - عن الصلاة، فكان كمن باع السّلامةَ بالهلاك والعطب، وبلغ به الأمر أن توعد النبيّ - ﷺ - أن يطأ على رأسه الشريف إذا رآه يصلي عند الكعبة، حتى نزل فيه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (١) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (٢)﴾ [العلق].

أخرج البخاري في تفسير (سورة العلق) باب قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّرَبَّنَا لَسَفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦)﴾ [العلق]، قال: "قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبيّ - ﷺ -، فقال: لو فعله لأخذته الملائكة" (٢).

مقالة أبي لهب وما نزل فيه من القرآن

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: "صعد النبيّ - ﷺ - الصفا ذات يوم، فقال: يا صباهاه، فاجتمعت إليه قريش، قالوا: مالك؟! قال: أرايتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ يُصبّحكم أو يمسيكم، أما كنتم تُصدّقوني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] (٣).

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج ٦/ص ٦٤) كتاب تفسير القرآن.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج ٦/ص ٨٩) كتاب تفسير القرآن.

(٣) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج ٦/ص ٢٩) كتاب تفسير القرآن.

مقالة أم جميل العوراء (حمالة الخطب) وما نزل من القرآن

حين سمعت أم جميل بنت حرب، ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله وهو جالس في المسجد، عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها حجر ملء الكفت، تريد أن تضرب به الرسول - ﷺ، فكفها الله عنه.

فقد أخرج الحاكم عن سفيان، عن الوليد بن كثير، عن ابن تدرس، عن أسهاء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: " لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ... ﴾ [المسد]، أقبلت العوراء (أم جميل) بنت حرب ولها ولولة، وفي يدها فِهْر، وهي تقول:

مذمماً أبيننا _____
_____ ودينه قليننا _____
_____ وأمره عصيننا _____

والنبي - ﷺ - جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر، قال: يا رسول الله، قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك! فقال رسول الله - ﷺ -: إتهالن تراني. وقرأ قرآناً، فاعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء]، فوقف على أبي بكر، ولم تر رسول الله - ﷺ - فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت، وهي تقول: قد علمت قريش أنني بنت سيدها ^(١).

وأخرج البخاري عن جندب بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: " احتبس جبريل - ﷺ - على النبي - ﷺ - فقالت امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانُه، فتزلت: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ [الضحى] ^(٢).
وَأَلَيْلَ إِذَا سَجَىٰ ﴿ ٢ ﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿ ٢ ﴾ ﴾ [الضحى] ^(٣).

(١) الحاكم في "المستدرک" (٢م/٢ ص ٣٦١) كتاب التفسير. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري " (١م/٢ ج ٤٣ ص ٤٣) كتاب الكسوف. ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/١٢ ج ١٢ ص ١٥٦) كتاب الجهاد والسير.

وهذه المرأة هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان امرأة أبي لهب حمالة الحطب، كما روى الحاكم في "المستدرک" (١) عن زيد بن الأرقم.

مقالة عبد الله بن أبي وما نزل من القرآن

روى مسلم عن أنس بن مالك، قال: "قيل للنبي ﷺ - لو أتيت عبد الله بن أبي، قال: فأطلق إليه وركب حماراً، وأطلق المسلمون، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ - قال: إليك عتي، فوالله لقد آذاني نثن حمارك، قال: فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله - ﷺ أطيّب ريحاً منك! قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه، قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضربٌ بالجريد وبالأيدي وبالنعال، قال: فبلغنا أمها نزلت ﴿وَإِنْ طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات] (٢)."

مقالة لييد وإسلامه

سمع - ﷺ - الشعر واستنشده، وقد ثبت أنه قال: "أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لييد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل" (٣).

ولهذا البيت حكاية ملخصها أن عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - كان في نادٍ من قريش وفيهم لييد العامري فأنشد قصيدته حتى وصل:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال له عثمان: صدقت، فلما أنشد عجزه، وهو:

وكل نعيم لا محالة زائل

(١) الحاكم "المستدرک" (ج ٢/ص ٥٢٦) كتاب التفسير.

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/ج ١٢/ص ١٥٩) كتاب الجهاد والسير.

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/ج ١٥/ص ١٢) كتاب الشعر.

قال له : كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول، فقال لبيد : والله يا معشر قريش ما كانت مجالسكم هكذا، فقام سفيّة من قريش، فلطم عينَ عثمان، فاخضرت، وكان قبل ذلك في جوار الوليد بن المغيرة فردّه عليه، فقال له من حضر من قريش : والله لقد كنت في ذمة منيعة وكانت عينك غنيّة عما لقيت، فقال : جوارُ الله آمنٌ وأعزّ، وعيني الصّحيحة فقيرة إلى ما لقيت أختها، ولي برسول الله - ﷺ - ومن آمن معه أسوة وكان ذلك قبل إسلام لبيد^(١).

ولبيد بن ربيعة - رضي الله عنه - صحابيّ جليل، قال الشعر في الجاهليّة دهرًا، ثمّ أسلم وحسن إسلامه، وقد عمّر طويلاً، وهو من أصحاب المعلّقات^(٢).

وكانت عائشة - رضي الله عنها - تحبّ أن تتمثّل بعض أبياته ؛ فقد أخرج البخاري عن الزبيدي، عن الزّهري، عن عروة، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " يا وَيْحَ لبيد حيث يقول :

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم
وبقيت في خَلْفِ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ
فكيف لو أدرك زماننا ؟ قال عروة : رحم الله عائشة، كيف لو أدركت زماننا ؟! قال الزّهري : رحم الله عروة، كيف لو أدرك زماننا ؟! قال الزبيدي : رحم الله الزّهري، كيف لو أدرك زماننا ؟! " ^(٣).

ومن الشعراء الذين كانت لهم مقالة، ثمّ أسلموا وحسن إسلامهم الصّحابيّ الجليل كعب بن زهير، أسلم - رضي الله عنه - حين علم من أخيه بجير أن النّبّي - ﷺ - يهْمُ بقتل كلّ من يؤذيه من شعراء المشركين، وأنه - ﷺ - لا يقتلُ أحداً جاء تائباً، فقدم كعب المدينة، ثمّ أتى رسول الله - ﷺ - فقال يمدح النّبّي - ﷺ - ويعتذر :

(١) السّنقيطي " الدرر اللوامع على همع الهوامع " (ج ١ / ص ٢).
(٢) انظر ترجمته وأخباره في " الإصابة " (٣م / ج ٦ / ص ٤ / رقم ٧٥٣٥) و " شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها " للسّنقيطي (ص ١٠٧).
(٣) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص ٣١ / رقم ٢١٠).

يسعى الوشاةُ بِجَنبِهَا وَقَوْلُهُمْ
 وقال كلُّ خليلٍ كنتُ أمْلُهُ
 فقلتُ خلّوا طريقي لا أبا لكمُ
 كلُّ ابنِ أنثى وإن طالَت سلامتُهُ
 أنبئتُ أنّ رسولَ اللهِ أوعدني
 مهلاً هَذَا الَّذِي أعطاك نافلةَ الـ
 إنك يا بنَ أبي سُلمى لمقتولُ
 لا ألفتينك إني عنك مشغولُ
 فكلُّ ما قدرَ الرحمنُ مفعولُ
 يوماً على آلهِ حَدباءَ محمولُ
 والعفوعند رسولِ اللهِ مأمولُ
 قرآنٍ فيها مواعيطٌ وتفصيلُ^(١)

أشدُّ ما لقي النَّبيُّ ﷺ - من قومه وعفوه

أخرج الشيخان عن عروة بن الزبير أن عائشة - زوج النَّبيِّ ﷺ - قالت لرسول الله ﷺ - : " يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أحد، فقال : لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبَةِ، إذ عَرَضْتُ نفسي على ابنِ عبدِ يالِيلَ بنِ عبدِ كلال، فلم يُجِبنِي إلى ما أردتُ، فأنظقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفقُ إلاّ بقرنِ الثعالبِ^(٢)، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني، فنظرتُ، فإذا فيها جبريلُ فناداني، فقال : إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - قد سمعَ قولَ قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، قال : فناداني ملكُ الجبالِ وسلّمَ عليّ، ثم قال : يا محمّد، إنَّ اللهَ قد سمعَ قولَ قومك لك، وأنا ملكُ الجبالِ، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ إن شئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبين^(٣)، فقال له رسولُ الله : بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم من يعبدُ اللهَ وحده لا يشرك به شيئاً^(٤) .

(١) " ديوان كعب بن زهير " (ص ١٩) .

(٢) هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد .

(٣) جبلا مكة : أبو قبيس، والجبل الذي يقابله .

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م / ٦ج / ١٢ ص / ١٥٤) كتاب الجهاد والسير . والبخاري "

صحيح البخاري " (٢م / ٢ج / ٤ ص / ٨٣) كتاب بدء الخلق .

دعاء النَّبِيِّ ﷺ على نفر من قريش آذوه في صلاته ومصيرهم

أخرج مسلم عن ابن مسعود، قال : بينا رسول الله - ﷺ - يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرتْ جَزُورٌ^(١) بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا^(٢) جَزُورِ بني فلان، فيأخذُه فيضعُه في كتفي محمد إذ سجد، فانبعث أشقى^(٣) القوم، فأخذَه فلما سجد النَّبِيُّ - ﷺ - وضعه بين كتفيه، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض^(٤)، وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحتها عن ظهر رسول الله - ﷺ - والنَّبِيُّ - ﷺ - ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة^(٥)، فجاءت - وهي جَوَيْرِيَّةُ^(٦) - فطرحتها عنه، ثم أقبلت عليهم تستمهم^(٧)، فلما قضى النَّبِيُّ - ﷺ - صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال :

اللهم عليك بقريش^(٨) ثلاث مرّات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته^(٩)، ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام^(١٠)، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط - وذكر السّابع ولم أحفظه - فوالذي بعث محمداً بالحق لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحّبوا إلى القلب قلب بدر^(١١).

(١) الجزور من الإبل ما يُجَزَّرُ أي يُقطع.

(٢) السّلي: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من المواشي، وهي تقابل المشيمة عند آدميات.

(٣) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح به في رواية ثانية، وسُمّي أشقاهم لتفرّده بالمباشرة.

(٤) من كثرة الضحك.

(٥) هي فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - بنت رسول الله - ﷺ -.

(٦) الجَوَيْرِيَّةُ: البنت الصّغيرة.

(٧) سكوتهم عن شتمها لهم يدل على قوّة نفسها وشدّة شكيمتها.

(٨) من باب العام الذي أريد به الخاص، فالمراد الدّعاء على من سمى منهم.

(٩) خوفهم من دعائه - ﷺ - فيه دلالة على معرفتهم بصدقه - ﷺ -، ولكن منعهم أن يؤمنوا الاستكبار والحسد والتقليد...

(١٠) هذا من ذكر الخاص بعد العام؛ فبعد أن عمّ بدعوته كفّار قريش خصّ منهم هؤلاء النفر.

(١١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م/ج١٢/ص١٥١) كتاب الجهاد والسير. البخاري =

وقد يسأل سائل: كيف دعا عليهم النبي ﷺ - وقد أمر بالصبر على الأذى، ثم إنه قد آذاه غيرهم بأكثر من هذا فصبر، وحلمه - ﷺ - عمن آذاه قد ذاع واشتهر؟! والجواب، أن الحديث يؤخذ منه حلمه - ﷺ - عمن آذاه، فلم يدع النبي ﷺ - قبل ذلك على أحد منهم، وإنما صبر وغفر. والظاهر أن هؤلاء النفر كانوا ممن لم تُرج إجابتهم وقبولهم للإسلام وتوبتهم مما هم عليه، فقد يكون النبي ﷺ - قد أطلع على أنهم لا يؤمنون، وقد آذوه واستهزؤوا به حال صلاته وسجوده بين يدي ربه، فاستحقوا دعاءه عليهم، ولم يزد على ذلك

- ﷺ -

القسم الثالث المبحث الأول

شبهات المرجفين : دوافعها ودفعها

﴿قَامَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ...﴾ (٧) [آل عمران]

لَمْ يُؤْذِنِ النَّبِيَّ ﷺ !؟

قد يسأل سائل: لِمَ يُؤْذِنِ النَّبِيَّ ﷺ !؟ ولماذا هذه الشبهات حول الإسلام
وأتساعها في هذا العصر!؟

والجواب جليّ وواضح ، فهم يؤذون النَّبِيَّ ﷺ كرهاً لهذا الدِّينِ القويم ، ولهم في ذلك
سلفٌ : ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ ﴿٤﴾ اَجْعَلِ الْاِلٰهَةَ اِلٰهًا وَّحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ
﴿٥﴾﴾ [ص].

فهم يتقنون لأتهم دعوا مع الله شركاء ، قال تعالى : ﴿قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا اِلَّا
اَنْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ مِن قَبْلُ...﴾ (٥٩) [المائدة] .

كذلك هم يحسدوننا على هذا الدِّينِ الحق ، ولهم في ذلك سلف وخلف ، قال تعالى :
﴿وَدَّ كَثِيْرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ اِيْمٰنِكُمْ كَفٰرًا حَسَدًا مِّنْ
عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ...﴾ (١٠٨) [البقرة] وقال تعالى : ﴿وَدُّوْا لَوْ
تَكْفُرُوْنَ كَمَا كَفَرُوْا فَتَكُوْنُوْنَ سَوَآءً...﴾ (٨٩) [النساء] .

أما أهل الشّهوات فينقمون لأنّ هذا الدِّينِ يحول بينهم وبين ما يشتهون ، فالقرآن
يقول : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الرِّبٰٓةَ اِنَّهٗ كَانَ فِحْشَةً وَّسَآءَ سَبِيْلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء] ويقول : ﴿قُلْ
لِّلْمُؤْمِنِيْنَ بَعْضُوْا مِّنْ اَبْصٰرِهِمْ وَّحَفِظُوْا فُرُوْجَهُمْ ذٰلِكَ اَرْكَىٰ لَهُمْ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا يَصْنَعُوْنَ

﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ... ﴿٣١﴾ ﴿النور﴾.

ويقول: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف] ويقول: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... ﴿٣٧٥﴾﴾ [البقرة] ويقول: ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ فَاقْتَعُوا أَيْدِيَهُمَا ... ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] ويقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة].

فضلاً عن أنهم يريدون أن يكون الناس كلهم مثلهم في ميلهم إلى الباطل ، قال تعالى : ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾﴾ [النساء].

وبالجملة فإن منشأ هذا الأذى ينبع من كرههم للحق الذي جاء به ﷺ ، وقد قال ورقة للنبي ﷺ يوماً : " لم يأت رجل بها جئت به إلا أودي " (١) .

أما سبب إثارة الشبهات وتفشيها في هذا العصر ، فذلك لسرعة انتشار الإسلام شرقاً وغرباً ، وعجز أعداء الإسلام عن منعه من فتح القلوب والعقول ... وسنعرض في هذا القسم أبرز الشبهات السقيمة والدعاوى العليلة التي يحتجون بها ، وسنرد عليها بإجمال وإيجاز ، فلعلنا الأوائل في هذا الميدان عطاء ترضى يستحق أن يطلب من مظاهته .

وأنا والله ، لا أدافع عن الإسلام ؛ إذ ليس للإسلام سوءةٌ أدافع عنها ! ولكن الله شرع لنا الرد على الشبهات ، فالقرآن الكريم لم يُخفِ هذه الشبهات ، وإنما حدثنا عنها وكذبها ، يقول تعالى مخبراً عن قِبَلِ بعض المشركين : ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بِشَرِّ ... ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل] فرد الله

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج ٦/ ص ٨٨) كتاب تفسير القرآن .

عليهم: ﴿لَسَاتُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٣) [النحل] والشواهد كثيرة وتقدمت الإشارة إلى بعض منها، فقد أخبر القرآن عن قولهم عنه ﷺ أَنَّهُ كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ ، شَاعِرٌ ... وكيف ردَّ الله عليهم .

دعوى انتشار الإسلام بالسيف

ما انفكَّ أقوامٌ عن إثارة الشبهات حول الإسلام ، لِيَسْتَعِدُّوا أَعْدَاءَ اللَّهِ عَلَى دِينِ اللَّهِ : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) [الصف] ، ومن هذه الشبهات دعوى انتشار الإسلام بالسيف .

ومن تدبَّر القرآن الكريم علم أنَّ الله تعالى قد أمر بالقتال لأغراض ، منها : القتال لدفع الظلم ، قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾ أي للمؤمنين أن يُقاتلوا ، وهذه أول آية نزلت في الجهاد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أثمهم ﴿ظَلِمُوا﴾ لظلم الكافرين لهم والذي دام قرابة ثلاثة عشر عاماً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) وهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ (٤٠) [الحج] .

فهاتان الآيتان نزلتا بعد أن مكث النبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - في مكة ثلاث عشرة سنة ممنوعين من القتال مأمورين بالصبر على أذى الكفار ، حتَّى أُذِنَ لَهُم بِالْقِتَالِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ لِدَفْعِ الظُّلْمِ ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ (٤٠) [الحج] .

فالقرآن المكِّي خلا تماماً من الحِصِّ على القتال رغم الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ وأصحابه - رضي الله عنهم - ، فكيف يُقال: الإسلام انتشر بالسيف؟! هذه والله شبهة هالكة.

ومن أغراض القتال : قتال مَنْ يقاتل المسلمين ، قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١٩) [البقرة] .

ومنها : القتال لنصرة المستضعفين ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ... ﴾ (٧٥) [النساء] .

ولا أعلم آية في كتاب الله تعالى تدعو المسلمين إلى قتال مَنْ خالفنا وإكراههم على الدخول في ديننا ، فالنبي ﷺ لما دخل المدينة وفيها يهود بني قينقاع ، ويهود بني النضير ، ويهود بني قريظة صالحهم على ما هم عليه وهدانهم ووادعهم وأقرهم وأمنهم على أموالهم ، واشترط عليهم واشترط لهم .

وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما تسلّم مفاتيح بيت المقدس كتب لأهلها كتاب أمان ومصالحة ، عُرفَ فيما بعد بالعهد العُمريّة ، وضرب عليهم الجزية ، وأعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبي .

ولو أراد النبي ﷺ أن يُكرِهَ أحداً على الدخول في الإسلام لأكره أسرى بدر مثلاً ، أو أكره كفّار قريش لما فتح مكة ، ومعلوم أنّه عفا عنهم ولم يُرِقْ دماً ؛ ولذلك جاء العرب بعد فتح مكة من أقطار الأرض ودخلوا طائعين في دين الله أفواجا ، قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾ [النصر] وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ فالفاعل هنا وهو الضمير المتصل العائد على النَّاسِ قد أُسْنِدَ إلى الدخول ، أي أنّهم دخلوا طوعاً من أنفسهم ، ولم يقل الله تعالى : يُدْخِلُونَ بصيغة المبني للمجهول الذي لم يُسَمَّ فاعله .

ثمّ كيف يُقال : الإسلام انتشر بالسيف ؛ وغزوة بدر ، وأحد ، والخندق - كبرى الغزوات في الإسلام - كلّها حدثت في المدينة المنورة !؟ أليس هذا دليل على أنّ المسلمين لم يخرجوا لقتال أحد وإنّما كانوا يدافعون عن أنفسهم !

وقد وضح الله تبارك وتعالى أنّ الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه ، قال تعالى : ﴿ لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴾ (٢٥٦) [البقرة] وقال على لسان نبيّه : ﴿ وَلَا أَسْتَمِعُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَسْتَمِعُ عِبِيدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾

أما قوله تعالى : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ ﴿٦٩﴾ [الكهف] فلا يُفهم منه أن الإسلام يبيح الردّة كما روج البعض ؛ فهذا الأسلوب ليس أسلوب اختيار ، وإنما هو أسلوب تهديد^(١) ، فقد خرج الأمر عن معناه الأصليّ للدلالة على معنى الوعيد والتهديد ، فالله تعالى جاء بصيغة الأمر في مقام عدم الرضا منه بقيام المخاطب بفعل ما أمره به تخويفاً وتحذيراً له .

وبلغ من حكمته ﷺ لما أراد تبليغ الرّسالة وأداء الأمانة للنّاس كافة أن بعث البعث ولم يبعث الجيوش ، فأرسل الرّسل هنا وهناك يدعوهم إلى الإسلام . أخرج مسلم عن ابن عباس أنّ معاذاً قال :

" بعثني رسول الله ﷺ قال : إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب "^(٢) .

كما كتب إلى الملوك داخل وخارج جزيرة العرب كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام دون أن يستلّ سيفاً ، فكتب إلى هرقل ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، لكنّ حياة النّبِيِّ ﷺ لم تطل بعد ذلك ، فأصبح من واجب

(١) وله شواهد في الكتاب والسنة ، منها قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٤١﴾ [فصلت] وقوله ﷺ : " إذا لم تستح فاعل ما شئت " البخاري "صحيح البخاري" (٢م/٤ج/١٥٢) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (م ١ / ١ج / ١٩٦) كتاب الإيمان . والبخاري "صحيح البخاري" (٤م/٨ج/١٦٤) كتاب التوحيد .

الخلفاء تبليغ الرسالة وليس فرضها على الناس .

لكن هؤلاء الأقوام أوصدوا الأبواب دونهم ، وصدّوهم عن أداء الأمانة ، وتبليغ الرسالة كما فعل المشركون أوّل الأمر؛ فجاءت الفتوحات الإسلاميّة لدفع هؤلاء الذين وقفوا في وجه الإسلام عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أُنْتَهُوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال] .

وهذه الآية الكريمة نزلت بأبي سفيان وأصحابه وقد سبقتها آياتان تتحدثان عن صدّ المشركين الناس عن الدخول في دين الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعْبُدَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... ﴾ [الأنفال] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال] ثم جاءت الآية الكريمة والأمر بقتال هؤلاء الذين وقفوا في وجه الدّعوة .

وقد يُجْمَل معنى الأمر في قوله تعالى ﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴾ [الأنفال] أنّ هذا الأمر جاء لما كان الإسلام قليلاً ، ففي الصحيح عن نافع أنّ رجلاً أتى ابن عمر ، فقال :

" يا أبا عبد الرحمن ، ما حملك على أن تحجّ عاماً وتعتمرَ عاماً وتترك الجهادَ في سبيل الله - عزّ وجلّ - وقد علمت ما رغبَ اللهُ فيه ؟! قال : يا ابن أخي ، بُني الإسلام على خمس^(١) : إيمان بالله ورسوله ، والصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وأداء الزكاة ، وحج البيت . قال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه : ﴿ وَإِن طَافَيْنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْسَبُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَتِلْهُمَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ... ﴾ [الحجرات] ﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴾ [الأنفال] قال : فعلنا على عهد

(١) أراد أنّ الإسلام لم يبن على القتال .

رسول الله وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يُفتنُ في دينه ، إمّا قتلوه ، وإمّا يُعذّبوه حتّى كثر الإسلام فلم تكن فتنة" (١) .

وقد مكّن الله للمسلمين في الأرض لما علم صدق نياتهم : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج].

هذه هي الغاية من الفتوحات كما جاء في الآية : تبليغ الرّسالة ، وأداء الأمانة ، وإقامة الصّلاة ، وإيتاء الزّكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وليس العلوّ في الأرض ، ولا أنّ الدّخول في دين الله واجب فرض .

أمّا من ينجح بحديث النّبِيِّ ﷺ : " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ ، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ " (٢) .

فالمراد بالنّاس في قوله ﷺ : " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ " أي المشركين ؛ فهو من باب العام الذي أريد به الخاص ، فهو خاص بكفّار قريش من غير أهل الكتاب ؛ ويؤيد هذا رواية النسائي بلفظ : " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ " فقد أخرج النسائي بسند صحيح عن أنس بن مالك ، عن النّبِيِّ ﷺ قال : " أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ... " (٣) .

ثم إن النّبِيَّ ﷺ قال : " أُمِرْتُ " ولم يقل : أُمِرْتُكُمْ ، أو أَمَرَكُمُ اللَّهُ ! فإذا قال قائل : الحديث يحتمل غير هذا المعنى ؟ قلنا : نعم ، الحديث يحتمل غير هذا المعنى ، ولكن هذا معنى

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٥/ص ١٥٦) كتاب تفسير القرآن .

(٢) البخاري عن ابن عمر " صحيح البخاري " (١م/ج ١/ص ١١) كتاب الإيمان .

(٣) النسائي " سنن النسائي " (ج ٧/ص ٧٥) كتاب تحريم الدّم ، وهو في " صحيح سنن النسائي " للألباني (ج ٣/ص ٨٣٤/رقم ٣٧٠١) .

معتبر ، فالأصل أن دم الآدمي معصوم لا يُقتل إلا بالحق ، وليس القتل للكفر من الأمور التي اتفقت عليها الشرائع .

ونحن إذ نقول هذا الكلام لا نقوله لنسخ الجهاد ، فنحن ندين بأن الجهاد فريضة ، وأوجه الله بقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة] وآية القتال محكمة لا نسخ فيها ، قال تعالى فيمن سقمت سريرتهم : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرْنَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ... ﴾ [محمد] ولكن الجهاد له أحكامه ، وأغراضه ، وضوابطه ، وأصوله المبيّنة في الشّرع .

أما قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة] فإن الآية الكريمة تتحدّث عن الجزية^(١) التي فرضها الله تعالى على الذّميّين وهي تقابل فرض الزّكاة على المسلمين ، وعلى ذلك فالآية أصل في مشروعية الجزية ، وتأمّر المسلمين بمقاتلة مَنْ ينقضّ عهد الدّمة بالامتناع عن الجزية ، لا بمقاتلة النّاس لإكراههم على الدّخول في دين الله .

وقد يعترض علينا معترض فيقول : ولكنّ النّبىّ ﷺ قاتل الرّوم في مؤتة؟! فعلى أيّ شيء قاتلهم؟

والجواب أن النّبىّ ﷺ لم يقاتلهم ليحملهم على الدّخول في الإسلام ، وإنّا قاتلهم لأنهم قتلوا رسوله ، فقد كان ﷺ قد بعث الصّحابيّ الجليل الحارث بن عمير الأزديّ اللهبيّ بكتابه

(١) الجزية : مبلغ من المال يؤخذ من دخل في دّمة المسلمين وعهدهم من أهل الكتاب نظير حمايتهم في البلاد الإسلاميّة التي يقيمون فيها ، أو في أماكنهم المستقلّين فيها بعيداً عن المسلمين ، إذا رغبوا الدخول في دّمتهم .

إلى عظيم بصرى ، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه ، ثم قَدَّمه ،
فضرب عنقه ...

ولو سلمنا أن الإسلام انتشر في عهد النَّبِيِّ ﷺ بالسَّيف - والأمر ليس كذلك - فلماذا
يتنشر الآن في أصقاع الأرض دون سيف؟! ولكن الحقيقة كما قال الله تعالى : ﴿ فَطَرَتَ اللَّهُ
الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾ (٣٠) [الروم] .

فالله خلق الإنسان قابلاً للإقرار بالله ومعرفته والإيمان به وتوحيده ، قال تعالى :
﴿ لَا بُدَّيْلَ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ... ﴾ (٣٠) [الروم] واللفظ ظاهره التفي والمراد النهي ، أي لا تبدلوا
خلق الله ، فالآية وإن كانت خبرية لفظاً ، فهي إنشائية معني ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُنْمَنُونَ ﴾ (١١) [المائدة] والمعنى : انتهوا . ثم قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْبَيْتُ الْأَقِيمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) [الروم] .

ثم إن الإسلام لا يعتد بإيمان من آمن كرهاً ولم يؤمن طوعاً ، يقول تعالى مخبراً عن قيل
فرعون حين أشفى على الهلاك وأيقن بالموت غرقاً : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٠) [يونس] فلم يقبل الله تعالى
إيمانه ، وقال : ﴿ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١١) [يونس] .

فمثل هذا الإيمان لا يقبله الله تعالى ، ولذلك أخبر الله تعالى عن قومٍ مكذِّبين آمنوا
بعد نزول العذاب : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴾ (٨٤) [غافر] فلم يعتبر الله إيمانهم ، وقال : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا
بَأْسًا ... ﴾ (٨٥) [غافر] .

دعوى النَّهْيِ عن كتابة الحديث ، وأن لا كتاب مع كتاب الله !

قال رسول الله ﷺ : " لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فَلْيَمْحُحْهُ وحدثوا

عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " (١) .

هذا من أشهر الأحاديث التي يعتلُّ بها أقوام في ردِّهم للحديث الشريف ، فالنبيُّ ﷺ ينهى أصحابه - رضي الله عنهم - عن كتابة الحديث ، ويأمرهم بمحو ما كتبه خشية أن يختلط بالقرآن . ونحن نعلم أن هذا الحديث صحيح وصريح ، ولكن الذين ذهبوا إلى أن ما كان عليه السلف من عدم الكتابة أسلم ، وأن ما هم عليه من عدم قبولهم للحديث أحكم ؛ بنصِّ حديث رسول الله ﷺ ، فهذا تأويلٌ غير سائغ ، وقولٌ جمع به قائله بين الجهل بحديث النبيِّ ﷺ وبطريقة السلف ، والدعوى بطريق الخلف .

وأحاديث النهي عن الكتابة منسوخة ، فهناك أحاديث صريحة بجواز كتابة العلم غير القرآن ، منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة : " ... فقام رجلٌ من أهل اليمن يُقال له : أبو شاه ، فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبي شاه ، ثم قام رجل من قريش ، فقال : يا رسول الله ، إلا الإذخر " ، فإنما نجعله في بيوتنا وقبورنا ، فقال رسول الله ﷺ : إلا الإذخر " (٢) .

ومثله حديث عليّ - رضي الله عنه - قال : " والله ما عندنا من كتاب يُقرأ إلا كتابُ الله وما في هذه الصحيفة ... " (٣) .

ومثله ما أخرجه البخاري عن وهب بن منبه عن أخيه ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : " ما من أصحاب النبيِّ ﷺ أحدٌ أكثر حديثاً عنه منِّي إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م / ج ١٨ / ص ١٢٩) كتاب الزهد .

(٢) الإذخر : حشيش معروف طيب الرائحة .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ٣٨) كتاب الديات . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٥م / ج ٩ / ص ١٢٩) كتاب الحجّ .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ١٤٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

كان يكتب ولا أكتب" (١).

ومثله ما رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو ، قال : " قالت لي قريش : نكتب عن رسول الله ﷺ ، وإنما هو بشر يغضب كما يغضب البشر ! فأتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إن قريشاً قالوا : كذا . فقال :

والذي نفسي بيده - وأومى إلى شفتيه - ما يخرج مما بينهما إلا حق ؛ فاكتب " (٢).

وقد ثبت أن النبي ﷺ كتب إلى أهل الكتاب يعلمهم الكتاب ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - أخبره : " أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر ، وقال : فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين " (٣).

فالتهمي عن كتابة غير القرآن كان أول الأمر قبل اشتهاار القرآن خشيّة اختلاطه واشتباهه ، فلما اشتهر القرآن وأمنت تلك المفسدة ، وزالت علّة الكراهة أذن الرسول ﷺ في الكتابة .

ولا ريب أن الكتاب قيد العلم ، ومن لا كتاب له يُحشى عليه الزلل ، فقد صحّت الرواية عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : " قيّدوا العلم بالكتاب " (٤) فالعلم صيد والكتابة قيده .

وكيف يعيرون علينا الكتاب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي

كِتَابٍ ... ﴿٥٢﴾ [طه].

ثم كيف يتأول القرآن ويتدبره من كان جاهلاً بالسنة المبيّنة للقرآن ، الموضحة للحلال

(١) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ١ ج / ٣٦ ص) كتاب العلم .

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ١ / ص ١٠٤) كتاب العلم ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد . أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ﷺ ولم يخرجه في الحديث .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ٣ ج / ص ٢٣٤) كتاب الجهاد والسير .

(٤) الحاكم " المستدرک " (ج ١ / ص ١٠٦) كتاب العلم .

والحرام؟! فالقرآن حمال للمعاني وله ظاهر وباطن ، ولا يعرف بالعقل كما يعرف بالنقل ،
وعلم الحديث يُجَلِّي الآيات .

إذا فهي دعوى يرمي أصحابها إلى تحريف الكلم عن مواضعه ، وتأويل القرآن بما
تهوى العقول وتشتهي الأنفس !

وهذه الدعوى أيضاً تحمل بين طياتها اعتراضاً على الله ورسوله ؛ فقد بين الله تعالى
حاجة الناس إلى بيان النبي ﷺ للقرآن وتوضيحه لهم ، فقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴾ [٤٤] [النحل] .

فالنبي ﷺ مُبَيِّن ومفسر وموضح لما أجمله القرآن الكريم ، فالله تعالى أمرنا في كتابه
بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾ [١١] ﴿
[البقرة] ، وأمرنا بحج البيت ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ... ﴾ [١٧] ﴿
[آل عمران] لكنَّ القرآن لم يبين لنا عددَ فرائض الصلاة ، وكيفيتها ، ومواقيتها ، وشروطها ،
وفروضها ، وسنتها ، كذلك لم يبين مقادير الزكاة ، ولا أحكام الحج ، وأعماله ، وإنما بين ذلك
كله النبي ﷺ .

ولذلك أتى الله تعالى على نبيه ﷺ ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٥٢]
صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... ﴾ [٥٣] ﴿ [الشورى] والهداية المثبتة - كما هو
معلوم - هداية الدلالة ، والبيان ، والتفصيل ، والتفسير . فإذا لم يقبل هدي النبي ﷺ وبيانه ،
وسنته ، وسنة أصحابه ، نقبل هدي من؟!

كذلك السنة جاءت مبيّنة لما هو مُشكَّل في القرآن الكريم ، وجاءت مخصّصة لما ورد
عاماً ، ومقيّدة لما ورد مطلقاً ، فضلاً عن أنها أسست أحكاماً جديدة لم ترد في كتاب الله تعالى ،
وليس الكتاب موضوعاً لبحث ذلك ، وهذا كله مبسوط في كتب علم أصول الفقه وغيره من
العلوم .

والخلاصة ، ما جاء به النَّبِيُّ ﷺ قرآنًا كان أو حديثاً وحيٍّ من الله تعالى ، وَمَنْ رَدَّ حديث رسول الله ﷺ بعد أن ثبتت صحته فقد أوقع نفسه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقْرِفُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء] .

فمن سمع مخلوقاً يردّ سنّة النَّبِيِّ ﷺ ويشكك فيها ، أو يستهزئ بها ، بعد أن أمرنا الله بالأخذ بها ، فلا يقعد معه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْآ مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء] .

فإن قال قائلهم : لكنّ السنّة لم تحفظ كما حفظ القرآن ؟

فالجواب ، أتها دعوى باطلة ، فطالما أنّ القرآن محفوظ فالسنّة محفوظة بالتبعية ، لأنّ مِنْ حِفْظِ اللَّهِ لِلْقُرْآنِ حِفْظُ سُنَّةِ سَيِّدِ الْأَنَامِ ، فحفظ القرآن يقتضي حفظ السنّة فهما مصدرا التشريع . وهؤلاء إنّما يريدون أن يبخسوا جهودَ علمائنا ، وما دونوا من كتب في أصول الحديث : علومه ومصطلحه ، تلك العلوم التي أرسى قواعدها الصحابة ، وتابعهم التابعون وأتباعهم فنقلوها من الصدور إلى السطور ، وتشمل هذه العلوم : تحمّل الحديث وأدائه ، وعلم تاريخ الرواة ، وعلم الجرح والتعديل ، وعلم غريب الحديث ، وعلم مختلف الحديث ومشكله ، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه ، وعلم علل الحديث ...

أما مَنْ يَحْتَجُّ بقوله تعالى : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ ﴿٣٨﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإسراء] وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّبَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٨٩﴾ [التحل] ويدعي أنّ الأخذ بالقرآن وحده يغني ؛ فالقرآن كامل وما فرط الله فيه من شيء ! ويتوهم أنّ ما لم يأت

به القرآن ليس ديناً! فإذا كان ذلك كذلك؛ فلماذا لا يأخذ بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ [الحشر] فهو في الحقيقة يخالف القرآن مخالفتَهُ لِلسُّنَّةِ!

ولذلك يقول النَّبِيُّ ﷺ: " لا أُلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مَتَكْتَأً عَلَى أُرِيكَتِهِ^(١)، يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لا أَدْرِي؛ مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ"^(٢). ويقول النَّبِيُّ ﷺ: "الْإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يَوْشِكُ رَجُلٌ يَنْتَنِي شِبَعَانًا عَلَى أُرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحْلُوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ..."^(٣) ويقول النَّبِيُّ ﷺ أيضاً: "فَمَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"^(٤) أي من أَعْرَضَ عَنِ طَرِيقَتِي وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمِيحَةُ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَهَا، وَأَخَذَ بِطَرِيقَةِ غَيْرِي فَلَيْسَ مِنِّي.

وليس في الحياة شيء تنازع النَّاسُ فِيهِ إِلَّا وَفِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هَدْيٌ لِه، وَعِلْمُهُ مَنْ عِلْمِهِ، وَجِهَلُهُ مِنْ جِهَلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء] والرَّدُّ إِلَى اللَّهِ هُوَ النَّظَرُ فِي كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ هُوَ سَوْأَلُهُ فِي حَيَاتِهِ، وَالنَّظَرُ فِي سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ... ١١﴾ [الأحزاب].

ونحن نسأل: كيف يكون لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة إذا لم نتبع سنته؟!؟

(١) كناية عن الكسل وقلة المبالاة.

(٢) الترمذي "الجامع الكبير" (م ٤ / ص ٣٩٨ / رقم ٢٦٦٣) أبواب العلم، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه أحمد بسند صحيح عن المقدم "المسند" (ج ١٣ / ص ٢٩١ / رقم ١٧١٠٨).

(٤) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (م ٥ / ج ٩ / ص ١٧٦) كتاب النكاح، والبخاري "صحيح البخاري" (م ٣ / ج ٦ / ص ١١٦) كتاب النكاح.

بل نحن مأمورون باتباع الرسول والصحابة أيضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ [النساء] فالله تعالى لما توعد من يخالف الرسول ﷺ لم يقتصر وإنما
عطف عليه الصحابة ، وتوعد من يخالف سبيلهم ؛ فهم على هدى من ربهم ، قال تعالى في
حقهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَتَدِيَهُ ... ﴿٩٠﴾ [الأنعام] .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ
مِنْهُمْ ... ﴿٨٣﴾ [النساء] وأولو الأمر في الآية ذوو الرأي من كبار الصحابة - رضي الله
عنهم - .

ولذلك يقول النبي ﷺ : " ... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا
عليها بالنواجذ " (١) .

وإذا كان القرآن كالشمس في ضحاها ، فإن سنة النبي ﷺ كالقمر إذا تلاها ، وسنة
أصحابه - رضي الله عنهم - كالتهار إذا جلاها ! وذلك أن الصحابة رأوا النبي ﷺ وسمعوا
منه ، وليس من رأى وسمع كمن لم ير ولم يسمع ، فللصحابة من الفهم عن رسول الله ﷺ ما
ليس لأحد ممن جاء بعدهم ، ولهم من العلم مكانة لا يستطيع أحد من الخلف مساواتهم فيها
وهذا يوجب علينا الرجوع إليهم قبل غيرهم في بيان القرآن والسنة .

ومن هنا نفهم قوله ﷺ في تعيين الفرقة الناجية " ما أنا عليه وأصحابي " (٢) ذلك أن
الصحابة كانوا على ما كان عليه النبي ﷺ من الهدى ، فلم يكن للصحابة من كتاب يتفقون
به غير القرآن ، ولا من كلام يتدارسونه غير كلام الله ورسوله ﷺ .

(١) الحاكم "المستدرک" (ج١/ص٩٦) كتاب العلم ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح ليس له علة .

(٢) الترمذي "الجامع الكبير" (م٤/ص٣٨١/رقم ٢٦٤١) أبواب الإيمان ، وقال أبو عيسى : هذا حديث
حسن غريب مفسر لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه .

فالصَّحابة - رضي الله عنهم - عَلَّمَهُمْ أَعْظَمُ مُعَلِّمٌ ، وقرؤوا على يديه أعظم كتاب ، وسمعوا منه أحسن الحديث . وكان ﷺ حريصاً على تعليمهم وهدايتهم كما قال تعالى : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٤) [التوبة] بل كان حريصاً على هداية الكفَّار ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدُنُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ... ﴾ (٢٧) [النحل] .

دعوى عدم الأخذ بالسُّنَّة لأنَّ جَلَّهَا بالرَّأْي لا بِالوَحْي

هذه دعوى باطلة يرمي أصحابها إلى تعطيل العمل بالسُّنَّة ، ويررون دعواهم بأحاديث أشهرها ما رواه مسلم عن أنس : " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلْقِحُونَ ، فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ . قَالَ : فَخَرَجَ شَيْصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ ، فَقَالَ : مَا لِنِخْلِكُمْ ؟ قَالُوا : قَلت : كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " (١) .

والجواب عن هذه المسألة يسير ؛ فنصوص القرآن تشهد على حُجِّيَّة السُّنَّة ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴾ (٨٠) [النساء] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٧) [الحشر] وهذه النصوص وغيرها تدلُّ دلالة قطعية على حُجِّيَّة السُّنَّة .

والسُّنَّة عندنا بمرتبة القرآن من حيث أتتها وحي ، أما إذا كانت باجتهاد منه ﷺ فإنَّ الله لا يُقِرُّه على اجتهاد خطأ ، فيأتيه الوحي بالإقرار أو بالتصحيح ، وعلى ذلك فالسُّنَّة مردّها إلى الوحي .

وقد تقدّم قول النبي ﷺ : " والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلّا حقّ " (٢) وما دام

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٥/ص ١١٨) كتاب الفضائل .

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ١/ص ١٠٤) كتاب العلم .

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ إِلَّا الْحَقُّ ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَعْصُومٌ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ فَمِهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ وَحْيٌ مُتَلَوٌّ ، وَمَا خَرَجَ مِنْ فَمِهِ سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ وَحْيٌ مَرْوِيٌّ . وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَاتُ أَيْضاً عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ وَحْيٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ... ﴾ (١١٣) [النساء] والحكمة يحمل معناها على السُّنَّةِ الْمَبِيَّتَةِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَالَّذِينَ يَبْغِضُونَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ الدَّالَّةَ عَلَى عَوَارِهِمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي شَانِئٌكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٢) [الكوثر] وَالَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْهَا هُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أَي إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِقُوا مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ ﴾ (١٨) وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْمُخْتَلِفُونَ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعَيْنَ ﴿ أَلَمْ يَأْتُوا أُمَّرَأَاتِهِمْ إِذَا فَرِقُوا مِنْهُمْ إِذْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ . بَلْ أَوْلَيْتَهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥٠) [النور] وَلِيَعْلَمَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ قَدْ خَانُوا اللَّهَ بِتَعْطِيلِ أَمْرِهِ ، وَخَانُوا الرَّسُولَ بِتَعْطِيلِ سُنَّتِهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) [الأنفال] .

بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَصْغُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٥٢) [النور] وَأَنْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَّهِنَّ لَنْ أَمْرَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نَقْسِمُوكَ طَاعَةً مَعْرُوفَةً ﴾ أَي طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ النَّبِيِّ ﷺ خَيْرٌ مِنْ قَسْمِكُمْ الَّذِي لَا تَصْدُقُونَ بِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥٤) [النور] .

وَعَلَى هَذَا يَخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ السُّنَّةَ لَيْسَتْ وَحْيًا كَلَّمَا ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَلْزَمٍ بِهَا ؛ فِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ التَّشْرِيْعُ وَالِاقْتِدَاءُ ، وَنُقِلَ إِلَيْنَا بِسُنْدٍ صَحِيْحٍ ؛ فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ

محمداً رسول الله !

أما الحديث الذي رواه مسلم ، فالنَّبِيُّ ﷺ يتحدث عن أمر مباح من أمور الدُّنيا ومعايشها وهو أبار (تَلْقِيح) النَّخْل ، وهو نَصَّ على وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره من معاش الدُّنيا على سبيل الرأي . أمّا ما قاله ﷺ باجتهاده ، ودلّ دليل على أنّ المقصود من فعله الاقتداء به كان تشريعاً يجبُ الأخذ به .

وهناك من يحمل على الإمام مسلم ، وينكر هذا الحديث الصحيح الذي رواه ، ويقول : إنَّ تَلْقِيح النَّخْل لا يجهله النَّبِيُّ ﷺ ...

وغرضه من ذلك التعريض بالشيخين ، والنيل من أصحّ الكتب بعد كتاب الله تعالى ! هذا ، وخير من تلقى السُّنة عن النَّبِيِّ ﷺ أصحابه - رضي الله عنهم - واجباً كان أو مندوباً ، قال حذيفة - رضي الله عنه - : " حدّثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيتُ أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدّثنا : أنّ الأمانة نزلت في جذور قلوب الرجال ، ثمّ علّموا من القرآن ، ثمّ علّموا من السُّنة ... " (١) .

مثل الذين حملوا هدي النَّبِيِّ ﷺ ثمّ لم يحملوه كمثّل قيعان !

صَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ لما بُعِثَ به من الهدى والعلم مثلاً بالغيث أصاب أرضاً في حال حاجتها ، وكذا كان حال النَّاس قبل مبعثه ، وأنّ هذه الأرض ثلاثة أنواع ، وكذلك النَّاس ، قال ﷺ :

" إنّ مَثَل ما بعثني الله - عزّ وجلّ - من الهدى والعلم كمثّل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها : طائفةٌ طيِّبةٌ قبلت الماء ، فأُنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ؛ فنفع الله بها النَّاس ، فشرّبوا منها ، ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنّما هي قيعان ، لا تمسك ماءً ، ولا تُنبت كلاً ، فذلك مَثَل مَنْ فُقِقَ في دين الله ، ونَفَعَهُ بها بعثني الله

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/٩٣ ص) كتاب الفتن .

به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " (١) .

فَمَنْ النَّاسُ مِنْ أَنْتَفَعُ بِهِدِي النَّبِيِّ ﷺ فَعَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلِمَ ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة التي قبلت الماء فانبتت به ، وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم من جمع هديه ﷺ لكنه لم ينتفع به لنفسه ، وإنما أذاه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء ولا تنتفع به ، وإنما ينتفع الناس به .

ومنهم من سمع بهديه ﷺ لكنه لم يحفظه ، ولم يعمل به ، ولم ينقله لغيره ، فمثلته كمثل أرض أصابها غيث ، لكنها قيعان صماء لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، وهذه الطائفة مذمومة .

دعوى أن الأنبياء ارتكبوا ما يخالف عصمتهم !

حفظ الله تعالى رُسُلَهُ من مخالفة أوامره ، كما حفظهم من الوقوع في نواهيهِ ، ولذلك أمر بالاعتداء بهم ، فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ (٦) ﴿ [المتحنة] وقال :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفْرِينَ ﴾ (٨١) ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتِهِمْ أَقْتَدَ ... ﴾ (٩٠) ﴿ [الأنعام] .

ولذلك فإن أمر الله تعالى باتباع رسله في اعتقاداتهم ، وأفعالهم ، وأقوالهم ، وأخلاقهم ،

يُثْبِتُ أتهم منزّهون عن السيئات ، معصومون من الصغائر كعصمتهم من الكبائر ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ ... ﴾ (١١١) ﴿ [آل عمران] ، ويستوجب أنهم لا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التي تجعل منهم أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

فالله تعالى هو الذي علمهم فأحسن تعليمهم ، وأدبهم فأحسن تأديبهم ؛ وجعلهم

مثلاً أعلى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٧٣) ﴿ [الأنبياء] نعم كانوا أئمة في التقوى يأتمون بمن

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٥/ص ٤٦) كتاب الفضائل . والبخاري " صحيح

البخاري " (١م/ج ١/ص ٢٨) كتاب العلم .

كان قبلهم ، ويأتّم بهم من بعدهم . كما شهد الله تعالى لخاتم النبيّين بالعصمة ، فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ (١١) ﴿ [الأحزاب] .

وقد ورد في كتاب الله ما يوهّم ظاهره بأنّ للأنبياء ذنوباً وأخطاء تتنافى مع عصمتهم ، وعُدُّرٌ مَنْ تَوَهَّم ذَلِكَ أَخْذَهُ بظاهر القرآن .

ومن أمثلة ما ورد ، قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (١٣١) ﴿ [طه] فظاهر الآية الكريمة أنّ آدم - عليه السّلام - عصى الله وغوى ، وظاهر الآية غير مراد .

فمعصية آدم - عليه السّلام - التي أشار إليها القرآن كانت نسياناً ، فقد نسي عهد الله ، فأكل من الشجرة ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (١١٥) ﴿ [طه] فعُدُّرُ آدم النسيان وعدم العزم ، والله تعالى لا يؤاخذ على الخطأ والنسيان وإنّما على ما تعمّدت القلوب ، ويشهد لذلك قول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ... ﴾ (٣٢١) ﴿ [البقرة] وقوله : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ... ﴾ (٥) ﴿ [الأحزاب] وإنّما اعتبر الله - تبارك وتعالى - نسيان آدم - عليه السّلام - عصياناً بالنظر لمقام آدم الرفيع المحمود ، فحسنت الأبرار سيئات المقربين كما يقولون .

وزيادة على ذلك فهذا النسيان وقع منه قبل النبوّة ؛ فالله تعالى ذكر أنّ الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (١١١) ﴿ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١١٢) ﴿ [طه] .

ثمّ انظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ فتوبة الله تعالى على عبده تجعل ما ارتكبه له لا عليه ، فالله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ ... ﴾ (١٧٥) ﴿ [البقرة] (١٥) ، وقوله : ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أي السّالف من ذنبه لا يكون عليه إنّما هو له ، ومن درس (علم

(١) هذه الآية نزلت في حقّ أكل الرّبا ، وهي من جوامع الكلم ، والمعنى أنّ خطاياها الماضية غفرت له وتاب عليه .

المعاني) لا يخفى عليه هذا المعنى الدقيق ، فالآية الكريمة كأن ألفاظها قوالب لمعانيها ، وهو ما يعرف في علم المعاني بالمساواة .

وهناك من يتوهم أن آدم - عليه السلام - غير معصوم بدليل أن الله تعالى نسب الشّرك إليه وإلى حواء على السّواء في قوله تعالى : ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف] .

ولو أن هذا المتوهم درس علوم القرآن لانحلّ عنده هذا الإشكال ، وانجلت له هذه المعضلة ؛ فهذا من الموصول لفظاً المفصول معنى ، قال تعالى في آدم وحواء : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف] .

والنّاظر في الآيتين يعرف أن آخر ما ورد عن خبر آدم وحواء وما آتاهما الله من ولد صالح قوله تعالى : ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ويوضح ذلك عودة ضمير التثنية إليها ، وتغيّر الضمير إلى الجمع بعد ذلك ؛ فلم يقل الله : عمّا يشركان ! فالكلام قد يتصل بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد وهو قولان .

ولذلك فإنّ قوله تعالى : ﴿ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف] من الموصول المفصول ، فقد جاء موصولاً في اللفظ لكنّه مفصول في المعنى ، فالآية عن أهل مكّة ، والمعنى فتعالى الله عمّا يشرك به أهل مكّة من الأصنام ، والجملة مسببة ، عطفت على قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ وما بينهما اعتراض .

ومن أمثلة ما ورد قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [٧٦] فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [٧٧] فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ

فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَنْفَوِّرْ إِلَيَّ بِرِيءٍ ﴿٧٨﴾ [الأنعام] فظاهر الآيات يوهم بأن إبراهيم - عليه السلام - عبد كوكباً حتى غاب ، وعبد القمر حتى غاب ، وعبد الشمس حتى غابت ، وإلى هذا المعنى ذهب بعض المفسرين .

ومنهم من قال : " وإبراهيم تبدأ قصته فتى ينظر في السماء فيرى نجماً ، فيظنه إلهه ، فإذا أفل قال: لا أحبّ الآفلين . ثم ينظر مرة أخرى فيرى القمر ، فيظنه ربه ؛ ولكنه يأفل كذلك ، فيتركه ويمضي . ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها ، ويظنها - ولا شك - إلهاً ! " (١) .

وهذا الكلام في حق إبراهيم - عليه السلام - لا يُرْتَضَى ، ولعلّ عذر القائل - رحمه الله - أنه نقل هذا المعنى عن بعض المفسرين الذين أخذوا قول إبراهيم - عليه السلام - على ظاهره ، وذهبوا إلى أن إبراهيم إنما قال ذلك في طفولته ، وأنه كان حيران ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي...﴾ ﴿٧٧﴾ [الأنعام] قالوا : وهذا يدلّ على نوع من الحيرة . قلت : وهذا كله يؤكد الحاجة إلى تحقيق كتب التراث وتحليصها مما علق بها من الأقوال المغلوطة ، والآراء المرجوحة .

ويدلك على شذوذ هذا التفسير أن الله قال في حق إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنبياء] فالأنبياء معصومون عن الذنوب قبل النبوة وبعدها ، وقد بينا ذلك فيما تقدّم بما يغني عن إعادته .

وأبّى ذنب أعظم من قول إبراهيم إن أخذ على ظاهره ! والصحيح ما عليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه استدراجاً لهم ليقيم عليهم الحجّة ، ومن باب مجارة الخصم ليلزمه الحق ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمَهُ...﴾ ﴿٨٠﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ...﴾ ﴿٨٢﴾ [الأنعام] .

والآيات في صدر القصة تدلّ على أن إبراهيم لم يقل ذلك أيام طفولته ، وأنه كان يوقن

(١) " سيد قطب : " التصوير الفني " (ص ١٣٣) .

بوحداية الله ، لكنّه استدرجهم ليظهر عليهم بالحجة ؛ فيحملهم على التبرؤ من الأصنام والأجرام ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَأَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلٌ ... ﴿٧٨﴾ [الأنعام] .

أما قول إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام] فإنما قاله لغرض بلاغي ، وهو التعريض بضلال قومه ، وأثمهم ليسوا على الهدى ، وليس الأمر كما قالوا من أنه كان حيران .

ومن تدبر الآيات التي يوهم ظاهرها أن الأنبياء ارتكبوا ما يخالف عصمتهم عرف الحق كما عرف السواد من البياض . فمنصب النبوة يجل عن الوقوع في الذنب ، وعن مخالفة الله عامداً معتمداً ، ولو جاز ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء بهم !

ولذلك فإن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف] ولا يخفى أن الآية الكريمة زاد معناها على لفظها ، وهو ما يعرف بإيجاز القصر ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً ، وأصعبها على البلاغيين إمكاناً ؛ فقد جمعت الآية الكريمة تحت ألفاظها القليلة من المعاني الغزيرة ومكارم الأخلاق ما أعجز البلغاء ، فالآية جمعت مكارم الأخلاق كلها ؛ لأن في العفو صلة من قطعه ، والعفو عمن ظلمه ، وإعطاء من منعه . وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلته الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات والتبرؤ من كل قبيح ، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلبس شيئاً من المنكر ، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم والأناة وتنزيه النفس عن مقابلة السفهية بما يفسد الدين ، وهذا كله يؤكد عصمة الرسول ﷺ .

وستقتصر الحديث على الآثار التي وردت في حق خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ فقد أمر الله باتباعه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ﴾ [آل عمران] فإذا تقرر أن الله تعالى أمر بالاتباع به ﷺ استحالة أن يرتكب ما يخالف عصمته .

بل هو معصوم قبل البعثة ، وفي الحديث عن عليّ - رضي الله عنه - قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ... فوالله ما هممتُ بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته " (١) .

قولهم : إذا لم يكن للنبي ﷺ ذنب ، فماذا غفر الله له !؟

أعطى الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أماناً فعاش ﷺ آمناً مطمئن النفس ، قال تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴾ [الشرح] وهذه الآية الكريمة التي تبين مقام النبي ﷺ المحمود عند الله تعالى ، أشكل فهمها على البعض وظن أن للنبي ﷺ أوزاراً وذنوباً حطها الله عنه .

ومن الآيات التي يوهم ظاهرها أن للرسول ذنوباً وأشكل فهمها عليهم واحتجوا بها ، قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ... ﴾ [الفتح] . وقد رأيت من يخوض في هذه الآية الكريمة ونظائرها بغير سلطان ، فتذكرت قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ اللَّهُ تَمَرَّ ذَرَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام] وخلاصة احتجاجهم قولهم : إذا لم يكن للنبي ﷺ ذنب ، فماذا غفر الله تعالى له ؟ وبأي شيء امتن عليه في ذلك ؟

والجواب ، أن قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... ﴾ [الفتح] يُستدلُّ به على عصمة النبي ﷺ عن المعاصي ، أما من أشكل عليه فهم الآية ، وتوهم أن الغفران يستوجب وقوع الذنب منه ﷺ ، فالجواب أن غفران ما تقدم هو العفو

(١) الحاكم " المستدرک " (ج٤ / ص ٢٤٥) كتاب التوبة والإنابة ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وذكر نحوه النووي في " تهذيب الأسماء واللغات " (ص ٨٥) فصل في رضاعه ومرضعاته .

عنه لما كان قبل النبوة ، وغفران ما تأخر عصمته وحايته من الوقوع بالذنب بعد النبوة .
والآية فيها تنزيه للرسول ﷺ من الذنوب ، وَوَعْدُ لَهُ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ غَيْرَ مُؤَاخَذٍ بِذَنْبِ
لَوْ كَانَ ، ولا يلزم من ذلك وقوع الرسول ﷺ في ذنب .

وهذه الآية نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية ، وكانت أحبَّ إلى قلبه من الدنيا
وما فيها ، أخرج أحمد بسند صحيح عن أنس ، قال :

" نزلت على النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ ... ﴾ (٢) [الفتح] مَرَجِعُهُ مِنَ الْحَدِيبَةِ ، وَأَصْحَابُهُ مَخَالِطُوا الْحَزْنَ وَالْكَآبَةَ ، فَقَالَ :
نزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا وما فيها جميعاً ، قال : فلما تلاها نبي الله ﷺ ، قال رجل
من القوم : هنيئاً مريئاً قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله - عز وجل -
الآية التي بعدها ﴿ يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٥) [الفتح] (١) .

وللآية الكريمة نظائر في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ... ﴾ (٥٥) [غافر].

قلت : وليحذر من يجادل في آيات الله بلا برهان أتاه ؛ فالله تعالى قال في الآية بعدها :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُمْ بِيَلْفَعِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٥٥) [غافر] وقال بعد الآية
الثالثة من السورة نفسها بصيغة الحصر : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرُوكَ
تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٥) [غافر] .

(١) أحمد " المسند " (ج ١١ / ص ٢٣٥ / رقم ١٣٥٧٣) ، والحاكم في " المستدرک " (ج ٢ / ص ٤٥٩) كتاب
التفسير ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ...

والآية ونظائرها ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ ... ﴾ (١٦) [محمد] ، لها تأويل يعرفه الراسخون في العلم ، فأمر الله لنبِيِّه بطلب المغفرة المراد منه تعليم الأمة ذلك ؛ لحضِّها على التَّوبَةِ ، وطلب الاستغفار ، والاستكثار منه . ولذلك قال النَّبِيُّ ﷺ : " يا أيُّها النَّاسُ ، توبوا إلى الله فإنِّي أتوب في اليوم مائة مرَّة " (١) .

كما أنَّ أمر النَّبِيِّ ﷺ بالناس بالتَّوبَةِ ، موافق لقوله تعالى ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ (٢١) [التَّوْر] وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ... ﴾ (٨) [التَّحْرِيم] .

وفي صحيح الإمام مسلم حديث فيه إشارة لسبب استغفار النَّبِيِّ ﷺ فقد روى عن الأغرَّ المُنَزِّي - وكان له صحبة - أنَّ رسول الله ﷺ قال : " إِنَّهُ لِيُعَانُ عَلَى قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ " (٢) .

وقد بيّن العلماء سبب استغفاره - ﷺ ، وخلاصة أقوالهم : أنه كان يُعَانُ عَلَى قَلْبِهِ ﷺ بمعنى يغطِّي عليه ، والمراد ما كان يتغشَّى قلبه ﷺ من غفلات الذِّكْرِ من غير عمد ، وهَمٌّ يعتريه رحمةً بأتمته لما أُطِيعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ افْتِقَارًا إِلَيْهِ ، وَإِعْظَامًا لَهُ ، وَإِظْهَارًا لِلشُّكْرِ .

واستغفاره ﷺ موافق لقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٣) [النَّصْر] وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٦) [النِّسَاء] فالنَّبِيُّ ﷺ مأمور بالتَّوبَةِ ، والاستغفار ، والتَّسْبِيح ، والدَّعَاء ... ؛ لثقتدي به ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ... ﴾ (٤) [النَّبِيُّ] .

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٩م/ج٧/ص ٢٤) كتاب الذكر والدعاء .

(٢) المرجع السَّابِق .

وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿١٦﴾ [الأحزاب] .

كذلك النَّبِيُّ ﷺ يَعْلَمُنَا الاعتراف بالتقصير ، ولو كانت صالح أعمالنا كالجبال ، فهذا أبو بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - يأتي ذات يوم النَّبِيِّ ﷺ ويطلب منه أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته ، فيعلمه النَّبِيُّ ﷺ دعاء يظهر فيه الافتقار إلى الله !

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - قال للنَّبِيِّ ﷺ : " يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : قل : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (١) والمسألة فيها أقوال أخر يضيق المقام عن ذكرها ، وحسبنا ما اقتصرنا عليه منها .

ومنهم من يتعلّق بدعاء النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي ، وَجَهْلِي ، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي ، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدُمُ ، وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٢) .

ويظنّ هذا المتعلّق أنّ هذا الحديث قاصمة الظَّهر ؛ فالحديث صحيح ، والنّص صريح ، فالنَّبِيُّ ﷺ يقول : " وكلّ ذلك عندي " ؟! أي أنّه متّصفٌ بهذه الأشياء ، ويطلب غفرانها .

ولا يخفى أنّ النَّبِيَّ ﷺ قال هذا الدُّعاء وغيره تواضعاً واستجابة لأمر الله وتعليماً لأُمَّته ؛ لأنّ الله تعالى أمر بالدُّعاء ، وعدّد الأخذ به عبادة ، وتركه استكباراً ، قال تعالى : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج٨ / ص١٦٨) كتاب التوحيد ، وأخرجه أيضاً في كتاب الدَّعوات ، وكتاب الأذان . ورواه مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/ج١٧ / ص٢٧) وانظر " النكت على العمدة في الأحكام " للزركشي (ص١٢٠) باب التَّشَهُّد .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/ج١٧ / ص٤٠) كتاب التَّوْبَةِ .

﴿٦٠﴾ [غافر] وكل من له علمٌ بفضل التهليل والتسبيح والدعاء يقول مثل هذا الدعاء وأكثر منه .

وكان النبي ﷺ يعدّ فوات الكمال في الأعمال ذنباً ، وهذا أيضاً دأب الصالحين ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ [المؤمنون] أي يخافون ألا يتقبل الله منهم ؛ يشعرون أنهم لم يؤدّوا العبادة على الوجه الذي ينبغي ، وأتهم مقصرون في حق الله ، وهذا الشعور يحملهم على الزيادة في الطاعات ، والإنابة إلى الله والتضرع إليه ، وإظهار شكره ، فالؤمن يدين نفسه ويتهمها ، ولا يفتخر بعبادته .

وهذه عائشة - رضي الله عنها - تذكر : " أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً " (١) فدّل ذلك على أن غفران ما تقدم وما تأخر نعمة من الله ، وأن شكر الله على نعمه يكون بالعمل كفعل النبي ﷺ ، وقد دلّ القرآن على ما دلّت عليه السنّة ، قال تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ... ﴾ ﴿١٣﴾ [سبأ] وقال بعد ذلك : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ [سبأ] .

قوهم : صلاة الله وملائكته والمؤمنين على النبي ﷺ دليل حاجة

قال الجهلاء : صلاة الله وملائكته والمؤمنين على النبي ﷺ ، وطلبه من أمته الدعاء له وأن يسألوا له الوسيلة دليل حاجته إلى الشفاعة !؟ وهذا كله يؤكد وقوعه في ذنوب تنافي عصمته !؟

والجواب ، أن الصلّاة والسلام على رسول الله ﷺ انقياد لأمر الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ﴿٥٦﴾ [الأحزاب] فالله تعالى هو الذي أمرنا أن نصلي عليه ﷺ؛ توقيراً له ، وإظهاراً لشرفه ، وإعلاء

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/٦ج/٤٤ ص) كتاب التفسير .

لقدرة ، و عرفاناً بفضلله ، وتعبيراً عن محبتنا له ، وذلك من علامات صدق الإيـان .

وقد جاءت الآية مؤكدة للصلاة بمؤكدات سبعة : إنَّ الجملة الاسميَّة ، وصلاة الله ، وصلاة ملائكته ، وصلاة الَّذِينَ آمنوا ، والإخبار ، والنِّداء ، والأمر . كما أكَّدت السَّلام بالصدر ، وهذا فيه دلالة واضحة على وجوب امتثال أمر الله بالصلاة والسَّلام على نبيِّه مُحَمَّد ﷺ الَّذِي بَلَغَ العلى بعصمته وكمال رسالته ، فلم تعد البشريَّة بحاجة إلى الرُّسل والرُّسالات من بعده !

وليس صلّاتنا عليه ﷺ شفاعة له ، ومن أين لمثلنا أن يشفع لمثله ﷺ ! وإنّما المراد بالصلاة على النبيِّ ﷺ من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن المؤمنين دعاء .

والمؤمن إذا صلّى على نبيِّه ﷺ عاد ذلك عليه بالرحمة ، فإذا سأل لنبيِّه ﷺ الوسيلة حلّت له الشَّفاعة ، روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه سمع النبيِّ ﷺ يقول : " إذا سمعتم المؤذّن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثمّ صلّوا عليّ ؛ فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً ، ثمّ سلّوا الله لي الوسيلة فإنّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلاّ لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشَّفاعة " (١) .

فالنبيُّ ﷺ خير شافع ، وأوّل شافع ، وأوّل مشفّع ، وقد أغناه الله تعالى بفضلله عمّن سواه ، أخرج مسلم عن أبي هريرة ، قال : قال النبيُّ ﷺ : " أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ، وأوّل من ينشقُّ عنه القبر ، وأوّل شافع ، وأوّل مشفّع " (٢) .

قولهم : هل شكّ النبيُّ ﷺ في حقيقة ما قصّ الله عليه ؟

قالوا : وهل شكّ النبيُّ ﷺ في حقيقة ما قصّ الله عليه في هذا الكتاب ، حتّى ينهـه الله تعالى عن أن يكون من الممتريـن؟! فقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/٤ج/٨٥) كتاب الصلاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٥ج/٣٧) كتاب الفضائل .

والجواب أن النبي ﷺ لم يشك ولم يسأل ، والخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ فإن المراد به غيره ، وهو أسلوب معروف من أساليب الخطاب وله شواهد ، ومن دَرَسَ علوم القرآن عرف ذلك .

قولهم : تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَوْلَى وَالْأَفْضَلَ فَعَاتَبَهُ رَبُّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -

وخلاصة احتجاجهم أن النبي ﷺ عاتبه الله تعالى على قبوله الفداء من أسرى بدر ، وعاتبه على قبوله أعداء المتخلفين عن غزوة تبوك ، كما عاتبه على إخفاء أمر زواجه من زينب - رضي الله عنها - ، وعلى انشغاله عن ابن أم مكتوم الأعمى بدعوة كبار المشركين ؟!

وهذه المسائل التي يثيرونها للاستدلال على عدم عصمة النبي ﷺ ليست شيئاً ؛ فما نُسِبَ للنبي ﷺ من ترك الأولى والأفضل ، ليس فيه شيء من إثبات الذنب والمعصية ، فالنبي ﷺ معصوم من الذنوب جميعاً قبل النبوة وبعدها على التحقيق .

وما وقع به النبي ﷺ عن سهو أو تأويل ، لا يتعدى كونه أموراً هيئات لتؤكد بشرية أمام الخلائق ، فبعض المسائل كان أمرها متروكاً لاجتهاد الرسول ﷺ بالرأي ؛ لأنه لم يُوحَ إليه فيها شيء ، فكان اجتهاده - المأذون به شرعاً - يؤدي به إلى الحسن متعدياً الأحسن ، وإلى الفاضل تاركاً الأفضل ، فيرشده الله بعد ذلك إلى ما هو أولى وأتم وأكمل . وهذه المسائل في حق غيره ليست بذنب ، وإنما عوتب عليها النبي ﷺ كما أجاب علماءنا بالنظر لقدرة منزلته ﷺ من معرفة الله تعالى .

أمّا اجتهاده في أسرى بدر ، فبعد أن استشار أصحابه ، مأل إلى رأي أبي بكر - رضي الله عنه - وقبل الفداء منهم ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخِرَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهِ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿٧٧﴾ لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ [الأنفال] وهذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ... ﴾ ﴿١﴾ [محمد] .

أي لولا حُكْمُ من الله سبق بإحلال ذلك لكم ، لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى قبل أن تؤمروا عذابٌ عظيم ، والآيات فيها عتاب للنبي ﷺ على أخذ الفداء قبل أن يكثُر القتل والقهر في العدو ، ويبالغ فيه .

ولم يوجه الله - تبارك وتعالى - العتاب للنبي ﷺ مباشرة ، وإنما عرض به تلطفاً به ﷺ ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ ﴾ والمراد نبينا ﷺ وقال : ﴿ تَرِيدُونَ ﴾ ولم يقل : تريد . وإنما عتب عليه لعلو مكانته عند الله ؛ وإلا فقد استقرَّ حكم الله في النهاية على رأيه ، فقد وافقه الله تعالى آخرأ ، قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنفال] والمعنى : أن الله قد أحلَّ لكم الفداء ، وآتاه تبارك وتعالى غفور لما أخذتم من الغنيمة قبل حلِّها ، رحيم بكم إذ أحلَّها لكم .

وفي صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه قال : " ... فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله ﷺ : لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا نبي الله هم بنو العمّ والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قلتُ : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكّن علينا من عقيل ، فيضرب عنقه ، وتمكّني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت ، فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ وأنزل الله - عزّ وجلّ - : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم " (١) .

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/ج١٢/ص٨٥) كتاب الجهاد والسير .

أما قبول النبي ﷺ أعدار المتخلفين عن غزوة تبوك ، قبل أن يعرف ذوي العذر في التخلف ممن لا عذر له ، فهذا من اختيار النبي ﷺ للمفضول من أمرين مباحين ، ثم يوجه الله نبيه إلى الأفضل منهما ، قال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴾ [التوبة] .

ومن توهم أن العفو لا يكون إلا عن ذنب أذنبه ﷺ وأن العفو إثبات للمعصية أو المخالفة ، فالجواب ، أن معنى ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ أي لم يُلْزِمَكَ ذَنْبًا .

ثم انظر إلى الآية كيف ابتدأت بالعفو توفيراً لرسول الله ﷺ ورفعاً من شأنه ، لأنه كريم على الله ، ألم تر أن الله قدم العفو على العتاب ، وإنما عاتب الله نبيه لقصور الاجتهاد عن بلوغ درجة الكمال ، فالله تعالى يعلمه الكمال في الاجتهاد ، فهو عفو خاص يليق بمقام النبوة ، كذلك فإن الله أكرم من أن يعود في عفوه .

أما ما قيل في عتاب الله تعالى له في إخفائه أمر زواجه ﷺ من زينب - رضي الله عنها - ، وكانت تحت زيد بن حارثة - رضي الله عنه - ! وما قيل في خشيته ﷺ قاله الناس ولائمتهم ، والله أحق أن يخشاه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... ﴾ [الأحزاب] .

فالجواب ، أن الذي حمله ﷺ على إخفاء ذلك خشية أن يرجف المنافقون فيقولون : تزوج امرأة ابنه ، فقد كان مُتَبَنَاهُ قبل نزول تحريم التبني ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فاستشعر النبي ﷺ أنه لو أظهر ذلك لَعَابَهُ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ مِنَ النَّاسِ ، وهذا قد يُحْدِثُ تأثيراً في إيمان العامة ، وهذا دليل على أن خشية الناس المشار إليها في الآية لم تكن خشية على نفسه ، وإنما خشية في الله ، ولعل ما يؤيد ذلك أن الله تعالى أثنى بعد ذلك على الأنبياء الماضين ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب] ، فإذا كان هذا شأن الماضين ، فما بالك بشأن خاتم النبيين ، وسيّد

وقد أراد الله تعالى أن يُبْطِلَ تَقْلِيداً كان عليه أهل الجاهلية ، وهو تحريم تزوج امرأة الذي يدعى ابناً ، ولهذا قال الله في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ... ﴾ [النساء] ﴿ ٣٢ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ... ﴾ [الأحزاب] ﴿ ٤١ ﴾ وقال : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ... ﴾ [الأحزاب].

فما وقع للنبي ﷺ كان بأمر من الله تعالى ليكون أدعى لقبولهم ، ولذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا فَضِنُ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا فَضُوا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب].

والآيات فيها من الفوائد ، مثل : التسليم لأمر الله ورسوله ﷺ ، وشدة حياء النبي ﷺ ، وجواز عتاب الله تعالى لأنبيائه ، وإكرام الله تعالى لزيد - رضي الله عنه - ، فهو الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن من الصحابة - رضي الله عنهم - وسيظل اسمه يقرأ أثناء الليل وأطراف النهار على ألسنة المؤمنين والمؤمنات ، ومن الفوائد أن الله تعالى جعل زوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ... ﴾ [الأحزاب] ولم يجعل النبي ﷺ أباً أحدهم من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ... ﴾ [الأحزاب] وذلك لإبطال التَّبَنِّي ، وهناك فوائد أخرى يضيق المقام بها .

أما قول من قال : إن النبي ﷺ أتى منزل زيد ، فرأى زينب ، فقال : " سبحان الله مقلّب القلوب ! " فسمعت ذلك زينب ، فذكرته لزيد ، فعلم أمها وقعت في قلبه ، وأنه ذاكرة في ذلك ؛ فنزلت الآية ، واحتج بأن الحديث مبسوط في كتب أهل السنة ، ومنها " الجواب

(١) انظر " أسباب النزول " للئيسابوري (ص ٩٦) .

الكافي^(١) لابن قيم الجوزية .

فقد كان الواجب على من يتعلّل بهذا الحديث ، وهو يدري أنّه لا يدري إن كان الحديث صحيحاً أم موضوعاً ، أن يسأل أهل الذّكر؛ فلا يكون له أن يجهل على رسول الله ﷺ فوق جهله بكلام الله وأسباب نزوله ، ولا يكون له تحميل كلام الله ما لا يحتمله ، وتقويله النبيّ ﷺ ما لم يُقله ! وهذا الحديث باطل ، والخبر لا يصحّ ، وقد نبّه على بطلانه غيرُ محقّق .

فالحديث أخرجه ابن سعد في " الطبقات الكبرى "^(٢) والطبري في " تاريخ الأمم والملوك "^(٣) ، والحاكم في " المستدرک "^(٤) كلّهم عن محمّد بن عمر ، عن عبد الله بن عامر الأسلمي ، عن محمّد بن يحيى بن حبان .

ومحمّد بن عمر^(٥) هو الواقدي ضعيف باتّفاق ، وقد تداولته كتب الجرح والتعديل بالتّضعيف ، كذلك عبد الله الأسلمي^(٦) ، أمّا محمّد بن يحيى بن حبان ، ابن مُنقذ الأنصاريّ فهو تابعي ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ، وقد أورده الألباني في " سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة " بلفظ : " تبارك مُصرّف القلوب " وقال : " إسناده ضعيف ؛ فإنّه مرسل "^(٧) .

وعصمة النبيّ ﷺ تقتضي سلامة سيرته وسريره ؛ فهو الذي أنزل عليه : ﴿ يَعْلَمُ حَآيَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر] وهو الذي يقول في حديثه الشريف : " إنّه

(١) " الجواب الكافي " (ص ٢٨٩) .

(٢) ابن سعد " الطبقات الكبرى " (٨م / ص ١٠١) .

(٣) الطبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٢ / ص ٢٣١) .

(٤) الحاكم " المستدرک " (ج ٤ / ص ٢٣) .

(٥) محمّد بن عمر بن واقد الأسلمي ، الواقدي ، متروك مع سعة علمه " تقريب التّهذيب " (ص ٤٩٨ / رقم ٦١٧٥) .

(٦) عبد الله بن عامر الأسلمي ، ضعيف " تقريب التّهذيب " (ص ٣٠٩ / رقم ٣٤٠٦) .

(٧) الألباني " سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة " (٧م / ص ٤٠٢ / رقم ٣٣٩٠) .

لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين" (١).

أما قصة انشغاله عن ابن أم مكتوم الأعمى بدعوة كبار المشركين إلى الإسلام والإقبال عليهم أملاً في إسلامهم إغزازاً للدين، وعتاب الله تعالى له في ذلك بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ [عبس] وصورة العتاب هذه ليس فيها شيء من إثبات المعصية، لأن في العتاب دَفْعَ هَمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لزيادة التأمل والتبصر واختيار الأهم والأولى.

والقصة أخرجها الحاكم عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: "أنزلت (عبس وتولى) في ابن أم مكتوم الأعمى، قالت: أتى النبي ﷺ فجعل يقول: أرشدني. وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعْرِضُ عنه، ويُقْبِلُ على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا" (٢).

وفي قصة عبد الله بن أم مكتوم فوائدٌ بيّنة: فالله تعالى يعلمنا التلطّف والترقُّق بالأعمى. وسبحان الله! ما قرأ عبد هذه الآيات إلا استشعر هذا المعنى، وما رأى عبد أعمى إلا تذكر هذه الآيات، فتحمله على الإحسان إليه.

ومن الفوائد أن هذه السورة المؤلفة من ست عشرة آية ستظلّ تُتلى ما كرّر الجديدان؛ لتدلّ على صفتي: الصدق والتبليغ، فلو كنتم النبي ﷺ شيئاً مما أمره الله بتبليغه، لكنتم ألوان العتاب هذه!

(١) الحاكم: "المستدرک" (ج ٣ / ص ٤٥) كتاب المغازي، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) الحاكم "المستدرک" كتاب التفسير (م ٢ / ص ٥١٤) وصححه الحاكم، وقال: أرسله جماعة عن هشام، وقال الذهبي: وهو الصواب. أي أنّ الذهبي رجّح المرسل على الموصول، والمرسل الذي رجّحه أخرجه مالك في "الموطأ" (ج ١ / ص ٢٠٣) كتاب القرآن، والترمذي في "الجامع الكبير" (م ٥ / ص ٣٥٧ / رقم ٣٣٣١) أبواب تفسير القرآن، من نفس الطريق، وقال: هذا حديث حسن غريب.

قولهم : علم النَّبِيِّ ﷺ كفرهم ثم استغفر لهم !

قال الله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٨٠) [التوبة] .
وهناك من قال : كيف يستغفر الرسول ﷺ للذين يلمزون المطّوعين في الصدقات ويسخرون منهم ، وقد تهدّدهم الله تعالى بعذاب أليم ؟! وأخبر : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴾ (٨٠) [التوبة] .

فالجواب ، لما نزل وعيد اللامزين للمطّوعين في الصدقات طلبوا من الرسول ﷺ أن يستغفر لهم ، فنزلت الآية الكريمة ، وأجود ما يقال أنه ﷺ إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم ، ولو علم ﷺ بكفرهم ما استغفر لهم ! والآية الكريمة منسوخة بقول الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... ﴾ (٦) [المنافقون] .

دعوى أنّ الشيطان ألقى على لسان النَّبِيِّ ﷺ جملة (تلك الغرائق ...)

ورد في بعض كتب السيرة والتفسير والحديث فريّة لا مزيّة فيها ، خلاصتها أنّ سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ألقى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٢) [الحج] أنّ النَّبِيَّ ﷺ تمنى لو أنزل الله عليه آية يستميل بها قلوب المشركين ، حتى أنزل الله عليه سورة النجم ، فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ءَالَتَّ وَالْعُرْوَى ﴾ (١١) وَمَوَدَّةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى ﴿ (٢٠) [النجم] ألقى الشيطان على لسانه : (تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) .

وقد اختلفت طرائق وألفاظ هذه الرواية لكنها اتفقت في خلاصتها ، مع أنّ الآية الكريمة ليس فيها تصريح أو تلميح لهذه القصة المردودة عقلاً ونقلاً ، وليس في الآية إسناد شيء إلى النَّبِيِّ ﷺ ، وإنما تضمّنت حالة من كان قبله من الرسل إذا تمّنوا .

ومعتقد كل مسلم يؤمن بالله ورسوله ويتبع سبيل المؤمنين أن ما جاء به ﷺ وحي ،
 بشهادة الله تعالى : ﴿ وَمَا يَطُوقُ عِزَّ الْهَوَىٰ (٣) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم] وقوله
 تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخَامُوا خَيْرًا لَكُمْ... (١٧) ﴾ [النساء] وأن
 النبي ﷺ لا تنفك عنه صفة العزيمة عن المعاصي الاعتقادية والقولية ، والفعلية ، فضلاً عن
 عصمته عن الكتمان والتحرif ، والخطأ والغلط والنسيان فيما أمره الله بتبليغه ، وأن الله تعالى
 لا يقره على كذب أو باطل : ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا
 مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ
 مُّكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة] وأن الوحي معصوم ، وأنه نزل به بالحق : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ
 الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ... (١٠٢) ﴾ [النحل] وأن الشياطين لا يكون لها أن تنزل به :
 ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٣٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظْهِمُونَ (٣١) ﴾ [الشعراء] .

فقد عصم الله تعالى نبيه من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه ، ولذلك تقول عائشة
 - رضي الله عنها - لما خرج رسول الله ﷺ من عندها ليلاً : " فَعَرْتُ عَلَيْهِ ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا
 أَصْنَعُ ، فَقَالَ : مَا لَكَ يَا عَائِشَةُ ، أَغْرَتِ ؟ فَقُلْتُ : وَمَالِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ : أَقْدَ جَاءَكَ شَيْطَانُكَ ؟ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْمَعِيَ شَيْطَانٌ ؟! قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ :
 وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ ؟! قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟! قَالَ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي
 عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ " (١) .

وفي عقيدتنا أن الله حفظ القرآن للنبي ﷺ في حالتي النوم واليقظة ، يقرأه في يسر
 وسهولة ، قال النبي ﷺ فيها يرويه عن ربه إن الله تعالى ، قال : " إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي
 بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ " (٢) فالقرآن محفوظ .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/ج١٧/ص١٥٨) كتاب صفة القيامة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/ج١٧/ص١٩٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها .

ولما طلب المشركون من النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غيره أو يبدله ، قال الله له : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥) [يونس] .

ولذلك وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه كتاب عزيز : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٤١) [فصلت] وكيف لا يكون كذلك ، وهو من لدن عزيز حكيم ! ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) [الزمر] وقد وردت هذه الآية باللفظ نفسه في غير سورة ، فقد وردت في الزمر ، والجنائية ، والأحقاف ؛ ليؤكد الله تعالى أن هذا القرآن منبع الجناب عزيز لا تقوى شياطين الإنس والجن على محاكاته ، حتى بعد وفاة النبي ﷺ !

ومن انخدع بهذه القصة فقد ظلم نفسه ، فقد بين الله تعالى أن الذين ورثوا الكتاب من عباده أقسام ثلاثة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (٣٢) [فاطر] .

وهذه الروايات التي تتحدث عن هذه القصة أخرج جُلّها الطبري في تفسيره^(١) ، وقد اختلفت هذه الروايات في أسانيدھا ، وألفاظ متونها ، فضلاً عن المناسبة التي قيلت فيها ، لكنھا اتفقت في معناھا ، وهي روايات كلها مُرسلة ، أو ضعيفة ، أو كلاهما معاً .

فقد أخرج الطبري رواية من طريق أبي معشر ، عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس المدني ، وهذه الرواية فيها علتان : الأولى : الإرسال ، محمد بن كعب ، ومحمد بن قيس تابعيان ، والثانية : الضعف ؛ فإن الرواي عنهما أبو معشر ، واسمه نجیح بن عبد الرحمن

(١) الطبري : " تفسير الطبري " (٩م / ص ١٧٤ / رقم ٢٥٣٢٧) سورة الحج .

السُّنْدِي ، قال عنه الحافظ : " ضعيف ، أَسَنَّ وَأَخْتَلَط " (١) .

وليس الكتاب موضوعاً لبحث هذه الروايات ، وقد نبّه إلى بطلانها غير عالم ، ومنهم القاضي عياض في كتابه (الشفا)^(٢) وابن حزم في كتابه (الفصل) قال ابن حزم : " وأمّا الحديث الذي فيه : وإِنَّهُنَّ الْغَرَانِيقُ الْعَلَى وَإِنَّ شِفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَى . فَكَذِبٌ بَحْتُ مَوْضُوعٍ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَطُّ مِنْ طَرِيقِ النَّقْلِ ، فَلَا مَعْنَى لِلِاسْتِغَالِ بِهِ ، إِذْ وَضِعَ الْكُذْبُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ أَحَدٌ " (٣) " ومن العلماء من أفرَدَ لها كتاباً ، ومنهم الألباني في كتابه (نصب المجانيق لنسف رواية الغرائق) .

وقد وردت هذه الرواية عند الطبراني في (المعجم الكبير)^(٤) من طريق ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة ، وهي مرسلة ؛ لأنَّ عروة بن الزبير بن العوام ، تابعي .

وقد يقول قائل : إنَّ الآية تؤكد هذه القصة ، فالله تعالى يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ... ﴾ [الحج] والجواب أن هذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى النَّبِيِّ ﷺ ، وإِنَّمَا تَتَحَدَّثُ عَنْ حَالَةٍ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كَمَا تَقَدَّمَ . وَالنَّبِيُّ ﷺ - كَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - مَعْصُومٌ عَنِ الْإِخْبَارِ عَنْ شَيْءٍ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ لَا سَهْوَ وَلَا عَمْدًا .

وقد يقول آخر : أخبر الله تعالى أنه - جلَّ جلاله - ينسخ ما يلقي الشيطان في أُمْنِيَّةِ النَّبِيِّ أو الرَّسُولِ ، فلماذا لم يمنع الله تعالى الشيطان من أوَّل الأمر أن يلقي شيئاً ؟!

وقد أجاب القرآن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [٥٢] وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) ابن حجر " تقييد التهذيب " (ص ٥٥٩ / رقم ٧١٠٠) .

(٢) القاضي عياض " كتاب الشفا " (ص ٢٩٤) .

(٣) ابن حزم : " الفصل " (ج ٢ / ص ٣١١) .

(٤) الطبراني " المعجم الكبير " (ج ٩ / ص ٢١ / رقم ٨٣١٦) .

الْعِلْمُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج].

وبعد ذلك بين الله تعالى أن الكفار سيظلون إلى يوم القيامة يشككون ويضلّون ، ولن تضرنا شبهاتهم في شيء ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هكذا بصيغة المضارع لإفادة التجدد والاستمرار ﴿ فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في شك من القرآن وتشكيك فيه ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ [الحج].

أقلّوا اللوم على العلماء ، أو سدّوا المكان الذي سدّوا !

ورواية الغرائيق ابتلاء قديم ، وقد أمضى الله علينا الابتلاء قدراً ، قال تعالى : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت] وأكد الله ذلك في السورة نفسها ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِينَ ﴾ ﴿١١﴾ [العنكبوت].

قلت : ولكننا مأمورون بدفعه شرعاً ؛ ولذلك تعرّض لهذه الرواية بالتقدّ غير عالم من العلماء القدماء والمحدثين الراسخين في معرفة علوم الحديث رواية ودراية ؛ لكنهم لم يسلموا من اللوم ممّن جاء بعدهم ، فهذا ينتقد القاضي عياض على مأخذه الثاني في هذه المسألة ، لأنّ القاضي كان له في الكلام على مشكل هذا الحديث في كتابه (الشفا) مأخذان : أحدهما في توهين أصله وأنه حديث لم يخرج أحد من أهل الصّحة ولا رواه ثقة بسند سليم ، وساق الأدلة على ذلك ، والثاني على تسليمه ، أي التسليم بصحّة الحديث افتراضاً ، واستعاذ بالله من صحّته ، وجمّع الأدلّة على بطلانه عقلاً ونقلاً ، وذلك على افتراض صحّته .

ونحن لا ننكر على عالم أن يتعقّب القاضي على هذا التسليم ، لكن أن يوصف رأيه بأنّه ردة في الفكر ، ونكوص عن الحقّ ، وأنّ القاضي قد نکص على عقبيه^(١) ، فإنّ مثل هذا التعبير

(١) قول محمّد الصادق عرجون - رحمه الله - قال : " وكان القاضي بنكوصه على عقبيه واستنزاله قلمه =

بحقِّ عَالِمٍ لا نرضاه من عالم ؛ فالعالم يصحُّح ولا يجرح !

فلا يخفى عُنْفُ هذه العبارة ؛ فهي مقتبسة من قول الله تعالى في حَقِّ الشَّيْطَانِ : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتْ أَفْئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ... ﴾ (١٨) ﴿ [الأنفال] أو من قوله تعالى في حَقِّ المشركين : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ [المؤمنون] ولا تخفى الاستعارة التمثيلية في هاتين الآيتين ، فقد شبه الله تعالى الإعراض عن الحقِّ بالراجع القهقري إلى الخلف !

وهذا الكلام في حَقِّ العلماء لا ينبغي أن يقال ، ولا أن يُنْقَلَ عنهم ؛ فحين يقرأ سواد النَّاسِ هذا الكلام ، يظنون بهم ؛ فيتركون ميراثهم ! وما ذكرناه إلا ﴿ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٨) ﴿ [ق] فالحذر الحذر من بيان مسألة صغرى بطريقة تُضَيِّعُ مصلحة كبرى .

والتسليم : أن يُفْرَضَ المحال ويسلم وقوعه تسليماً جديلاً للدلالة على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه. والتسليم الذي أخذه عليه ليس عيباً ، وإن كان نوعاً من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل ؛ فقد ورد التسليم في كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُذِّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١١) ﴿ [المؤمنون] .

فقوله تعالى : ﴿ إِذَا ﴾ ﴿ جواب لمحذوف تقديره : لو كان معه إله ، والمعنى : لو سُئِمَ أن مع الله إله لزم من ذلك التسليم ذهاب كلِّ إله بخلقه ، وألا يرضى إله أن يُضَافَ خَلْقُهُ إلى غيره ، ولتنازعا في الملك ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ وغلب بعضهم بعضاً وقهره ، فلا يتم في الكون أمر ولا تنتظم أحواله ، فإذا تقرّر نفي المشاركة لأنَّ الواقع خلاف ذلك دلَّ على نفي

= وفكره إلى حماة الفروض والأوهام منتظماً في عقد من أبطلوا القصة الكاذبة المتزندقة الغرنوقية ، ثم ارتدوا على أذبارهم إلى مزالق التأويل المحرّف المنحرف ... " (محمد رسول الله ﷺ) (م ٢ / ص ١٣٨) ونقل عنه ذلك محمد بيومي في كتابه (عظمة الرسول ﷺ) (ص ٣١٢) .

الولد أيضاً ؛ لأن الولد ينازع في الملك . وقد جاءت ﴿ مِنْ ﴾ في الموضعين زائدة : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ وإثما زيدت لتوكيد التفي . فهذا الأسلوب متبع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾ فرضاً ﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ ... ﴿ ١٤ ﴾ [فاطر] وله شواهد حسبنا منها ما ذكرناه .

وكثير هم الذين انتقدوا القاضي عياض وابن حجر وغيرهما من العلماء الأجلاء الذين لا نعلم أن الله أعطى أحداً منهم موثقاً من الخطأ أو الوهم أو النسيان ، ولا يسعنا إلا أن نتمثل قول الله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ ... ﴿ ٣٣ ﴾ [الأعراف] .

وقد أخذوا على ابن حجر مأخذين : الأول : أنه بعد أن ساق طرق القصة وبين أنها كلها سوى طريق سعيد بن جبير ضعيف وإما منقطع ، قال - رحمه الله - : " لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً " (١) ولم يغفروا زلته ، ولم يكفهم أن غير عالم ، ومنهم الألباني - رحمه الله - قد نبه إلى ذلك من عقود ! فحتى يومنا هذا وهم يناقشون ما ذهب إليه ، قلت : والحمد لله أن ابن حجر لم يقل : للقصة أصل ثابت أو صحيح ، وإلا لو صارت الأشجار أقلاماً ، والبحار مداداً ما استطاعوا أن يشبعوا الموضوع حقه !

والثاني : أن ابن حجر ارتضى في تأويل الآية قول القائل : كان ﷺ يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمة محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا ، فظنّها من قوله وأشاعها ، قال ابن حجر : " وهذا أحسن الوجوه " (٢) .

قلت : وهذا الذي اختاره ابن حجر على التسليم بأن هناك من يحتج بالمرسل ، أو يحتج بتعدد طرق الحديث واعتضاد بعضها ببعض . وقصة الغرائيق معلوم أنها باطلة مناسبة وسنداً ومتمناً ، ونصّها مخالف لأصل من أصول العقيدة ، وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدس عليه

(١) ابن حجر : " فتح الباري " (ج ٨ / ص ٣٥٤) كتاب التفسير .

(٢) المرجع السابق .

الشيطان شيئاً أو يحاكيه فيما يبليغه عن ربّه ، والمنعم النّظر في كلام ابن حجر يعلم أنّه لا يخفى عليه ذلك ، وأنّه إنّما ساق الروايات ليوهنها ، وساق القصّة ليظهر عوارها ! أمّا اختياره وترجيحه فقد قدّمنا أنّ العالم ليس معصوماً عن الزّلل ولا منزهاً عن الخطل .

هذا وينبغي على من يقرأ الكتاب والسّنّة وسيرة السّلف الصّالح أن يجد ما يغرس في قلبه حسن الظنّ بالعلماء الأحياء منهم والأموات ، فإذا رأت عينه عيباً حمّله على أكمل نيّة لهم ، وأوّلّه إلى أقرب معنى للخير ، والتمس أحسن التّأويلات ، وبرّر لهم واعتذر ، إذ هم أهلٌ لذلك ، والله تعالى أعلم بما في الصدور ! ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت] .

فقد أمرنا الله تعالى أن نقدّم حسن الظنّ دائماً بإخواننا المؤمنين ، قال تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُو ظَنَّنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا ... ﴿١٣﴾﴾ [التور] فابن حجر لا يتعمّد مخالفة الرسول ﷺ أو أن يكذب عليه متعمداً ، وغزارة علمه وفضله يشهدان بذلك ، لكنّه مجتهد ، فإن أخطأ فقد عفا الله عن المخطئ في اجتهاد ، بل أعدّ له أجراً حسناً ، فلا يلام من أصاب أجراً ! والله نسأل أن يؤتّي علماءنا أفضل ما آتاه من رجاء بخير نيّة !

فما أعظم أن يجلّ العلماء بعضهم بعضاً ! فالعلماء يتوادّون ويتراحمون كما قال تعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ... ﴿٩﴾﴾ [الحشر] ، وكما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿١٠﴾﴾ [الحشر] .

والعالم من عدّت هفواته ، وأحصيت سقطاته ، ويكفي العالم شرفاً وفخراً أن تُعدّ معاييه ، كما قال يزيد المهلبي :

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلّها كفى المرء نبلاً أن تُعدّ معاييه

وابن حجر من جبال الحفظ الرّواسي الذي نذعن له بالفضل ؛ فقد سلّخ من عمره قرابة الأربعين عاماً في الاشتغال بكتابه " الإصابة " وقد أشار إلى ذلك في نهاية الجزء

السَّادِسُ^(١) ، وقرابة الثلاثين عاماً في كتابه " فتح الباري "^(٢) فكم من الوقت استغرقت بقية كتبه ! فقد أنفق - رحمه الله - نفائس أيامه بالاشتغال بالعلوم الشرعية المتلقاة عن سيّد البرية والتي مدارها على كتاب الله المقتضى وسنة نبيه المصطفى . والقاضي من جبال العلم الشاخنة الذي يستصغر الإنسان نفسه بين يديه ! وهذا أو ذاك عنده من خشية الله تعالى ما يرفعه إلى درجة العلماء المغفور لهم إن شاء الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (٢٨) **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّتَبْخَرَهُ لَنْ كَسْبَرُوا** (٢٩) **لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** (٣٠) [فاطر] .

ورحم الله أبا عمرو زرعة السيباني إذ قال : " ما نحن فيما مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال " فإذا كان أبو عمرو كبقل أفلا نكون على الأقل كشوك ندود به عن جنى هؤلاء العلماء !؟

دعوى أن القرآن فيه آيات متناقضة متعارضة !

من الدعاوى التي ملأ الجهلاء بها ما بين الخافقين ضجيجاً وعجيجاً ، زعمهم أن القرآن الكريم فيه آيات ينقض بعضها بعضاً ، ويرد بعضها الآخر ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت : ما من مخلوق نظر في كتاب الخالق يلتمس عيباً ليطعن فيه إلا رجع إليه بصره خاسئاً ذليلاً ! فكيف يكون في القرآن تناقض واختلاف ، وهو ﴿ نَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٤٤) [فصلت] وإنما هي دعوى من لا دراية له بمبادئ علوم القرآن فضلاً عن غوامضها ، ولذلك فإن أي قصور في الجمع بين الآيات والتوفيق بينها ، فهو قصور تتهم فيه العقول !

ومن ذلك قولهم : كيف نوفق بين قوله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ

(١) انظر " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر (٣م/٦ج/١ ص ٣٧٢) .

(٢) انظر " فتح الباري على صحيح البخاري " لابن حجر (ج ١٣/ ص ٤٦٩) .

وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ... ﴿٣﴾ [النساء] وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ ﴿١٣﴾ [النساء] قالوا: آية تشترط العدل لتعدد الزوجات وتثبت إمكان وقوعه، وآية تنفي العدل وإمكان تحققه! وقالوا: ولماذا لم يقتصر على الواحدة طالما أن العدل بين النساء منفي بصريح الآية؟! وكيف يكلف الرجال العدل بين النساء ويحبر أنهم لا يستطيعونه؟!؟

وقد أجاب سلفنا عن ذلك ما خلاصته أن العدل المنفي غير العدل الأول، فالعدل في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ...﴾ ﴿٣﴾ [النساء] المراد منه العدل الظاهر في القسمة والتفقه بين الزوجات، والتسوية في حقوق النكاح، ومعاشرتهن بالمعروف، وهو أمر مستطاع، والقيام به فرض، والعدل المنفي في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ ﴿١٣﴾ [النساء] المراد منه العدل في المحبة، وهو أمر باطن أخبر أنهم لا يستطيعونه، ولم يكلفهم به، فلا إشكال بين الآيتين.

فالمراد أن الله كلف الرجال بالعدل الظاهر المستطاع، وهو الإنفاق، والذي أخبر عنهم أنهم لا يستطيعونه لم يكلفهم إيّاه، وهو ميل النفس والمحبة، فالعدل بين النساء من كل جهة هو المنفي.

فإذا أدى الرجل لكل واحدة منهنّ كسوتها، ونفقتها، والإيواء إليها، لا يضره ميل قلبه إلى واحدة منهنّ دون سواها؛ ولهذا كان النبي ﷺ يعدل بين أزواجه في الإنفاق، وقد أخرج الحاكم وغيره عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، فيقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" (١) قال إسماعيل القاضي: يعني القلب وهذا في العدل بين نسائه. وصدق الله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي

(١) الحاكم "المستدرک" (٢م / ١٨٧ ص) كتاب النكاح، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ... ﴿٨٢﴾ [النساء].

قال الجهلاء : وكيف الجمع بين قوله تعالى في حق أمة محمد ﷺ : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ ﴿١١٠﴾ [آل عمران] وقوله تعالى في حق بني إسرائيل : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ [البقرة] وعضدوا جهالتهم بقولهم : كيف يستقيم هذا ، وقد أكد الله تعالى تفضيل بني إسرائيل على العالمين بأن ذكر الآية مرتين في السورة نفسها ، فقد قال الله في الآية الثانية والعشرين بعد المائة : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١١٢﴾ [البقرة] قالوا : وهذا التكرير للتوكيد !

والجواب ، أن تفضيل الله تعالى لبني إسرائيل لا يخفى أنه كان على عالمي زمانهم ، وهو من باب العام الذي أريد به الخاص ، والفعل (كان) في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ لا يراد به الماضي والانقطاع ، وإنما يراد به الاستقبال والحال ، وهذا الحكم جاء معللاً ، فعلة الخيرية فسّر سببها قوله تعالى بعد ذلك ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... ﴾ ﴿١١٠﴾ [آل عمران] والآية وإن كانت خطاباً لأصحاب النبي ، فهي عامة في أمة النبي ﷺ التي لا يخلو عصر ممن يأمر منها بالمعروف وينهى عن المنكر .

ومن باب العام الذي يراد به الخاص قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾ [آل عمران] فالله تعالى لم يصطفهم على سيدنا محمد ﷺ ، وإنما أراد عالمي أزممتهم . ولابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " (١) بحث ثر في ذلك .

قال الجهلاء : كيف عمّ الله تعالى الآيات بالإحكام في قوله تعالى : ﴿ الرَّكِيظُ أُحْكِمَتْ عَيْنُهُ ... ﴾ ﴿١﴾ [هود] وخصّ بعضها بالإحكام في سورة آل عمران فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي

(١) انظر " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة (ص ٢٨١) .

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ... ﴿٧﴾ [آل عمران].

قالوا: وكيف يمكن التوفيق بين آية ذكرت أن القرآن كله محكم ﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمَتْ

ءَايَاتُهُ... ﴿١﴾ [هود] وآية ذكرت أن القرآن كله متشابه ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَابِهًا... ﴿٢٣﴾ [الزمر] وزعموا أن بين الآيتين تعارضاً!

وخلاصة القول: القرآن الكريم منه آيات محكمات هنّ معظم الكتاب، ومنه آيات

متشابهات. وقد جعله الله كله محكماً في قوله ﴿أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ... ﴿١﴾ [هود] بمعنى ليس

فيه عيب، وجعله متشابهاً في قوله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا... ﴿٢٣﴾ [الزمر] بمعنى أنه يشبه

بعضه بعضاً في الحسن والصدق وغير ذلك.

وعلى ذلك، فالإحكام الذي عمّ به في سورة هود غير الذي خصّ به في سورة

آل عمران، وما قيل في الإحكام يُقال في المتشابه. وهكذا يتضح أن الإحكام لا يأتي على

معنى واحد كما يتوهمون، وقد ذكر ابن القيم في (شفاء العليل) ثلاثة معانٍ للإحكام^(١).

والجواب من وجه ثانٍ أن الله أوقع العموم على معنى الخصوص، أي ذكر أن الكتاب

كله محكم وأراد الخصوص أو الجزء، ثم ذكر أن الكتاب كله متشابه وأراد الخصوص، وهو

باب يُعرفُ في البلاغة بالمجاز المرسل وعلاقته هنا الكليّة.

قالوا: هناك تعارض بين قولته تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَسْأَلُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ﴿١٥﴾

[الطور] فآية تنفي التساؤل بينهم، وآية تثبته.

هذا، ولا تشابه بين الآيتين، فحين لا يتساءلون، فذلك حين ينفخ في الصور النفخة

الأولى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون]

(١) ابن القيم "شفاء العليل" (ص ١٩٣).

وكيف يتساءلون ولا يبقى حَيٌّ حينها في السماء ولا في الأرض إلا ما شاء ربك !؟ قال تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر] وعلى ذلك ، فهم يتساءلون في النفخة الأخرى التي يُبعثون بها ، فالآية توضح الآية .

قالوا : وما قولكم في آية تنفي أن يكتنم المشركون ربهم حديثاً عما عملوه ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء] ، وآية تثبت أنهم يكتمون ويقولون : ﴿ وَاللَّهُ رَئِينَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] .

وقد أجاب أهل التأويل ما حاصله أن جوارحهم لا تكتنم الله حديثاً ، وإن جحدت بذلك أفواههم ، كما قال تعالى : ﴿ أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس] وذلك أنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا المسلمون ، يجحدون بأفواههم أنهم كانوا مشركين ، فيختنم الله على أفواههم وتنطق جوارحهم ؛ فيعلمون أن الله لا يكتنم حديثاً .

قالوا : فقد ذكر الله تعالى في سورة النازعات خَلَقَ السَّمَاءَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ ، فقال تعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَعْتَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات] .

وفي سورة فصلت ذكر خلق الأرض قبل خلق السماء ، فقال : ﴿ قُلْ أَيَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَدْرًا فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ اللَّسَالَيْنِ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت] فأية تُشعرُ بأنَّ خلقَ السماء مُتَقَدِّمٌ على خلق الأرض ، وآية تُشعرُ بأنَّ خلقَ السماء متأخر عن خلق الأرض !؟

قلت : المعنى الظاهر أن الله تعالى خلق الأرض في يومين أولاً غير مدحوة ، ثم خلق

السَّاءِ فِي يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ وَبَسَطَهَا وَمَدَّهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أَي مَعَ الْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ تَقَدَّمَا قَوْلُهُ : ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ ، فَالْأَرْضُ مُتَقَدِّمَةٌ عَلَى السَّاءِ خَلْقًا ، مُتَأَخِّرَةٌ عَنْهَا دَحْوًا ، وَهَكَذَا يَنْدَفِعُ الْإِشْكَالُ .

قالوا : لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...﴾ ﴿١٦﴾ [البقرة] قالوا : وَخَلَقَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ دَحْوِهَا ، وَالآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا - أَي أَنَّهُ دَحَاها - قَبْلَ خَلْقِ السَّاءِ ، وَهَذَا يُبْقِي الْإِشْكَالَ قَائِمًا ، وَلَا يَنْدَفِعُ الْإِشْكَالَ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمْعِ .

قلت : لَعَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَجْمَلَتْ مَا فُصِّلَ فِي سُورَةِ فَصَّلَتْ مِنْ تَرْتِيبِ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ مِنْ فَوْقِهَا ، وَالْمُبَارَكَةُ فِيهَا ، وَتَقْدِيرُ أَقْوَاتِهَا ، وَخَلَقَ السَّاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ ؛ فَالْقُرْآنُ يَفْسِّرُ بِالْقُرْآنِ أَوَّلًا ، فَإِنْ تَعَدَّرَ فَبِالسُّنَّةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ؛ فَإِنْ خَفِيََتْ حِكْمَةُ هَذَا مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [النحل] .

قالوا : وَلَمْ يَخْصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْكُفَّارَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿كَمِثْلَ نَبَاتٍ كَفَرًا﴾ [الحديد] قالوا : فَهَذَا مِمَّا يَسْتَوِي فِيهِ الْكُفَّارُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فَلَوْ أَعْجَبَ نَبَاتُ الْغَيْثِ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَقَصَ إِيْمَانَهُمْ شَيْئًا ؛ فَأَيَّ حِكْمَةٍ فِي إِعْجَابِ الْكُفَّارَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْكُفَّارَ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى الزُّرَّاعِ ، فَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلزُّرَّاعِ : كَافِرٌ ؛ لِأَنَّهُ يَكْفُرُ الْبَذْرَ الْمَبْدُورَ بِتُرَابِ الْأَرْضِ إِذَا أَمَرَ عَلَيْهَا مَالِقَهُ ، فَيَسْتَرَهُ ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَعْرِجُ الزُّرَّاعَ...﴾ ﴿٢١﴾ [الفتح] .

قالوا : وَكَيْفَ تَكُونُ الْقَوَارِيرُ وَهِيَ زَجَاجٌ مِنْ فِضَّةٍ ؟ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿قَوَارِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ... ﴿١٦﴾ [الإنسان] قالوا : وَكَيْفَ تَكُونُ الْحِجَارَةُ مِنْ طِينٍ ؟ كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٣٣﴾ [الذَّارِيَاتِ] قالوا : وَأَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا

أما قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ ... ۝١٦ ﴾ [الإنسان] فهذا على التشبيه ، أراد أنها قوارير (أكواب) لها بياض الفضة وصفاء الزجاج يرى باطنها من ظاهرها . أما قوله تعالى : ﴿ لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ ۝٣٢ ﴾ [الذاريات] فذكر ابن عباس أنها : الأجر . والأجر : طبيخ الطين ، أو حجارة الطين ؛ لأنه في قسوة الحجارة ﴿ فَأَيُّ حَدِيثٍ بَعَدَ اللَّهُ وَآيِنِيهِ يَوْمُونَ ۝٦ ﴾ [الجاثية] .

قالوا : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦١ ﴾ [النساء] وكان : فعل معناه الماضي والانقطاع ؛ فكأنه كان ثم مضى !؟ ولا يخفى أن فعل الكينونة جاء هنا بمعنى الدوام والاستمرار والأزل والأبد ، أي أن الله كان ولم يزل كذلك ، وعلى هذا المعنى تُحمَلُ جميع الصفات الذاتية المقترنة بالفعل كان ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ۝٨١ ﴾ [الأنبياء] .

والفعل كان يأتي بمعان أخرى ، فهو يأتي بمعنى الحال ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝١٧٣ ﴾ [النساء] وبمعنى الاستقبال : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شُرُهُ مُسْتَظِيرًا ۝٧ ﴾ [الإنسان] وبمعنى صار : ﴿ إِلَّا إِلَيْسَ ابْنِي وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ۝٣٤ ﴾ [البقرة] وغير ذلك .

قالوا : وكيف الجمع بين آية تصف الأولاد أنهم زينة الحياة الدنيا كما قال تعالى : ﴿ أَلَمَأُ وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ۝٤٦ ﴾ [الكهف] ، وآية تحذر من الأولاد وأن منهم عدوًّا يجب الحذر منه ، قال تعالى : ﴿ إِن مِّنْ أَرْوٰجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۝١٤ ﴾ [التغابن] .

ومن قرأ أسباب النزول زال عنه هذا الإشكال ، فقد أخرج الترمذي عن ابن عباس

وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتٍ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ...﴾ [١٤] ﴿التغابن﴾ ، قال : " هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين همُّوا أن يعاقبهم ، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿لَاتٍ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٤] ﴿التغابن﴾ " (١) .

وبعض هذه المسائل المتقدِّمة قديمة مُتجدِّدة ، فقد روى البخاري عن سعيد ، قال رجل لابن عباس : " إني أجد في القرآن أشياء تُختلفُ عليّ ، قال : ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [١١] ﴿المؤمنون﴾ [وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] ﴿٥٥﴾ [الطور] .

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [٤٢] ﴿النساء﴾ [وَاللَّهُ رَئِيًّا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [٣٣] ﴿الأنعام﴾

فقد كتموا في هذه الآية .

وقال : ﴿أمر السماءُ بنها﴾ [١٧] ﴿النازعات﴾ [إلى قوله ﴿دَحَاهَا﴾ [٢٠] ﴿النازعات﴾

فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال ﴿أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين...﴾ [٩] ﴿فصلت﴾ [إلى ﴿طالعين﴾ [١١] ﴿فصلت﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء .

وقال تعالى : ﴿وكان الله عفورا رحيمًا﴾ [٩٦] ﴿النساء﴾ [عزيبًا حكيمًا﴾ [٥٦] ﴿النساء﴾

﴿سميعًا بصيرًا﴾ [١٣٢] ﴿النساء﴾ فكانه كان ثم مضى !

فقال : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ في التفخة الأولى ، ثم ينفخ ﴿في الصور فصعق من في

(١) الترمذي " الجامع الكبير " (٥م/ص ٣٤٤/رقم ٣٣١٧) أبواب تفسير القرآن ، وأخرجه الحاكم في " المستدرک " (٢م/ص ٤٩٠) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وانظر " أسباب النزول " للئيسابوري (ص ٢٤٠) .

السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ... ﴿٦٨﴾ [الزمر] ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في التفخمة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون .

وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِحْلَاصِ ذُنُوبِهِمْ ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ تَعَالَوْا نَقُولُ : لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ ؛ فَخْتَمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ فَتَنْطِقُ أَيْدِيهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا ، وَعِنْدَهُ ﴿ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ ﴿٤٤﴾ [النساء] الآية .

وخلق الأرض في يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحا الأرض ، ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينها في يومين آخرين ، فذلك قوله دحاها ، وقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فَجَعَلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَخُلِقَتِ السَّمَاوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ .

وكان الله غفوراً ، سمى نفسه ذلك ، وذلك قوله ، أي لم يزل كذلك ، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ، فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كلاً من عند الله " (١) .

هذا وينبغي للمسلم أن يتعلم الإيمان قبل أن يتعلم القرآن ، ففي سنن ابن ماجه بسند صحيح عن جندب بن عبد الله ، قال : " كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة " (٢) ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فزدنا به إيماناً " (٣) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م / ٦ج / ص ٣٥) كتاب التفسير .

(٢) حزاورة : جمع حَزَوْرٍ وحَزَوْرٍ ، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وقارب البلوغ ، والتاء لتأنيث الجمع " لسان العرب " ابن منظور (٣م / ص ١٥٠) .

(٣) ابن ماجه " سنن ابن ماجه " (١م / ص ٨٦) المقدمة ، وإسناده صحيح ، رجاله ثقات . وأخرج نحوه البيهقي ، وفي آخره زيادة : " وإتكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان " البيهقي " الجامع لشعب الإيمان " (١م / ص ١٥٢) وإسناده ضعيف ؛ فيه الحجاج بن نصير الفساطيطي قال عنه ابن حجر : ضعيف كان يقبل التلقين " تقريب التهذيب " (ص ١٥٣ / رقم ١١٣٩) .

وينبغي للمسلم أن يحذر من الذين يتبعون ما تشابه من القرآن وأشكل من السنّة ،
 قالت عائشة - رضي الله عنها - : " تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا
 تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا
 بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكُرُ إِلَّا آلُ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [آل عمران] قالت : قال رسول الله
 ﷺ : " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم " (١) .

وينبغي للمفسر لكتاب الله تعالى أن يُحيطَ بِعُلُومِ تعصم لسانه وقلمه من الخطأ ، منها :
 الصّرف ، والإعراب (ويجمعها اسم النحو) والرّسم (وهو العلم بأصول كتابة الكلمات)
 والمعاني ، والبيان ، والبديع (ويجمعها اسم البلاغة) وعلم أصول الدّين ، وعلم أصول
 الفقه ، وعلم أسباب النزول ، وعلم النّاسخ والمنسوخ ، وعلم الأحاديث المبيّنة لتغيّر المجمل
 والمبهم ، إلى جانب معرفة الوجوه والتّظائر ، ومعرفة الضمائر ومرجعها ...

وينبغي أن نعلم أنّه يُحْمَدُ التّفقه في الدّين والسّؤال عن العلم ومعرفة العُكُل إذا كان
 للعمل لا للمرء والجدل ، ويحمد إذا كان لزيادة الإيمان لا لتفريق القواعد والأركان ، ويحمد
 إذا كان لتصحیح العقائد لا لتأييد مذهب أو إثبات معتقد ، فخير السّؤال ما ورث علماً نافعاً ،
 وخير العلم ما ورث عملاً صالحاً .

كذلك فإنّه يُحْمَدُ أن تحدّث النّاس بما يعلمون لا بما يشبه عليهم وينكرون ، وما
 أحسن قول عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - : " حدّثوا النّاس بما يعرفون ؛ أمحبّون أن
 يُكذّب الله ورسله؟! " (٢) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٥/ص ١٦٦) كتاب تفسير القرآن .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (١م/ج ١/ص ٤١) كتاب العلم . وبدأ به البخاري مُعلّقاً في باب من
 خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا ، ثم ذكر السنن من طريق أبي الطّفيل ، وهو عامر بن
 واثلة الليثي - رضي الله عنه - آخر الصّحابة موتاً .

آية أن القرآن وحيُّ الله وكلامه سلامته من التناقض والتضاد لفظاً ومعنى

سلامة القرآن الكريم من التناقض والتضاد في الألفاظ والمعاني دليل قاطع على أنه وحي الله وكلامه ! والقارئ المتدبر في كتاب الله تراه من دقة لفظه ومعناه خاشعاً من خشية الله ، فمن أسراره الدقيقة التي قلَّ من يلحظها حُسْنُ التقديم والتأخير في الألفاظ والمعاني ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ... ﴾ (١١١) [آل عمران] والآية تتحدّث عن صفات أولي الألباب أتهم يداومون على ذكر الله باللسان والجوارح والأركان في جميع الأحوال : ﴿ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ... ﴾ (١١١) [آل عمران]، وهذا في حالة الصّحة والقوّة ، ولذلك انظر كيف جاء الترتيب ، الذّكر في حالة القيام ، ثم في حالة القعود ، ثم في حالة الاضطجاع .

وقد جاء الأمر عكس ذلك في حالة المرض قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّمُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ... ﴾ (١١٢) [يونس] فجاء الذّكر في حالة الاضطجاع أولاً ، ثم القعود ، ثم القيام ، ليتناسب مع حالة الإنسان حال مرضه تيسيراً وتسهيلاً ، وهذه واحدة من لطائف القرآن التي تأسر الجنان !

ومن عجيب نظمه أنّ العرب كانت تستخدم الاسم لغرض الدلالة على الثبوت والاستقرار والاستمرار من غير دلالة على الزّمان ، وتستخدم الفعل للدلالة على الحدوث والتجدّد مقيداً بأحد الأزمنة الثلاثة بطريق الاختصار ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر . فلو قال قائلهم : زيد صادق . لكان الغرض الدلالة على ثبوت زيد على الصدق واستمراره عليه من غير دلالة على الزّمان . ولو أرادوا خلاف ذلك لقالوا : زيد يصدق . فالفعل يصدق يفيد تجدد الصدق مرّة بعد أخرى مقيداً بالزّمان وكأنّه لا يصدق دائماً .

وقد جرى القرآن الكريم على نحو ذلك ، غير أنّ القرآن إذا تتبعت آياته ورأيت كيف جاء التعبير بالفعل والاسم ، عرفت معنى قول الله حكاية على لسان الجنّ : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (١) [الجن] .

ومن الأمثلة : قول الله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ... ﴾ (١٦) ﴿ [التحل] فقد استعمل الفعل ﴿ يَنْفَدُ ﴾ لأنه يدل على انتهاء ما يملكه البشر ويتجدد برزق الله لهم ، واستعمل الاسم ﴿ بَاقٍ ﴾ ليدل على استمرار بقاء ما عند الله .

قلت : ولم يقل الله تعالى : وما عند الله يبقى ؛ إذ لو قال ذلك لأفاد أن بقاء ما عند الله مقيّد بزمن ، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) ﴿ [النساء] فهذه واحدة من الأسرار اللغوية العجيبة في التراكيب .

ويتضح الفرق في الخطاب بين الاسم والفعل في قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (٢) ﴿ [فاطر] فلو قيل : (رازقكم) هكذا باسم الفاعل لَفَاتَ ما أفاده الفعل من تَجَدُّدِ الرَّزْقِ شيئاً بعد شيء ، ولهذا جاءت الحال في صورة الفعل المضارع لدلالته على التجدد والحدوث . وأوضح من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ (١٦) ﴿ [يوسف] ولم يقل : (باكين) لأن الفعل المضارع أفاد تجديدهم للبكاء شيئاً بعد شيء ، وهذا سرُّ الإعراض عن اسم الفاعل .

دعوى الاختلاف في الحديث الشريف

وزعموا أنّ هناك تعارضاً بين الحديث الشريف والقرآن الكريم ، مثل ما رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : " قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْتَ ، قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ " (١) .

قالوا : كيف الجمع بين حديث صحيح صريح نصّ على أنّ الإنسان لا يدخل الجنة بعمله ، وآية في كتاب الله تعالى تقرّر أنّ الإنسان يدخل الجنة بعمله ، قال تعالى : ﴿ أَدْخُلُوا

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/٩٧ج/١٧ص/١٦٠) كتاب صفة القيامة .

الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ [النحل].

والحقيقة أنه لا تعارض بين الحديث والآية لاختلاف محملي الباءين في كل منهما ، فالباء في قوله تعالى : ﴿ آذِلُّوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ [النحل] ومثلها في قوله تعالى : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ [الأعراف] تفيد السببية ، فإنه يصح أن دخول الجنة بالأعمال ، أي بسببها ، ولا يعدو هذا أن يكون رحمة من الله وفضلاً ؛ فما وُفق عبداً للعمل بأسباب التجارة ، وما هُدي إلى العمل الصالح الذي جعله الله تعالى سبباً لدخول الجنة ، إلا برحمته سبحانه وتوفيقه !

أمّا الباء في الحديث الشريف : " لن ينجو أحد منكم بعمله " فهي تفيد المقابلة ، وهي الداخلة على الأعواض ، والمعنى أن العبد عليه ألا يعترّف بعمله ، وألا يرى أن عمله أو جب له الجنة على الله ، أو أن الجنة وجبت له عوضاً عن عمله ، أو مقابل عمله ، فلو وُزنت أعماله كلّها مقابل نعمة من نعم الله لرجحت بها ، وبهذا يندفع الإشكال .

وقد ذكر ابن هشام في " معني اللبيب " (١) وغيره في غيره أربعة عشر معنى لحرف الجرّ الباء المفردة ، فينبغي لطالب العلم أن يتعرّف حروف المعاني أو أشهر معاني الحروف ، وما أكثر الذين صنّفوا في هذا الضرب ! ولكن ما أقلّ القراء !

وزعموا أنّ هناك اختلافاً بين الأحاديث نفسها ، وساقوا على فساد دعواهم ما رواه مسلم عن عديّ بن حاتم : " أنّ رجلاً خطبَ عند النبيّ ﷺ ، فقال : مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصها فقد غوى ، فقال رسول الله ﷺ : بنس الخطيب أنت ! قُل : ومَنْ يعص الله ورسوله فقد غوى " (٢).

وقالوا : أنكر على خطيب من خطباء العرب أنّه جمع لفظ الله ورسوله في الضمير ، وذلك شيء مُستكرهٌ ، فكيف يصحّ حديث جمع فيه بينهما - عليه الصلاة والسلام - ، وذكروا

(١) ابن هشام "معني اللبيب" (١م / ١١٩ ص) والنزاجي "حروف المعاني" .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٣م / ٦ج / ١٥٩ ص) كتاب الجمعة .

قوله ﷺ " أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " (١) .

والحاصل أن سبب إنكاره على الخطيب تشريكه في الضمير ، لأن ذلك يقتضي التسوية بينهما ، وخشي على الرجل أن يكون معتقداً ذلك ، والنبي ﷺ آمن من ذلك ، كذلك نهاه لأن حُطِبَ الوعظ شأنها البسط والإيضاح ، والنبي ﷺ تَنَى الضمير لأنه ليس في مقام الخطبة والوعظ ، وإنما هو تعليم حُكْمٍ ، وكلما قَلَّ لفظُه كان أقرب إلى حفظه ، بمثل هذا أجاب علماءنا .

وزعموا أن هناك اختلافاً في الحديث الواحد ، وذكروا قول النبي ﷺ : " لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صَفَر ، وفِر من المجذوم كما تفر من الأسد " (٢) قالوا : النبي ﷺ ينفي أن تقع عدوى ، أو أن تكون هناك عدوى ، ثم يأمر بالفرار من المصاب بالجذام ! وهذا أغرب ما سمعنا !

ولا يخفى أن المراد بقول النبي ﷺ : " لا عدوى " أي لا عدوى تقع بذاتها ، فالعدوى ليست علّة فاعلة ، وإنما تقع بقدر الله .

والنبي ﷺ لما قال ذلك إنما يريد نفي ما كانت الجاهلية تعتقده من أن المرض والعلّة تُعدي طبعها لا بأمر الله ، ويشهد لذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة حين قال رسول الله ﷺ : " لا عدوى ولا صَفَر ولا هامة ، فقال أعرابي : يا رسول الله : فما بال الإبل تكون في الرَّمْل كأنها الطّباء ، فيجيء البعير الأجر ، فيدخلُ فيها ؛ فيجربها كلها ؟! فقال ﷺ : فَمَنْ أعدى الأول ؟ " (٣) .

قالوا : وكيف يصحّ حديث عن رسول الله ﷺ يقول : " الوائدة والمؤودة في النار "

(١) رواه البخاري عن أنس - رضي الله عنه - " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/٥٦) كتاب الإكراه ، وأخرجه في كتاب الإيمان ، وكتاب الأدب .

(٢) البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - " صحيح البخاري " (٤م/٧ج/١٧) كتاب الطّب .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٧م/١٤ج/١٣٢) كتاب السلام .

والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير].

قلنا: هذا الحديث مشكل لأنه لم يُروَ بتمامه ، ومن قرأه من ألفه إلى يائه يستطيع أن يوفق بين ظاهره وحقيقته ، وينقطع الإشكال عنده ، فقد أخرجه أحمد بسند صحيح عن سلمة بن يزيد الجعفي ، قال : " انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ ، قال : قلنا : يا رسول الله ، إن أمنا مليكة كانت تصل الرحم ، وتقري الصيف ، وتفعل وتفعل ، هلكت في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ قال : لا . قال : قلنا : فإتها كانت وأدت أختاً لنا في الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئاً ؟ قال : الوائد والمؤودة في النار إلا أن تُدرِكَ الوائد الإسلامية ، فيغفر الله عنها " (١) .

قالوا : وكيف يصح حديث عن عائشة ، قالت : " دخل على رسول الله ﷺ رجُلان فكلماه بشيء - لا أدري ما هو - فأغضباه ؛ فلعنهما وسبهما " (٢) قالوا : فقد ثبت أن النبي ﷺ قال : " إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة " (٣) ، وقال : " إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة " (٤) ، وقال أنس : " لم يكن رسول الله فاحشاً ولا لعاناً ولا سبباً ، كان يقول عند المعتبة : ماله ترب جبينه " (٥) .

قلنا : ومن عرف تنمة الحديث الذي اعترضوا به أنحلَّ عنده هذا الإشكال ، فقد رواه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " دخل على رسول الله ﷺ - رجُلان فكلماه بشيء - لا أدري ما هو - فأغضباه ؛ فلعنهما وسبهما ، فلما خرجا ، قلتُ : يا رسول الله ، من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان ، قال : وما ذاك ؟ قالت : قلتُ : لعنتهما وسببتهما ،

(١) أحمد " المسند " (ج ١٢ / ص ٣٧٥ / رقم ١٥٨٦٦) وقال المحقق : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . وهو في " السنن الكبرى " للنسائي (ج ٦ / ص ٥٠٧) سورة التكوير .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م / ج ١٦ / ص ١٥٠) كتاب البر والصلة .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٧ / ص ٨٤) كتاب الأدب .

قال : أو ما علمت ما شارطت عليه ربي ، قلت : اللهم إنا أنا بشر فأبي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرأ^(١) .

والحديث فيه تقييد المدعو عليه أن يكون مسلماً ، وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين ولم يكن دعاؤه لهم زكاة وأجرأ .

وقد أخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك وفيه تقييد آخر بأن يكون من دعا عليه بدعوة ليس لها بأهل ، قال ﷺ : " فأبنا أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاةً وقربةً يُقرَّبُ بها منه يوم القيامة " (٢) .

فإن قيل : كيف يدعو ﷺ على من لا يستحقُّ الدعاء عليه أو يسبُّه ونحو ذلك !؟ فالجواب أن للعلماء أفتواً ملخصها : أن المراد بقوله ﷺ : " ليس لها بأهل " أي عند الله في باطن الأمر ، ولكنّه في الظاهر مستوجب للدعاء عليه ، فالتبنيُّ ﷺ يحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر .

وقيل : كان ﷺ لا يغضب لنفسه وإنما يغضب لله ، فيحمله غضبه على التعجيل في معاقبة مخالفه أو الدعاء عليه ، ويؤيد ذلك قول عائشة - رضي الله عنها - : " والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرما لله ، فينتقم الله " (٣) ، وعلى ذلك فقوله ﷺ : " ليس لها بأهل " من جهة تعين التعجيل ، وترك الصّح عنه .

وقيل : المراد زجر المدعو عليه والمبالغة في ردِّعه ونهيه واستعظام أمره ، وأنه ﷺ بشر فيكون هذا بباعث البشريّة ، وقد صرح عن ذلك في غير حديث ، وهو موافق ومبين لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ... ﴾ [الكهف] .

وقيل : جرى على لسانه ﷺ بلا قصد ، أي ليس المراد الدعاء عينه ، بل هو دعاء في

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٦ ج/١٥٠) كتاب البرّ والصّلة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٦ ج/١٥٥) كتاب البرّ والصّلة .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ ج/١٦) كتاب الحدود .

ظاهره ولكنّه في الحقيقة لا يقصد به الدّعاء ، وإنّما هو من الكلام الجاري على ألسن العرب يقولونه ، وهم لا يريدون الدّعاء على المخاطب ، ونظير ذلك ، قولهم : قاتلك الله ! وويلك ! وويحك ! ولا أب لك ! وثكلتك أمك ! ولا أم لك ! وتربت يداك ! ونحو ذلك من الألفاظ التي ظاهرها الذّم والدّعاء ، وباطنها المدح والثناء .

فخاف ﷺ أن يصادف الدّعاء إجابة ؛ فسأل الله أن يجعل دعاءه رحمةً وقربةً وطهوراً وأجراً . واستدلوا على ذلك بدعاء النبي ﷺ على يتيمة أم سليم وهي أم أنس فقد رآها ﷺ فقال : " أَنْتِ هِيَ؟ ^(١) لَقَدْ كَبِرْتَ ، لَا كَبِرَ سُنُّكَ " ^(٢) .

ثمّ أعقب مسلم هذا الحديث بحديث فيه دعاء على معاوية - رضي الله عنه - ، وهو قوله ﷺ : " لَا أَشْبَعُ اللَّهَ بطنه " ^(٣) وقد حتمّ به الباب دلالة على أنّها بمعنى واحد ، فكما أنّ الدّعاء على اليتيمة لها زكاة وقربى ، فكذلك معاوية - رضي الله عنه - إذ ليس المقصود الدّعاء عليه ، وإنّما الدّعاء له . قال النووي : " وقد فهم مسلم - رحمه الله - من هذا الحديث أنّ معاوية لم يكن مستحقاً للدّعاء عليه ، فلهذا أدخله في هذا الباب ، وجعله غيره من مناقب معاوية ، لأنّه في الحقيقة يصير دعاء له " ^(٤) .

وبعضده قوله ﷺ لأمّ المؤمنين صفية - رضي الله عنها - : " عَقَرَى حَلَقَى " ^(٥) والمعنى الظاهر : عقر الله جسدها وأصابها بوجع في حلقها ، والمعنى المراد الدّعاء لها لا عليها ، قلت : وهو أشبه بالتورية ^(٦) من جهة إرادة المعنى الآخر .

(١) الهاء هاء السكت .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٦/ص ١٥٤) كتاب البرّ والصلّة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٦/ص ١٥٦) كتاب البرّ والصلّة .

(٤) المرجع السابق .

(٥) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج ٨/ص ١٥٣) كتاب الحجّ .

(٦) التورية : هي الكلمة تحتل معنيين فيستعمل المتكلم أحد احتمالها ويحمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله .

وكان ﷺ يومها يريد الرجوع إلى المدينة ، فقالت صفيّة - رضي الله عنها - : " ما أراني إلاّ حابستكم " تريد أن تنتظر طهرها لتطوف الوداع ، وظنت أنّ طواف الوداع لا يسقط عن الحائض ، فقال ﷺ : " عَفَرَى حَلَقَى ، أو ما كُنْتِ طُفْتِ يوم النَّحْرِ ؟ قالت : بلى ، قال لا بأس انفري " (١) .

ويعضده قوله ﷺ : " لَأَمْ سَلَمَةَ : " تَرَبَّتْ يَمِينُكَ " أي افْتَقَرْتِ ، وليس المراد المعنى الأصلي لها ، وإنّما المراد الزجر والدعاء لها ونحو ذلك ، وكانت أمّ سليم والدة أنس بن مالك قد جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : " يا رسول الله ، إنّ الله لا يستحيي من الحقّ ، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت ، قال النبيّ ﷺ : إذا رأت الماء ، فغَطَّتْ أمّ سلمة - تعني وجهها - ، وقالت : يا رسول الله ، وتحتلمُ المرأةُ؟! قال : نعم تَرَبَّتْ يَمِينُكَ ، فبم يشبهها ولُدّها " (٢) .

واستهلّت أمّ سليم حديثها بقولها " إنّ الله لا يستحيي من الحقّ " تريد أن تَبْسُطَ عُدْرَهَا في السّؤال عمّا تتحرّج النساء عن السّؤال عنه ، ولهذا قالت لها عائشة - رضي الله عنها - : " فَضَحْتَ النساءَ " (٣) ولذلك فمن حَكَمَ تعدّد زوجات النبيّ ﷺ رَفَعُ الحَرَجِ عن النساء - ، فقد تولّت نساء النبيّ ﷺ تعليم نساء المؤمنين .

ومن الجدير ذكره أنّ استشكال النّص في الكتاب والسّنة إنّما جاء ليتمتحن الله تعالى به النفوس ، وليمحصّ به القلوب ، ولييسّر الله تعالى للعلماء ما يرفع لهم به الدّرجات ، فما من مسألة ولا شبهة أُثِرَتْ إلاّ وقد أجاب عنها علماءنا السّلف قبل الخلف ، لعلّهم يهتدون ، أو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ ﴿ ١٣٣ ﴾ [طه] لكنّ المرجفين يقرؤون الشُّبهات ويثيرونها

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج٨/ص١٥٣) كتاب الحجّ . والبخاري في " صحيح البخاري " (١م/ج٢/ص١٥١) كتاب الحجّ .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (١م/ج١/ص٤١) كتاب العلم .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/ج٣/ص٢٢٤) كتاب الحيض .

ويزهدون في الإجابات ويحبّونها ! أو كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس].

دعوى أن الحديث الشريف يعارض جزم القرآن بمستقبل الإسلام

هناك من يرسم صورة قائمة لمستقبل الإسلام والمسلمين ، ويصور أن هذه الأمة قدرها ألا تنهض ، وأن تعيش على أجماد الماضي ، ويؤصّل ذلك على أحاديث شريفة ، يسوقها على ظاهرها ، بعد أن أشكل عليه فهمها ، ليعارض بها جزم القرآن بمستقبل الإسلام من جهة ، ويقتط الناس من الخير من جهة أخرى ، وشرّ الناس الذين يقتطون الناس من رحمة الله .

ومن هذه الأحاديث التي يثيرونها ما رواه البخاري عن الزبير بن عديّ ، قال : " أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : " اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرّ منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ " (١) .

ويظنون أن الصحابيّ أنس - رضي الله عنه - فهم التعميم ؛ بدليل أنه يخاطب جماعة من التابعين ، والمعنى في ظنهم أنّ كلّ زمان لا بدّ أن يكون ما بعده شرّ منه إلى قيام الساعة ، وهذا كلام يورث اليأس في النفوس !

والجواب ، ما الذي يمنع أن يكون من بين الذين شكوا لأنس صحابة ، وأنه كان يعينهم ؟! فإنّ عصر الحجاج بن يوسف كان فيه غير صحابيّ من أصحاب رسول الله ﷺ ، وعلى ذلك فالحديث ليس على عمومته ، وإنّما يختصّ بالصحابة ، فأما من يأتي بعدهم فلم يُقصد في الخبر .

ولعلّ ما يؤيد ذلك أنّ عصر عمر بن عبد العزيز ، وهو بعد زمن الحجاج بقليل لا يفصل على زمن الحجاج ، مع أنّ زمن عمر قد اشتهر فيه الخير وكثر ، غير أنّه لم يكن في عصره أحد من أصحاب رسول الله ﷺ .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/ ص ٩٠) كتاب الفتن.

والحديث يُحمل على غير هذا المعنى ، فلعلماثنا فيه أقوال أحر تستحق أن تُطلب من مظانها ، ولكن يستفاد من الحديث أنّ النبي ﷺ يجبر بتغير الأحوال وفسادها بعد عصر الصحابة - رضي الله عنهم - ، فهو من أعلام النبوة ؛ لأنّ ذلك من الغيب الذي لا يعرف بالعقل والرأي وإنما يعرف بالنقل والوحي .

ويؤيد المعنى الذي ذهبنا إليه من أنّ الحديث لا ينصّ على أنّ كلّ زمان ما بعده شرّ منه قطعاً إلى قيام الساعة ، أنّه سيأتي زمان أفضل من كثير من الأزمنة المتقدمة ؛ فقد أخبر ﷺ أنّه ستكون خلافة على منهاج النبوة ، قال - ﷺ : " ... ثمّ تكون مُلكاً جبريّة فتكون ما شاء الله أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثمّ تكون خلافة على منهاج النبوة " (١) .

ومن الأحاديث التي يسوقونها لتعيش هذه الأمة في يأس قوله ﷺ : " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء " (٢) والحديث ليس فيه شيء يوهم بما ذهبوا إليه من أنّ مصير الإسلام إلى ضعف ؛ فالمعنى أنّ أهل الإسلام أوّل الأمر كانوا قلة ، وهم في آخر الزمان كذلك إلاّ أنّهم خيار " (٣) .

قلتُ : وكثرة المسلمين أو قتلهم لا تعني قوّة للإسلام ولا ضعفاً ؛ فالإسلام دين الله تعالى ، ودين الله منصور بخيار هذه الأمة على قتلهم بإذن الله إلى قيام الساعة .

والحديث فيه بشارة إلى استمرار هذا الدين إلى آخر الزمان ، وأنّ الذين يشهدون غربّة الإسلام ويتمسكون به لهم منزلة عظيمة عند الله تعالى !

ولا أعلم حديثاً صحيحاً يُفهم منه أنّ النبي ﷺ يدعو الأمة إلى القنوط ، فلا يُصوّر ذلك ، وقد أنزل عليه وعد الله للمؤمنين - عموم المؤمنين - بالنصر : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٧] [الروم] والنجاة : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا

(١) أحمد "المسند" (ج١٤/ص١٦٣/رقم١٨٣١٩) وإسناده صحيح .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (م١/ج١/ص١٧٦) كتاب الإيمان .

(٣) انظر "تأويل مختلف الحديث" ابن قتيبة (ص١٠٩) .

عَلَيْنَا نُجِجَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [يونس] والدِّفَاع عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴿٣٨﴾﴾ [الحج] والولاية لهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا... ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة] والمعية: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال] والاستخلاف في الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا... ﴿٥٥﴾﴾ [النور].

ولا يتصور أنّ النبي ﷺ يدعو إلى اليأس وقد أنزل الله عليه وعده بإحباط كيد الكائدين: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُمْ رَوِيدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق] ورد مكر الماكرين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

كما أنّ هناك آيات كثيرة جازمت بانتصار الإسلام ، والتّمكن له ، وإظهاره على الدّين كلّهُ ، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة] ووردت هذه الآية في سورة الصّف باللفظ نفسه ، ووردت في سورة الفتح بلفظ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

كما جازمت الآيات بأنّ الكفر إلى زوال لا محال، وأنّ الغلبة لهذا الدّين: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَّيْسَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَنَحْمُسُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ رَبِّسَ الْوِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران] وأنّ أعداء الإسلام لن يفلحوا ، وأنّ العاقبة للمؤمنين ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام].

ولكن لا بُدَّ من عقبات وكبوات ، ولا بُدَّ من تنغيص وتمحيص ، ولا بُدَّ من بأساء
 وضراء : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
 الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ
 ﴿١١٤﴾ [البقرة] .

ومتى كانت هذه الأمة على ما كان عليه النبي ﷺ من نُصرة لدين الله تحقّق لها وَعُدُّ
 الله بالنصر : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُنِيبَتْ أَقْدَامُكُمْ ﴾ [محمد] .

دعوى أن الحجّ أشبه بالوثنية

قالوا : يطوف المسلمون حول حَجَر ، ويسعون بين حجّرين ، ويصعدون إلى عرفة
 فيقعدون على حَجَر ، ثم يفيضون إلى مزدلفة فيلتقطون حجارة ليضربوا في منى حجراً
 بحجر ، قالوا : والأغرب أنهم يقبلون حجراً ويضربون حجراً آخر ! وهذا كله أشبه بالوثنية .
 هذه الشبهة سمعتها أوّل مرّة في صعيد عرفات من أحد الفضلاء ، ولم أسمع الإجابة
 عنها ، فطاش عقلي ؛ كيف خطرت هذه الشبهة على بال شياطين الإنس !

ونقض هذه الأضاليل لا يحتاج إلى جهد جهيد أو عناء مُعَنَى ، فالله تعالى فرض علينا
 الحجّ في العمر مرّة ، وقد ثبتت فرضيته في الكتاب والسنة وإجماع الأمة : أمّا الكتاب ، فقوله
 تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ ﴾ ﴿١٧﴾ بالله وبها فرضه
 من الحجّ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعِنْدَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ [آل عمران] ومن السنة ، قوله ﷺ : " قد فرّض
 الله عليكم الحجّ فحجّوا " (١) وقوله ﷺ " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ
 محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحجّ البيت ، وصوم رمضان " (٢) .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٥م/٩ج/١٠٠ ص) كتاب الحجّ .
 (٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م/١ج/١٧٧ ص) كتاب الإيمان . والبخاري " صحيح
 البخاري " (١م/١ج/٨ ص) كتاب الإيمان .

فالحجّ ركن من أركان الإسلام ودعائمه العظام نقوم بمناسكه طاعةً لله لأنّ الله أمر بذلك ، ونؤدّيه أتباعاً لسنة نبيّه ﷺ لأنّه فعل ذلك ، فقد ثبت عنه ﷺ أنّه قال : " لتأخذوا مناسككم فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجّتي هذه ^(١) واللام في " لتأخذوا " : لام الأمر . والتقدير : خذوا عني حياة الحجّ وصفته من أقوال وأفعال . وهذا الحديث أصل في مناسك الحجّ ومشروعيتها ، فنحن المسلمين لا نعبد الله إلاّ بما أذن به على لسان نبيّه .

ونحن لا نعظم هذه الأماكن ، وإنّا نعظم أمر الله ورسوله ، وهذا عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - يردّد على هذه الشبهة منذ قرون ، ويعلم المشركين أنّ المسلمين لا يستلمون الحجر الأسود من باب تعظيمه كما فعلت العرب في الجاهليّة ، وإنّما هو من باب الاتّباع لفعل رسول الله ﷺ ، أخرج البخاري عن عابِس بن ربيعة ، عن عمر - رضي الله عنه - أنّه جاء إلى الحجر الأسود فقبّله ، فقال : " إنّي أعلم أنّك حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أنّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبّلك ما قبّلتك " ^(٢) فالحجر بذاته لا ينفع ولا يضرّ إلاّ بإذن الله ، والذي ينفع عند الله هو امتثال أمر الله والاستئنان بنبيّه محمد ﷺ .

وعمر - رضي الله عنه - إنّما قال ذلك دفعاً لما كان عليه أهل الجاهليّة من اعتقاد في عبادة الأوثان ، فنصّ على أنّ تقبيل الحجر ليس عبادةً له ، وإنّما هي عبادة لله تعالى باتّباع أمر الله ورسوله ﷺ . فلا يقصد من استلامه إلاّ تعظيم أمر الله والأخذ بسنة نبيّه ﷺ ، ولولا الاقتداء برسول الله ﷺ ما قبّله عمر - رضي الله عنه - وما تابعه المسلمون .

وقول عمر وفعله - رضي الله عنه - يُؤخذ منه بيان السنن المشروعة ومتابعتها والحثّ على الاقتداء بها ، فهي حجّة على من بلغته وإن لم يفقه عللها . كما يُؤخذ منه حُسن السَّمع والطّاعة لأمر الله ورسوله ﷺ في أمور الشّرع ، وحسن الاتّباع للنبيّ ﷺ حتّى لو خفيت علينا الحكمة من وراء هذه الأمور .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٥م/٩ج/٤٤) كتاب الحجّ .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (١م/٢ج/١٦٠) كتاب الحجّ .

ومن حِكْمٍ مشروعِيَّةٍ استلام الحجر الأسود زيادة على ما تقدّم ما بيّنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ :
 "لِيَعْتَنَ اللهُ الحَجَرَ يومَ القِيَامَةِ وله عَيْنَانِ يبصرُ بهما ولسانٌ ينطقُ به يشهدُ لمن استلمه بحقٌ" (١)
 وقول النَّبِيِّ ﷺ هذا موافق لقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ ﴾ [الزلزلة] فالحجر
 الأسود قطعة من الأرض وسوف يحدث أخباره .

ولا شكّ أنّ الحجارة تتفاضل كما تتفاضل المساجد والأماكن والشهور والأيام
 والليالي... وليس لنا من الأمر شيء ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ
 وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب]
 فإذا أمرنا أن نستلم حجراً استلمناه ، وإذا أمرنا أن نضرب بحجر فعلنا ، وإذا
 أمرنا الله تعالى أن نستقبل قبلة استقبلناها ، وإذا أمرنا أن نتحوّل عنها إلى قبلة أخرى سمعنا
 وأطعنا ؛ فهذا من كمال الإيثار وتمام العبودية لله وحده .

ومهما قيل حول حكمة مشروعِيَّةٍ هذه المناسك فالقول الفصل أنّها أمورٌ تعبديةٌ يجب
 التسليم فيها للشّارع نؤدّيها طاعة لله تعالى وتعظيماً لأمره .

(١) أحمد " المسند " (ج ١٣ / ص ١٨٧ / رقم ٢٦٤٣) بإسناد صحيح عن ابن عباس .

المبحث الثاني

" أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها "

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴾ [المجادلة]

رضيهم الله لدينه ، أفلا نرضاهم لدنيانا !؟

في كتاب الإيمان باب بعنوان (علامة الإيمان حبّ الأنصار) أورد فيه البخاري حديثاً عن عبد الله بن جابر قال : سمعت أنساً - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : " آية الإيمان حبّ الأنصار وآية النفاق بُغْضُ الأنصار " (١).

قلت : وإن كان المراد في الحديث الشريف الصحابة من أهل المدينة ، إلا أنّ الصحابة كلهم أنصار لله ورسوله ﷺ ؛ فالمهاجرون كانوا أنصاراً لله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر].

وعقيدتنا أنهم عدول لا نفرق بين أحد منهم ، بل نتبعهم بإحسان ؛ لننال رضا الله ، فهذا واجب كلّ مسلم ﴿ وَالسَّيِّئَاتُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴾ [التوبة].

وقد أوجب الله علينا الدعاء والاستغفار لهم ، وألا يكون في قلوبنا غلٌّ على أحد منهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر].

(١) البخاري "صحيح البخاري" (١م/ج١/ص١٠) كتاب الإيمان.

واعجب كيف يذكرهم أقوام بسوء وهم يقرؤون كلام الله تعالى ! حتى الصديق - رضي الله عنه - لم يسلم من ألسنتهم ، مع أنه لا يتقدم عليه بالفضل أحد إلا الأنبياء والمرسلون ! فما طلعت الشمس ولا غربت بعد التبيين والمرسلين على رجل أفضل منه ، رجل سلم من عتاب الله تعالى ، بل وامتدحه في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ... ﴾ [٤٠] ﴿ [التوبة] .

والذين يظنون ظنّ السوء ببعض أصحاب النبي ﷺ ويجرحونهم فريقان : فريق جاهل ، وفريق مقلد لأبائه وأجداده ، وليس للفريقين عذر عند الله ؛ فالجاهل بالصحابة وقدرهم لا يعفي أحداً من السؤال أمام الله ، فقد نبه الله تعالى كل أحد عن أن يقول ما ليس له به علم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [٣٦] ﴿ [الإسراء] .

والتقليد الذي هم عليه ، وإمهال الله لهم ليس دليلاً على رضا الله عنهم : ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [١٤٨] ﴿ [الأنعام] .

وإذا تقرر أن الله نبه عن أتباع الإنسان ما ليس له به علم ؛ فلا يكون لمخلوق أن يرمي أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ بما لم يوقن أنه فيه ، ولا أن يحكم عليه بالظن : ﴿ إِنْ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا... ﴾ [٣١] ﴿ [يونس] .

فالحكم بالظن لا يجل ، قال تعالى ذاماً لأقوام : ﴿ إِنْ نَظُنُّهُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ ﴾ [٣٢] ﴿ [الجنائفة] وقال تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [٣٠] ﴿ [الزخرف] وقال تعالى : ﴿ قُلْ الْخُرُصُونَ ﴾ [١٦] ﴿ [الذاريات] ، وقال تعالى : ﴿ اجْتَبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ... ﴾ [١٢] ﴿ [الحجرات] وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا

تَهْوَى الْأَنْفُسُ ... ﴿٢٣﴾ [التَّجْم].

فمن قدح في الصحابة بعد أن جاءه من ربه الهدى ، متمسكاً بحجج واهية تمسك الرضيع بالظئر ، فأمره إلى الله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ [البقرة] وكل من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً ؛ وإنما كلف الإتيان برهان تبكيها وتيئساً !

وليس عذراً التقليد ، فالتقليد الأعمى ذم الله به الكفار في غير آية ، ومن الآيات التي نعت هؤلاء المقلدين ، وذمت طريقتهم ، قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْزُبُونَ عَنْهُمْ وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ سُلْطَانٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَانْهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٢٢٢﴾ [الزخرف] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكلها تدل على منع التقليد ، وضلال متبعه سواء قلد محققاً أو مُبطلاً ؛ فالمقلد قد هياً نفسه أن يتبع سبيل التقليد بعصبيّة مقيته ، وصدق الله إذ قال : ﴿وَلَنْ تَطْعَمَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ ﴿١٣١﴾ [الأنعام].

قلت : وليس في كتاب الله تعالى آية تدل على عدم عدالة أحد من الصحابة ، ومن قال خلاف ذلك ، فهو من وضع القرآن في غير موضعه ، وتفسيره بغير معناه ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٨﴾ [الأحزاب].

ولربّ معترضٍ من هؤلاء الذين ما قدروا أصحاب النبي ﷺ حق قدرهم يحتج بآية أو حديث في إكفاره لهم ، فمنهم من يتعلل بقول النبي ﷺ : " ليردَّن عليّ الحوض رجال ممن صاحبي حتى إذا رأيتهم ورُفِعُوا إليّ اختلجوا دُوني ، فلاقولن : أي رب ، أصيحابي ،

أصْحَابِي ، فَلْيَقَالَنَّ لِي : إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ " (١).

ويظنون أنّ هذا الحديث الشريف يُدين أصحاب النبي ﷺ ، ويحيثون به كدليل يحتجون به على إكفارهم لأصحاب النبي ﷺ : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (٨١) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَيَخِرُّ لِعِبَالِ هَذَا ﴿١٠﴾ ﴿ [مريم].

والحديث صحيح رواه مسلم عن أنس بن مالك ، ورواه غيره بأسانيد وطرائق متكاثرة ، وهو عند البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : "... ألا وإنه يجاء برجال من أمّتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب ، أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة] فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أديارهم منذ فارقتهم " (٢).

وهذا الحديث من أعلام النبوة لإخبار النبي ﷺ عن أقوام يرتدون على أديارهم بعد موته ، وهم الأعراب المنافقون الذين ارتدوا في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - ، ويدلّك على ذلك ما وقع في رواية البخاري " فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أديارهم منذ فارقتهم " ويدلّك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْأَيْتَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدِ بِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠١) [التوبة].

وأصحاب النبي ﷺ غير معنيين بالحديث أو الآية ، ولعمري إنهم خيرٌ من ملء الأرض من هؤلاء الذين يذكروهم بسوء ، فيغدون في سخط الله ويروحون في نعمته ! والصحابة - رضي الله عنهم - أحبُّ إلى كلّ مؤمن من نفسه وآله وماله ! ولا أدري

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٥ ج/١٥ ص/٦٤) كتاب الفضائل .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/٥ ج/١٩١ ص/١٩١) كتاب تفسير القرآن .

كيف لا نرضاهم لدنيانا ، وقد رضيههم الله لدينه؟! هذا هو الحق ، ومن لم ينفعه الحق أضربه الباطل! أو كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَ تُصِرُّونَ﴾ ﴿٣٣﴾ [يونس] أي كيف تصرفون عن الحق والإيمان مع قيام الحجّة والبرهان!

ليس في أصحاب رسول الله ﷺ نخالة!

دخل الصحابي الجليل عائذ بن عمرو ذات يوم على عبيد الله بن زياد ينصح له ، ويبلغه العلم الذي عنده ، فكان ممّا نصحه به ألا يأخذ رعيته بالعنف بحيث يؤذيها ويحطمها بل يرفق بها ، فلما سمع ذلك كره مقالته ، ووصفه أنّه من نخالة أصحاب الرسول ﷺ وليس من فضلائهم ، فنصّ الصحابي الجليل عائذ - رضي الله عنه - على أنّ الصحابة كلّهم صفةٌ عدولٌ قدوة لا نخالة فيهم! وهذا من صادق الكلام الذي أدين الله به ، ويجب أن يتقاد له كل مسلم ؛ فهم المثني عليهم في التوراة والإنجيل والقرآن ، الذين غاظ الله بهم الكفار ، الذين ظاهرهم كباطنهم ، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ...﴾ ﴿١٨﴾ [الفتح] وقال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ [المجادلة].

روى مسلم عن الحسن ، أنّ عائذ بن عمرو - (وكان من أصحاب رسول الله ﷺ) دخل على عبيد الله بن زياد ، فقال: "أي بني ، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّ شرّ الرعاء الحطمة . فإياك أن تكون منهم . فقال له : اجلس ، فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ فقال : وهل كانت لهم نخالة ! إنّما كانت النخالة بعدهم ، وفي غيرهم"^(١).

قلت : وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : " وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها"^(٢) فمن أراد أن يدرك العافية فليكن على ما كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - فإنّ التشبه

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/ج ١٢/ص ٢١٥) كتاب الإمارة .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/ج ١٢/ص ٢٣٣) كتاب الإمارة .

وعلة النقص لا يجهلها مسلم ، فنقص العقل كون شهادة الرجل بشهادة امرأتين ، ونقص الدّين كون المرأة إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي . ونقص العقل والدّين في هذين الموضوعين (الشهادة والحيض) ليس موجباً نقص الفضل بالكلية ، فالتّاس يتفاضلون في غير ذلك .

وهذا الحديث الشريف خاطب فيه النبي ﷺ معشر النّساء ، ولم يخاطب فيه أمّهات المؤمنين ، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري ، قال :

" خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النّساء فقال : يا معشر النّساء تصدّقن فيّني أريتكنّ أكثر أهل النّار ، فقلنّ : وبمّ يا رسول الله ؟ قال : تكفّرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لبّ الرجل الحازم من إحدائكنّ . قلنّ : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلنّ : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تصم ؟ قلنّ : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها"^(١).

ما أحوج الأمة أن تعود نساؤها كأمّهات المؤمنين ! وما أحوجنا إلى جيل كأمثال الصّحابة ! وليس هذا على الله بعزيز . وليتحقق ذلك ، يجب أن تقرأ نساؤنا ما نزل بحق أمّهات المؤمنين وحقهنّ ، ويجعلنّه واقعاً في حياتهنّ ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (٣٢) وَقَدَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴿٣٣﴾ [الأحزاب] وقال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ... ﴾ (٣٤) [الأحزاب].

وقال تعالى خطاباً لنبية ﷺ : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ

(١) البخاري "صحيح البخاري" (١م / ج١ / ص٧٨) كتاب الحيض ، وأخرجه في كتاب الزّكاة. وأخرجه مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (١م / ج٢ / ص٦٥) كتاب الإيمان .

زَيْنَتَهُنَّ إِلَّا لِعُورَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّنَجِيعِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَمْ يَبْظُرُوا عَلَى عَوْدَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ... ﴿٣١﴾ [النور].

والمؤمنة حريصة على معرفة ما كان عليه السلف الصالح ، وما كانت عليه أمهات المؤمنين ؛ فلها فيهنّ بعد رسول الله ﷺ أسوة حسنة ! ولعمري إنّ الفقه في الدين علامة خير ، قال النبي ﷺ : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد].

ولا أدري كيف يجروّ أحد على رمي أمهات المؤمنين ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور] فما بالك إذا كانت المحصنة الغافلة المؤمنة أمّاً من أمهات المؤمنين ، وزوجة لسيد المرسلين ﷺ ، ومن آل بيته المطهرين !

الأدلة على أنّ أمهات المؤمنين من آل البيت

قال الله تعالى في حقّ أمهات المؤمنين وبيان فضلهنّ : ﴿ نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَقْبَبْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [٣٢] وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجنّ تبرج الجاهليّة الأولى وأقمنّ الصلوة وعاتينّ الزكوة وأطعنّ الله ورسوله إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركمّ تطهيراً ﴾ [٣٣] [الأحزاب].

هذه جملة من الآداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء المؤمنين تبعهنّ ، فقد أراد الله تعالى أن يجعلهنّ مثلاً صالحاً وأسوة حسنة للنساء من بعدهنّ فطهر ظاهرهنّ

(١) البخاري: " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/١٤٩) كتاب الاعتصام بالكتاب .

وباطنهنّ ، فمن يلوك بلسانه ويلوي بشدقه سيرة أمّهات المؤمنين اللاتي أذهب الله عنهنّ الرّجس وطهرهنّ تطهيراً فقد افتري ! فهذا نصّ صريح في دخول أزواج النّبِيِّ ﷺ في أهل البيت لأنّهنّ سبب نزول الآية .

أمّا من ذهب إلى أنّ أمّهات المؤمنين غير مخاطبات بالآية ، وأنّهنّ خرجن من أهل البيت بدليل أنّ الله تعالى ، قال : ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ولم يقل : عنكنّ ، وقال : ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ولم يقل : ويطهركنّ .

فالجواب أنّ المذكّر غلب على المؤنث ذلك أنّ النّبِيَّ ﷺ يدخل في أهل البيت ، ثمّ كيف لا يدخلنّ في أهل البيت والسيّاق كلّه في ذكرهنّ ؟!

فإن قالوا : لكنّ النّبِيَّ ﷺ نصّ على أنّ أهل البيت هم : الحسن والحسين ، وفاطمة وعليّ ، بدليل ما أخرجه الإمام مسلم عن صفية بنت شيبة ، قالت : قالت عائشة : " خرج النّبِيُّ ﷺ غداً وعليه مرطّ (كساء) مرّحلّ من شعر أسود ، فجاء الحسن بن عليّ ، فأدخله ، ثمّ جاء الحسين ، فدخل معه ، ثمّ جاءت فاطمة فأدخلها ، ثمّ جاء عليّ فأدخله ، ثمّ قال : إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ^(١) .

قلنا : فهل نصّ الحديث على أنّ هؤلاء الأربعة - رضي الله عنهم - هم أهل البيت وحدهم ؟! قطعاً الجواب لا ؛ فهناك أحاديث ثابتة بالتواتر القطعيّ الدلالة كإبراهيم عن رسول الله ﷺ أنّ أمّهات المؤمنين من آل بيته ، منها ما أخرجه مسلم عن أبي حميد السّاعديّ أنّهم قالوا : " يا رسول الله ، كيف نصليّ عليك ؟ قال : قولوا : اللهم صلّ على محمّد وعلى أزواجه وذريّته كما صلّيت على آل إبراهيم ، وبارك على محمّد وعلى أزواجه وذريّته كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد ^(٢) .

(١) مسلم : " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٥/ص ١٩٤) كتاب الصّحابة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/ج ٤/ص ١٢٧) كتاب الصّلاة ، والبخاري " صحيح =

وهذا الحديث احتج به العلماء ومنهم ابن عبد البرّ على أنّه مفسّر لقول النَّبِيِّ ﷺ :
 "قولوا : اللّهُمَّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد ، كما صلّيت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ ،
 اللّهُمَّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد ، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ"^(١).

ومنها قول النَّبِيِّ ﷺ ، وهو على المنبر : " يا معشرَ المسلمين ، من يعذرني من رجل قد
 بلغني أذاه في أهل بيتي؟! فوالله ما علمت على أهلي إلّا خيرا"^(٢) والمعنى من يقوم بعذري إن
 جازيت من آذاني في أهلي (عائشة) على قبيح صنعه ، وقيل المعنى : من ينصرني .

ومنها ما حدّث به زيد بن أسلم حصين بن سبرة ومن معه من أنّ النَّبِيَّ ﷺ قام
 يوماً خطيباً بباء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة ، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه كان ممّا قاله ﷺ :
 "وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما ، كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله
 واستمسكوا به ، فحثّ على كتاب الله ، ورغّب فيه ، ثمّ قال : وأهل بيتي أذكركم الله في أهل
 بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، فقال له حصين : ومَنْ أهل بيته يا
 زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرّم الصّدقة
 بعده ..."^(٣).

فنساء النَّبِيِّ ﷺ من أهل بيته الذين يساكنونه ويعولهم ، فإن قالوا : لكنّ النَّبِيَّ ﷺ نصّ
 على أنّ أهل بيته من حُرّم الصّدقة بعده ، وهم : " آل عليّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل
 عباس"^(٤).

= البخاري " (٤م/٧ج/١٥٦) كتاب الدّعوات .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/٤ج/١٢٧) كتاب الصّلاة .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/٥ج/٧) كتاب تفسير القرآن ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح
 النووي " (٩م/١٧ج/١٠٩) كتاب التّوبة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٥ج/١٧٩) كتاب فضائل الصّحابة - رضي الله
 عنهم - .

(٤) المرجع السّابق .

فالجواب، أن زوجاته أيضا ممن تحرم عليهن الصدقة ، قال ابن قيم الجوزية : " تحريم الصدقة على أزواج النبي ﷺ ليس بطريق الأصالة ، وإنما هو تبعٌ لتحريمها عليه ، وإلا فالصدقة حلال لمن قبل اتصاهن به ، فهن فرع في هذا التحريم " (١).

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري عن أنس - رضي الله عنه - : " ... فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله ، فقالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك ؟ فتقرى (فتتبع) حُجَرَ نِسائه كُلهن يقول هُنَّ كما يقول لعائشة ، ويُقَلْنَ له كما قالت عائشة " (٢).

المبرأة من الله عائشة صديقة الأمة وأم المؤمنين

قال رسول الله ﷺ " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه " (٣) فإذا كانت أعراض المسلمين محرمة علينا ، فحرمة أعراض أمهات المؤمنين أشد حرمة !

ويموت قلبك من كمد حين تعلم أن أقواماً تتقرب إلى الله بلعن أم المؤمنين عائشة ! ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَحُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ (٨٣) [الزخرف].

أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس المؤمن بطعان ، ولا بلعان ، ولا الفاحش البذيء " (٤).

(١) ابن قيم الجوزية " جلاء الإفهام " (ص ١٣٤) وقد كتب ابن قيم الجوزية فصلا تحت عنوان : من هم آل النبي ﷺ ؟ وذكر أنه اختلف في آل النبي - ﷺ - على أربعة أقوال ، وذكر هذه الأقوال وساق حججها ، وبين ما فيها من الصحيح والضعيف .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م / ج ٦ / ص ٢٥) كتاب التفسير .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م / ج ١٦ / ص ١٢٠) كتاب البر والصلة .

(٤) أحمد " المسند " (ج ٤ / ص ٥٥ / رقم ٣٨٣٩) ورواه الترمذي عن محمد بن يحيى الأزدي ، عن محمد بن =

كيف يخفى على هؤلاء أن الله تعالى أنزل عذرها من السماء في القرآن ، وأنها جعلت طيبة لطيب ، قال تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور] ﴿١٦﴾ وحيث كان النبي ﷺ أطيب الطيبين اتضح أن الصديقة بنت الصديق كانت من أطيب الطيبات ، وأنها بريئة بشهادة الله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾... ﴿١٦﴾ [النور] فهذا نص صريح على براءتها مما رماها به أهل الإفك .

ولا يخفى ما في اسم الإشارة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ من معنى البعد للإيدان بعلو رتبة المشار إليهم وشفهم ، والآية الكريمة تحمل على معان كثيرة مألها إلى تنزيه الصديقة بنت الصديق ، فما كان الله ليجعلها زوجة لأحب الخلق إليه لولا أنها طاهرة من سلالة طاهر .

فليحذر الذين يرمون عائشة - رضي الله عنها - ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور] فبراءة عائشة - رضي الله عنها - من الإفك براءة قطعية بنص القرآن الكريم ، وبأحاديث شريفة صحيحة ، لا سقيمة ولا معلولة ، فلا عذر لمرتاب أبداً !

ومن رمى عائشة - رضي الله عنها - فكأتما ترك كلام الله وراء ظهره ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور] ﴿١٧﴾ أورد القرآن الكريم ، لأن الله يقول : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [النور] ﴿١٧﴾ فمن وقع في ذلك فقد وقع بين مخالفة الله وردّ كلامه تبارك وتعالى .

أخرج البخاري عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : " ما تشيرون عليّ في قوم يسبون أهلي ما علمت عليهم من سوء قط " (١) .

= سابق في " الجامع الكبير " (٢م / ص ٥٢٠ / رقم ١٩٧٧) ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روي عن عبد الله من غير هذا الوجه .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ١٦٣) كتاب الاعتصام .

وعن عروة قال : " لما أُخْبِرَت عائشة بالأمر قالت : يا رسول الله ، أتأذن لي أن أنطلق إلى أهلي ؟ فأذِنَ لها ، وأرْسَلَ معها الغلام ، وقال رجل من الأنصار : سبحانك ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم " (١) .

ولا يخفى أنّ الطّعن في أمّنا عائشة - رضي الله عنها - القصد منه الطّعن في كتاب الله تعالى الذي برّأها ، والسّنة النبويّة التي روتها عن رسول الله ﷺ .

طرف من خصائص أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - الصّديقة بنت الصّديق
عائشة بنت أبي بكر الصّديق ، أمّها الصّحابيّة الجليلة أمّ رومان ، وُلِدَتْ عائشة بعد المبعث بأربع أو خمس سنين ، فقد ثبت أنّ النّبِيَّ ﷺ تزوّجها وهي صغيرة ، ومات عنها وهي صغيرة ، فقد أخرج مسلم عن الأسود ، عن عائشة ، قالت : " تزوّجها رسول الله وهي بنت ستّ " (٢) ، وبنى بها وهي بنتُ تسع ، ومات عنها وهي بنتُ ثمانَ عشرة " (٣) .

وعائشة - رضي الله عنها - لها من الخلال والخصائص ما يضيّق المقام عن ذكره ، منها أنّها كانت أحبّ أزواج النّبِيَّ ﷺ إليه وبنت أحبّ خلق الله إليه ، فقد ثبت في الصّحيح عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : " أنّ النّبِيَّ ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقلت : أيّ الناس أحبّ إليك ؟ قال : عائشة ، فقلت : من الرّجال ؟ فقال : أبوها ... " (٤) .

ومن خصائصها أنّ الملك أرى صورتها للنّبِيَّ ﷺ في قطعة من جيّد الحرير قبل أن يتزوّجها ، أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أنّ النّبِيَّ ﷺ قال لها : " أريتك في المنام مرّتين أرى أنّك في سرّقة من حرير ، ويقول : هذه امرأتك فأكشفت فإذا هي أنت ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمضه " (٥) .

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٤م/ج٨/ص١٦٣) كتاب الاعتصام.

(٢) وفي رواية أنّه تزوّجها وهي بنت سبع سنين ، والجمع بأنّها أمّت السادسة ودخلت في السابعة .

(٣) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٥م/ج٩/ص٢٠٨) كتاب النكاح .

(٤) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج٥/ص١١٣) كتاب المغازي .

(٥) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج٤/ص٢٥٢) كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه في كتابي =

ومن خصائصها أنّه وصلها السّلام من جبريل - عليه السّلام - ، فقد قال لها رسول الله ﷺ يوماً : " يا عائش ، هذا جبريل يُقرئك السّلام ، فقلت : وعليه السّلام ورحمة الله وبركاته" (١).

ومن خصائصها أنّ الوحي كان ينزل على رسول الله ﷺ وهو في لحافها ولم يكن هذا غيرها ، فقد ثبت أنّه ﷺ قال : " يا أمّ سلمة ، لا تؤذيني في عائشة ، فإنّه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكّن غيرها" (٢).

ومن خصائصها غزارة علمها ، فقد كان كبار الصّحابة إذا أشكل الأمر عليهم يسألونها فيجدون عندها علماً وفقهاً ، قال مسروق : " رأيتُ مشيخة أصحاب رسول الله الأكاير يسألونها عن الفرائض" (٣).

ومن خصائصها أنّ الله تعالى لما أنزل على نبيّه آية التّخيير بدأ بها ، فقد ثبت في الصّحيحين أنّ النبيّ ﷺ قال لها : " يا عائشة ، إنّي ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تعجلي فيه حتّى تستأمري أبويك ... فقلت : أوفي هذا استأمر أبويّ فإنّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة" (٤) فاستنّ بها أزواج النبيّ ﷺ ، وفعلن ما فعلت .

ومن خصائصها ما أخرجّه مسلم عن عائشة : " أنّ النّاس كانوا يتحرّون بهداياهم يوم

= النّكاح والتّعبير ، وأخرجّه مسلم في "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/ج١٥/ص٢٠٢) كتاب فضائل الصّحابة .

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (٢م/ج٤/ص٢١٩) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/ج١٥/ص٢١١) كتاب فضائل الصّحابة وكلاهما عن أبي سلمة عن عائشة .

(٢) البخاري "صحيح البخاريّ" (٢م/ج٤/ص٢٢١) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣) ابن حجر "الإصابة" (٤م/ج٨/ص١٤٠).

(٤) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٥م/ج١٠/ص٩٣) كتاب الطّلاق ، والبخاري "صحيح البخاري" (٣م/ج٦/ص٢٣) كتاب تفسير القرآن .

عائشة ؛ ينتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ" (١).

ومن خصائصها أنه ﷺ توفي في بيتها ، وفي يومها ، ومات وهو مستند على صدرها ، فقد صحَّ عنها - رضي الله عنها - أنها كانت تقول : " إنَّ من نعم الله عليَّ أنَّ رسولَ الله ﷺ توفيَّ في بيتي ، وفي يومي ، وبين سَحْرِي وَنَحْرِي ، وأنَّ الله جَمَعَ بين ريقِي وريقه عند موته " (٢).

وقد قُبِضَ عنها ﷺ ولها ثمان عشرة سنة ، وكان النَّبِيُّ ﷺ قد بَشَّرَها في حياته أنَّها زوجته في الدُّنيا والآخرة ، فقد أخرج الحاكم عن عائشة - رضي الله عنها - : أنَّ رسولَ الله ذكر فاطمة - رضي الله عنها - ، قالت : فتكلَّمْتُ أنا ، فقال : " أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدُّنيا والآخرة ، قلتُ : بلى والله ، قال : فأنت زوجتي في الدُّنيا والآخرة " (٣).

وتوفيت - رضي الله عنها - في أواخر زمن معاوية ودفنت في البقيع .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/٨ج/١٥ ص/٢٠٥) كتاب فضائل الصَّحابة .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/٣ج/٥ ص/١٤١) كتاب المغازي .

(٣) الحاكم " المستدرک " (ج٤/ص١٠) كتاب معرفة الصَّحابة ، وقال الحاكم : الحديث صحيح ولم يخرِّجْه ، ووافقه الذهبي .

القسم الرابع

المبحث الأول

الحق المبين في الجمل وصفين

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة]

سبب خطأ الباحثين في التعامل مع تاريخ المؤرخين

" تاريخ الأمم والملوك " للطبري أقدم مصدر من مصادر التاريخ أخرج الروايات مُعْتَنَةً ، وكلّ من جاء بعده نقل عنه ، أو اعتمد عليه . وقد أسند الطبري الروايات ، ومن أورد السند فقد أحالك وحملك مسؤولية التثبت من تلك الروايات ، فبرئت ذمته ، وألقى بالعهد على الرواة والقراء .

فقد أشار - رحمه الله - في مقدّمة كتابه أنّه لم يلتزم بإيراد الصّحيح لعلل دعت إلى ذلك ، فهو لم يلتزم النقل عمّن آمن واهتدى وصدّق بالحسنى فحسب ، وإنّا نقل عن هؤلاء ، وعن كلّ من هبّ ودبّ وعوى وغوى ، وحمل رواته التّبعة ، وحمل بذلك الدارسين لكتابه البحث عن حال هؤلاء الرّجال في كتب الرّجال والجرح والتّعديل .

وللأسف ، فقد وقع على هذه الروايات كثير من الكتاب والقراء عبر العصور ، دون نقدها ، فلم يتثبتوا من حال أسماء رواة هذه الأخبار ، ولا من صحّة متونها ، وسودوا هذه الأخبار والقصص والحكايات في كتبهم على ظاهرها ؛ فقد حسبوا المتورّم سميّاً ، واستعظموا ما ليس عظيماً ، واغترروا بظاهر يخالف حقيقة الواقع ، فكانوا كمن استسمن ذا ورَم .

فعمل هؤلاء الكتاب على تكريس هذه الأخبار الباطلة في أذهان العامة وبعض الخاصّة ، فضّلوا وأضلّوا ، وساهموا من حيث يعلمون أو لا يعلمون بإغراء العامّة ومن في

حكمتهم على تنقيص الصحابة - رضي الله عنهم - !

وليس يغني عن كاتب أو جاهل قول راو عن فلان ، وقوله عن فلان ، إذا لم يثبت من حال فلان وفلان ؛ فالروايات التاريخية قوامها علم الجرح والتعديل . ولأن السند هو الأصل ، والمتن هو الفرع ، فإنه يشترط لصحة الفرع سلامة الأصل ، ولذلك يجب النظر فيمن تُقبل روايته أو تُرد ، وذلك يتأتى ممن رأيه يُعتمد وممن قوله يُعتمد به .

ولا أدري كيف يجهل الناس أن كثيراً من الروايات التاريخية موضوعة ؛ فلم تسلم الرواية عن رسول الله ﷺ من الوضع ، فهناك آلاف الأحاديث الموضوعة والمنكرة والشاذة والمكذوبة على رسول الله ﷺ ، فإذا كان الأمر كذلك في الحديث الشريف ، فهل يسلم الحديث عن الصحابة - رضي الله عنهم - من الدس وإخفاء المكر؟!

وأنا على يقين أن غير كتاب من كتب التراث تعرضت أصوله للتحرير والتصحيح من الناشرين وغيرهم قبل أن تصل إلينا هذه الكتب ؛ فقد وقعت هذه المخطوطات في أيد غير أمينة زمنناً طويلاً .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك كتباً محققة لا تساوي ثمن الخبر الذي كُتبت به ؛ فالمحققون على مشارب : فمنهم المتشدد في الحق وهذا يؤخذ عنه ولا مانع من تعقبه ، ومنهم المتساهل وهذا لا يؤخذ منه ، ومنهم القوام بين ذلك وهذا يؤخذ منه ويُرد عليه ، ومنهم من نزعَهُ عِرْقٌ وغلبه هوى فهو يرمي إلى تأييد مذهب أو إثبات معتقد وهذا يُحذر منه ، ومنهم من زاد في تحقيقه الطين بلةً عامداً متعمداً فكان كمن ﴿ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المدثر] وهذا أمره إلى الله ، ومنهم الجاهل الذي يسعى إلى شهرة بائسة فوضع اسمه على هذه الكتب بدعوى تحقيقها ، وهذا لم يأتنا بهلةً ولا بلةً ، وإنما جاءنا ببقبة في رزقة يفتخر بها ليس عنده ، ومثله كمثل الحادي وليس له بعير يتنفخ بما لا يملك ، وما أكثر هؤلاء ! والله نسأل أن يجنبنا حب الظهور الذي يكسر الظهور ويذهب بالأجور ، وهذا يصدق فيه قول الشاعر :

ألقابُ مملكة في غير موضعها كاهرٌ يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد وقع المستشرقون عبر العصور بالخطأ عينه ، فنقلوا من كتب التراث ، واعتمدوا على كُتَاب السيرة الأوائل من المسلمين ، وكتبهم غير محققة ولم تسلم من التصحيف والتحريف ، فلم يتبين هؤلاء المستشرقين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وظنّوا أنّ تاريخ المسلمين ما وجدوه مسطوراً في هذه التركة من الكتب التي جاءت بعد الأمويين من أصحاب الأهواء والبدع ، فأخذوا هذه الروايات ، وجعلوا ما يوافق أهواءهم عمدة ، وما يخالفها ردّوه ما استطاعوا إليه سبيلاً ، أو لوّوا به ألسنتهم إن لم يسعهم إنكاره !

وهم لا يملكون القدرة على محاكمة هذه الروايات التاريخية ؛ لجهلهم بعلم الجرح والتعديل ، فضلاً عن أنّ هذا العلم لا يخدم أهدأفهم ، زد على ذلك جهلهم باللغة العربية وعلومها وأسرارها ، وكلّ هذا يؤكد الحاجة إلى تحقيق كتب التراث لتغيير فهم المسلمين خاصّة والناس عامة لتاريخ المسلمين الأوائل ، الذي لا نخشى الحديث عنه ؛ إذ لو كان ذلك صحيحاً لاقتضى أنّ لهم فيه أعمالاً محمّطاً من شأنهم ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، ولا يتصوّرهُ عاقل .

سبب خروج عائشة - رضي الله عنها - ومن معها إلى البصرة

وتما كثر اللغظ فيه ما جرى بين الصحابة في الجمل وصفين^(١) ، فما انفك أقوام يثلبون الصحابة الذين انعقد على عدالتهم الإجماع ، ونطقت بذلك الآيات الصّراح ، وشهدت بذلك الأحاديث الصّحاح .

وقد آثرت أن أبين حقيقة ما جرى بينهم لعزّته ، وقلة من أحاط بعلمه ، ولأنّ هناك مسائل أعيا كثيراً من الناس جوابها ؛ فالفقاري في كثير من الكتب يقف فاغراً فاهماً أمام ما يجده في صفحاتها من هول ما يقرأ !

فبعد أن قُتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - في داره وهو يقرأ كلام الله في المصحف الذي جمّع الناس عليه ، وفاض دمه على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ

(١) صفين : مدينة قديمة على شاطئ الفرات بين الرقة ومنبج .

الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ [البقرة] تباينت مواقف أهل الأمصار من استشهاده :

فمنهم من كان يرى وجوب التعجيل في محاسبة قتلة عثمان - رضي الله عنه - ، وهم أهل الشام وعلى رأسهم معاوية - رضي الله عنه - ، وشطر من أهل البصرة ، ومثلهم من أهل مصر .

ومنهم من كان يرى ضرورة تأجيل إقامة الحدود على قتلة عثمان حتى يتوطد الحكم للخليفة عليّ - رضي الله عنه - وتقوى شوكته ، وتستتب الأمور بعد انتقاض البلاد ، واضطراب العباد ؛ بسبب استشهاد عثمان - رضي الله عنه - وهم كثير من أهل الأمصار لا سيّما أهل الكوفة فقد كانوا مع عليّ في ذلك .

ومنهم من اعتزل الفتنة ، مثل : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن أبي مسلمة وغيرهم كثير - رضي الله عنهم جميعاً . -

وهناك من سعى للإصلاح وجمع الكلمة بين من يريد التعجيل ، ومن يريد التأخير ، ويمثّل هؤلاء أمّ المؤمنين عائشة وطلحة والزبير - رضي الله عنهم - ، فخرجوا من مكة إلى البصرة وكان مرادهم الإصلاح وجمع الكلمة ، وليس المطالبة بدم عثمان - رضي الله عنه - كما ذهب إلى ذلك غير كاتب ، فلو كان ذلك صحيحاً لذهبوا إلى الشام وكانوا مع معاوية - رضي الله عنه - من أوّل الأمر ، ولكن هذا لم يكن .

وهناك كثير من الروايات تصوّر عائشة ومن معها أنّهم تقموا على عليّ لتأخيره محاسبة قتلة عثمان ، وأنّهم خرجوا إلى البصرة لتحريض الناس على المطالبة بدم عثمان ، وأنّهم خرجوا على عليّ وأبطلوا خلافته وطعنوا فيها ، بدليل أنّهم خرجوا للقتال ولهم خليفة لا يرجعون إليه !

وهذه الأخبار لا تصحّ ؛ فلو أرادوا من ينصرهم للنيل من قتلة عثمان لخرجوا إلى الشام - كما تقدّم - حيث معاوية أعزّ ناصراً وأكثر عدداً ، أمّا أنّهم شقّوا عصا الطاعة وخرجوا عن الجماعة فظاهر البطلان ؛ فما ظهر عندهم ولا عند غيرهم ما يوجب نقض بيعة عليّ ، ولو

أرادوا ذلك لسعوا إلى بيعة غيره من أوّل الأمر، لكن ذلك لم يحدث ، فهم يرون له من الحقّ ما لا يرونه لغيره ، فهو أفضل من بقي من أهل الشورى الذين نصّ عليهم عمر - رضي الله عنه - ولم يكن يومها على أديم الأرض مَنْ هو أفضل منه ، فهذه الأخبار مفضوح كذبها ، ولذلك قال الحاكم :

" فأما قول من زعم أنّ عبد الله بن عمر ، وأبا مسعود الأنصاري ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبا موسى الأشعري ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، وأسامة بن زيد ، قعدوا عن بيعته ، فإنّ هذا قول من يجحد حقيقة تلك الأحوال ^(١) والحاصل خلافته - رضي الله عنه - صحيحة بالإجماع ، وكان هو الخليفة في عصره لم ينازعه على الخلافة أحد .

فخروجهم إلى البصرة لم يكن خروجاً للقتال أو خروجاً على الإمام ، وإنّما خرجوا للإصلاح ، وإعزاز الإسلام بسدّ باب الفتنة الذي فُتِح بعد مقتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - ظلماً وعدواناً كما أجاب غير عالم .

فهم يريدون جمع كلمة الأمة ، وتحذير المسلمين من التّقصير في معاونة علي - رضي الله عنه - والتّعجيل في محاسبة المحلّين لدم عثمان - رضي الله عنه - قبل أن تربو مفسدة هؤلاء المنافقين ويستطير شرّهم وتزداد شوكتهم ويكثر جمعهم ، خصوصاً وأنّ الفتنة يسارع إليها أهل الفساد ، وهم الأكثرون .

وقد أخرج الحاكم ما يشير إلى سبب خروج عائشة - رضي الله عنها - ، وهو الصّلى ، والدّعوة إلى مساندة الفئمة التي بُغي عليها ، فقد أخرج بسنده إلى عائشة ، قالت : " ما رأيت مثل ما رَغِبَتْ عنه هذه الأمة من هذه الآية : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ... ﴾ (١) [الحجرات] ^(٢) .

(١) الحاكم "المستدرک" (ج٣/ ص ١١٥) كتاب معرفة الصحابة .

(٢) الحاكم "المستدرک" (ج٢/ ص ١٥٦) كتاب قتال أهل البغي . وقال : هذا حديث صحيح على شرط =

فهي تريد الإصلاح والدعوة إلى الوقوف مع عليّ في وجه الفئة الباغية على عثمان - رضي الله عنه - .

وفي " كتاب الثقات " ما يشير إلى نيتها - رضي الله عنها - فقد ذكر أن زيد بن صوحان قدم من عند عائشة معه كتابان من عائشة إلى أبي موسى والي الكوفة ، وإذا في كل كتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم - من عائشة أم المؤمنين إلى عبد الله بن قيس الأشعري - سلام عليك ، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد كان من قتل عثمان ما قد علمت ، وقد خرجتُ مصلحةً بين الناس ، فمُرَّ مِنْ قَبْلِكَ بِالْقَرَارِ فِي مَنَازِلِهِمُ وَالرِّضَا بِالْعَافِيَةِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ مَا يَجِبُونَ مِنْ صِلَاحِ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ قَتْلَ عِثْمَانَ فَارَقُوا الْجَمَاعَةَ وَأَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ دَارَ الْبَوَارِ " (١) .

فلم يكن بنية عائشة - رضي الله عنها - ومن معها ملاحقة قتلة عثمان ومحاسبتهم ؛ فليس من المعقول أن يغيب عن أذهان هؤلاء الصحابة الأجلاء مع سابقتهم وفضلهم أن يقاتلوا قتلة عثمان - رضي الله عنه - وهم خليفة ولا يرجعون إليه ! فغاية قصدها - رضي الله عنها - ومن معها الإصلاح بين الناس ، وسيأتي قريباً في حديث الحوَاب الصّحيح ما يقطع بذلك .

فليتق الله أقوام يُصَوِّرون عائشة - رضي الله عنها - تقود جيشاً فيه كبار الصحابة لمقاتلة عليّ والتحريض عليه ؛ فالنبي ﷺ لم يأذن للنساء بقيادة الجيوش ! وهذا الكلام يسوقونه لتخطئة عائشة ومن كان معها من الصحابة ، والجرح بمن يصور ذلك أولى .

وليتق الله أقوام يتهمون عائشة - رضي الله عنها - أنه كان في نفسها شيء على عليّ - رضي الله عنه - لموقفه من حادثة الإفك ، ذلك أن عليّاً - رضي الله عنه - لما استشاره النبي ﷺ في فراق أهله قال - رضي الله عنه - : " يا رسول الله ، لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير ،

= مسلم ولم يخرجه .

(١) أبو حاتم " كتاب الثقات " (ج ٢ / ص ٢٨٢) .

وسل الجارية تصدقك" (١).

وهذا الخبر رواه الشَّيْخَان عن عائشة - رضي الله عنها - وليس فيه ما يشير من قريب أو بعيد إلى أنها كرهت ذلك من عليّ - رضي الله عنه - ! وإذا كان هذا ما أخرجها إلى البصرة ، فما الذي أخرج من كان معها ؟! فهذا كلام يُرَادُ به النَّيْل من الصَّحابة أنهم يوافقونها على الخطأ ، ويطعن في سلامة قلوبهم ونقاء سريرتهم ، ونحن نعلم أن طهارة قلوب الصَّحابة نَصَّ عليها القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴾ (١٨) ﴿ [الفتح]. وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُم لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) ﴿ [الحجرات] وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ... ﴾ (٣) ﴿ [المجادلة].

عدد من خرج إلى البصرة وعلم عليّ بخبرهم

أخرج الطَّبْرِيّ روايتين متضاربتين في تعيين عدد من خرج إلى البصرة من طريقين لا تقوم بهما حجة ، الرواية الأولى من طريق سيف عن أشياخه ، وفيها أن عدد من خرج ستمائة ، ولحقّ بهم من لحق حتّى صاروا ألفاً ، وفيها أن أمّ الفضل بعثت برسالة مع رجل يُدعى ظفراً تجرّ عليّاً بخبرهم ، فقد أخرج الطَّبْرِيّ عن سيف عن محمّد وطلحة ، قال :

" ... فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقة سوى من كان له مركب ، وكانوا جميعاً ألفاً ... وبعثت أمّ الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يُدعى ظفراً فاستأجرته على أن يطوي ويأتي بكتابتها فقدم على عليّ بكتاب أمّ الفضل بالخبر" (١).

وهذه الرواية باطلة سنداً ومتناً ، ومدار بطلان سندها على سيف (٢) ، فهو ضعيف وقد

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج٥/ص٥٧) كتاب المغازي ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/ج١٧/ص١٠٨) كتاب التوبة .

(٢) الطَّبْرِيّ " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣/ص٤٧٠) .

(٣) قال الحافظ : سيف بن عمر التميمي ، صاحب كتاب الرّدة ، ويقال الضّبي ، ضعيف الحديث ، عمدة في التّاريخ ، أفحش ابن حبان القول فيه " تقريب التّهذيب " (ص٢٦٢/رقم٢٧٢٤) .

أفحش ابن حبان القول فيه ، أما بطلان متنها فيدلّك عليه أنّ أمّ الفضل وهي لبابة بنت الحارث^(١) التي أرسلت إلى عليّ بن خنيس خروجه لم تكن يومها على قيد الحياة ، فقد ماتت بعد زوجها العباس في خلافة عثمان !

أما الرواية الثانية فهي من طريق يونس بن يزيد عن الزهري ، وفيها أنّ عددهم سبعمائة ولحق بهم الناس حتّى كانوا ثلاثة آلاف ، فقد أخرج الطبريّ عن يونس بن يزيد الأيلي عن الزهريّ ، قال : " ... فخرجوا في سبعمائة رجل من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس حتّى كانوا ثلاثة آلاف رجل فبلغ عليّاً مسيرهم فأمر على المدينة سهل بن حنيف ، وخرج فسار حتّى نزل ذا قار"^(٢) " (٣).

قلنا : والزهري لم يدرك هذه الأحداث حتّى يُحدّث عنها ، وهذا التناقض في تعيين العدد يضعف الروايتين معاً .

ثمّ إنّ خروج عليّ إلى ذي قار لا يدلّ على أنّه كان يلحق بهم ؛ فهذا يعني أنّه جاء من طريق : النقرة^(٤) ، فيد^(٥) ، الثعلبية^(٦) . ولو أراد اللحاق بهم لخرج من النقرة إلى التّباج^(٧)

(١) قال الحافظ : لبابة بنت الحارث بن حزم الهلالية أمّ الفضل ، زوج العباس بن عبد المطلب ، وأخت ميمونة زوج النبيّ ﷺ ، قال ابن حبان : ماتت بعد العباس في خلافة عثمان "تقريب التّهذيب" (ص ٧٥٣ / رقم ٨٦٧٦).

(٢) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة "معجم البلدان" (ج ٤ / ص ٢٩٣).

(٣) الطبريّ "تاريخ الأمم والملوك" (ج ٣ / ص ٤٧١).

(٤) النقرة : ملتقى الدروب تقع على طريق الكوفة ولا تزال تحمل اسمها إلى الآن ، وتبعد عن المدينة مائتان وستة وثلاثون كيلو مترا ، ومنها يتيامن حتّى يصل إلى التّباج من أراد الذهاب إلى البصرة . انظر "الملاحم الجغرافية لدروب الحجيج" لسيد عبد المجيد (ص ٥٤).

(٥) قال ياقوت : قال السكوني : فيد : نصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة "معجم البلدان" (ج ٤ / ص ٢٨٢).

(٦) قال ياقوت : الثعلبية : من منازل طريق مكة من الكوفة "معجم البلدان" (ج ٢ / ص ٧٨).

(٧) قال ياقوت : التّباج : قرية في بادية البصرة على النّصف من طريق البصرة إلى مكة "معجم البلدان" =

فالبصرة، وهذا كله يضعف متون الروايات التي تصوّر عائشة - رضي الله عنها - هاربة وتتيامن عن أوطاس^(١) خشية من عليّ .

عائشة تمُّ بالرجوع والزَّبير يثنيها عن عزمها

فلما خرجت عائشة - رضي الله عنها - ومن معها من الصحابة - رضي الله عنهم - وكانوا على نيّتها ورأيها في الإصلاح ، تذكّرت أنّ النبيّ ﷺ كان قد حدّر في حياته أمّهات المؤمنين من هذه الفتنة ، فلما رأت أمّ المؤمنين - رضي الله عنها - آية ذلك همّت بالرجوع ؛ لكنّ الزبير - رضي الله عنه - ثناها عن عزمها لما كان يرجوه في خروجها من إصلاح بين الناس ، ولما كان يأمله في رؤية الناس لها من جمع للكلمة ، ولم يكن يعلم - رضي الله عنه - أنّه يسير إلى قدره !

فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم ، أنّ عائشة لما أتت على الحوَاب سمعت نباح الكلاب ، فقالت : " ما أظنني إلّا راجعة لأنّ رسول الله ﷺ قال لنا : أيتكنّ تنبح عليها كلاب الحوَاب"^(٢) . فقال لها الزبير - رضي الله عنه - : ترجعين؟! عسى الله - عزّ وجلّ - أن يصلح بك بين الناس"^(٣) .

ومما يدلّك على حسن نيّة من خرج معها ، أنّ الزبير لما التقى مع عليّ ذكره عليّ بحديث سمعه من رسول الله ﷺ فرجع ، فقال له ابنه عبد الله : " ... وللقنّال جئت ! إنّها جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله هذا الأمر بك"^(٤) .

= (ج ٥/ص ٢٥٦) .

(١) قال ياقوت : أوطاس (البريكة) : واد في ديار هوازن فيه كانت غزوة حنين " معجم البلدان " (ج ١/ص ٢٨١) .

(٢) الحوَاب : منزل بين مكّة والبصرة .

(٣) أحمد " المسند " (ج ١٧ / ص ٢٧٣ / رقم ٢٤١٣٥) .

(٤) الحاكم " المستدرک " (ج ٣/ص ٣٦٦) كتاب معرفة الصحابة ، وأخرجه البيهقي في " دلائل النبوة " =

إنكار ابن العربي - رحمه الله - لحديث الحوَاب

وقد أنكر ابن العربي - رحمه الله - هذا الحديث أشدَّ الإنكار، فقال : " وأما الذي ذكرتم من الشَّهادة على ماء الحوَاب ، فقد بُوِّثَ في ذكرها بأعظم حُوب (إثم) . ما كان قطَّ شيء مما ذكرتم ، ولا قال النَّبِيُّ ﷺ ذلك الحديث ، ولا جرى ذلك الكلام ، ولا شهد أحد بشهادتهم ، وقد كتبت شهادتكم بهذا الباطل وسوف تسألون " (١) .

ولعلَّ عذر ابن العربي أنَّ هذه الرواية وردت في كُتُبِ التَّاريخ بأسانيد غاية في الضَّعف، والحاصل ، الحديث صحيح ، وهو موجود في كُتُبِ السُّنَّة : فقد أخرجه أحمد في "المسند" (٢) كما تقدَّم بإسناد صحيح ، وأخرجه الحاكم في "المستدرک" (٣) ، ولم يقع في المطبوع منه التصريح بالتَّصحيح منه ، ولا من الذَّهبي ، وقد يكون التَّصحيح غفَلَ عنه الطَّابع أو النَّاسخ ؛ فقد نقل الحافظ في "فتح الباري" (٤) عن الحاكم أنَّه صحَّحه وسنده على شرط الصَّحيح ، وهو كذلك ، وذكره الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٥) و صحَّحه الهيثمي في "مجمَع الزَّوائد" (٦) من رواية البزار عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ

= (ج٦/ص٤١٥) ونقله ابن كثير في "البداية والنهاية" (٦م/ص٢١٣) وعزاه للمصنَّف (البيهقي) ، وقال : غريب .

(١) العواصم من القواصم " (ص١٦٤) ووافقه محقق الكتاب محبَّ الدِّين الخطيب ، وقال عن الحديث : " ليس له موضع في دواوين السُّنَّة المعتبرة " (ص١٦٤) ووافقها كذلك أحمد عوض أبو الشَّباب محقق كتاب "الإمام عليّ - رضي الله عنه - " لمحمَّد رضا ، وقال : " حديث ماء الحوَاب فيه كلام وليس له موضع في السُّنَّة الصَّحيحة " (ص٧٢) .

(٢) أحمد " المسند " (ج١٧ / ص٢٧٣ / رقم ٢٤١٣٥) .

(٣) الحاكم " المستدرک " (ج٣ / ص١٢٠) كتاب معرفة الصَّحابة .

(٤) ابن حجر " فتح الباري " (م١٣ / ص٤٥) .

(٥) الألباني " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (م١ / ص٢٢٣ / رقم ٤٧٥) حديث الحوَاب .

(٦) الهيثمي " مجمَع الزَّوائد " (ج٧ / ص٢٣٤) .

لنساته : " ليت شعري أيتكنَّ صاحبة الجمل الأدب^(١) تخرج فينبجها كلاب الحوَّاب " وقال الهيثمي : رواه البزار ، ورجاله ثقات ، وقال الحافظ في " فتح الباري "^(٢) بعدما ساق الحديث نفسه : وهذا رواه البزار ورجاله ثقات ، وذكره ابن حجر في " المطالب العالية "^(٣) ، وقال المحقق : صحيح . وصححه البوصيري في " الإتحاف "^(٤) وقال : رواه أبو بكر بن أبي شيبة ورواه ثقات .

عليّ يخرج إلى البصرة ليردّ عائشة إلى مأمنها عملاً بوصية النبي ﷺ

ولم تصحّ الروايات في أن عليّاً وعمّاراً - رضي الله عنهما - حصّاً أهل الكوفة إلى الخروج لقتال أم المؤمنين عائشة ، وأنه خرج إلى البصرة لملاقاتها ... ، وأضرب عن هذه الروايات علماً منّا ببطلان سندها ومتنها ، إذ لا فائدة تُرجى من ذكرها ، وما صحّ ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن زياد الأسديّ ، قال : " لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث عليّ عمّار بن ياسر ، وحسن بن عليّ ، فقدا علينا الكوفة ، فصعدا المنبر ، فكان الحسنُ ابنُ عليّ فوق المنبر - في أعلاه - وقام عمّار أسفل من الحسن ، فاجتمعنا إليه ، فسمعتُ عمّاراً يقول : إنّ عائشة قد سارت إلى البصرة ، والله إنّها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة ، ولكنّ الله - تبارك وتعالى - ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي "^(٥).

وكانت خطبته هذه قبل حادثة الجمل ليكفّهم عن الخروج معها - رضي الله عنها - ، ولعلّ الضمير في الحديث " إياه " يعود على الله تعالى ، والمراد أتباع حكمه ، فهو القائل : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴾ [٣٣] ﴿ [الأحزاب] ليمنعهم من الخروج معها . فإذا كان يعود على

(١) الأدب : الكثير وبر الوجه .

(٢) ابن حجر " فتح الباري " (م/١٣/ص ٤٥).

(٣) ابن حجر " المطالب العالية " (١٨م/ص ١٢٣/رقم ٤٤٠٠).

(٤) " مختصر إتحاف السادة المهرة " (م/٥/ص ٤٥١/رقم ٨٣١٠) كتاب الفتن .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م/٤ج/٨/ص ٩٧) كتاب الفتن .

عليّ - رضي الله عنه - فالمعنى أتباع حكم الله في طاعة الخليفة ، وليس في الحديث دعوة للخروج مع عليّ - رضي الله عنه - لمقاتلة أحد .

وأخرج عن الحكم عن أبي وائل قال : " قام عمّار على منبر الكوفة فذكر عائشة ، وذكر مسيرها ، وقال : إنّها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة ، ولكنها مما ابتليتم " (١) .

ومراد عمّار - رضي الله عنه - أنّ الحقّ مع عليّ - رضي الله عنه - ، وأنّ عائشة - رضي الله عنها - مخطئة في خروجها واجتهادها ، ومع ذلك ما بدّلت وما خرجت عن الإسلام بما يجعلها تفارق النبيّ ﷺ ، ويمنعها من أن تكون زوجته ﷺ في الدنيا والآخرة ، وما كان عمّار ليشهد لها أنّها زوجة النبيّ ﷺ في الآخرة إلاّ لشيء سمعه أو علمه ، فضلاً عن علمه بحسن نيّتها ، وأنّها متأولة مجتهدة مصيبة لأجر الاجتهاد ، وأنّ خروجها ابتلاء من الله تعالى ، وأنّ العبد يبتلى على قدر دينه .

وهذا القول من عمّار وشهادته بالفضل لعائشة - رضي الله عنها - واعتذاره عنها ، وعدم بخسها حقّها يدلّ على علمه وورعه وتقواه وإنصافه لعائشة - رضي الله عنها - وتحريه الحقّ قولاً وعملاً ؛ فمع أنّه كان يدعو لعليّ إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من التحدّث بمنقبة عائشة - رضي الله عنها - ، وفي ذلك مذكّر لمن أراد أن يذكر ؛ فهذا يكشف عن معادن أصحاب رسول الله ﷺ الخيرة ، فقد قال النبيّ ﷺ :

" النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا ، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاطَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ " (٢) .

أمّا مَنْ يتعلّل بها رواه البخاري عن عمرو أنّه سمع أبا وائل يقول : " دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمّار حيث بعثه عليّ إلى أهل الكوفة يستنفرهم " (٣) ويظنّ أنّ علياً - رضي الله

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ٩٧) كتاب الفتن .

(٢) مسلم بسنده إلى يزيد بن الأصمّ عن أبي هريرة بحديث يرفعه " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م / ج ١٦ / ص ١٨٥) كتاب البرّ والصّلة والأدب .

(٣) البخاري " الصحيح " (٤م / ج ٨ / ص ٩٨) كتاب الفتن .

عنه - يستنفر أهل الكوفة لقتال عائشة - رضي الله عنها - فهذا لا يَصِحُّ ، فالخليفة عليّ - رضي الله عنه - يعرف أنّ خروج عائشة - رضي الله عنها - من أصله كان قدراً مقدوراً ، فقد حذّرها النَّبِيُّ ﷺ في حياته من الخروج ، وسمع عليّ - رضي الله عنه - هذا التحذير ، وسمع طلب النَّبِيِّ ﷺ منه أن يرفق بها ، فقد أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن سالم بن أبي الجعد عن أمّ سلمة - رضي الله عنها - ، قالت :

" ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ خروج بعض أمّهات المؤمنين ، فضحكت عائشة ، فقال : انظري يا حُمَيْرَاءُ^(١) ، ألا تكوني أنت ، ثم التفت إلى عليّ ، فقال : إن وليت من أمرها شيئاً ، فارفتُ بها"^(٢).

فكيف يصحّ القول بأنّ عليّاً - رضي الله عنه - كان يحرّض على قتلها ، وقد أمره النَّبِيُّ ﷺ بالرفق بها؟! وإنّا استنفر عليّ - رضي الله عنه - أهل الكوفة لأنّه خشي على عائشة - رضي الله عنها - فخرج ومن معه إلى البصرة ليجتمع بعائشة - رضي الله عنها - ويعيدها إلى مأمّنها .

فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي رافع أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ بن أبي طالب : " إنّه سيكون بينك وبين عائشة أمر ، قال : أنا يا رسول الله؟! قال : نعم ، قال : أنا؟! قال : نعم ، قال : فأنا أشقاهم يا رسول الله؟ قال : لا ، ولكن إذا كان ذلك فارُدّها إلى مأمّنها"^(٣).

فالله تعالى أطلع نبيّه ﷺ على ما يقع بين عليّ وعائشة ، فالنبيّ ﷺ كان يعلم أنّ أمراً (حدثاً) سيقع بينهما ، وليس معركة كما يَصوّرون ويهوّلون ! ولم ينه النَّبِيُّ ﷺ عليّاً ولا عائشة؛ لأنّه يعلم أنّ هذا الأمر واقع بأمر الله ليظهر عذرهما ، وإنّا نبههما وأوصى عليّاً بها ، فالله تعالى إذا أراد شيئاً هيأ الأسباب له .

(١) تصغير حمراء ويفيد التحبّب.

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣ / ص ١١٩) كتاب معرفة الصحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) أحمد " المسند " (ج ١٨ / ص ٤٦٨ / رقم ٢٧٠٧٦) .

ومن الروايات التي تطمئن القلوب لمتنها ، والتي تبين قصد عليّ - رضي الله عنه - من الخروج إلى البصرة ، ما أخرجه الطبري بإسناد ضعيف عن محمد وطلحة ، قالوا : " لما أراد عليّ الخروج من الرّبذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع ، فقال : يا أمير المؤمنين أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ فقال : أما الذي نريد فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبونا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحقّ ونصبر ، قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، قال : فتعّم إذا... " (١).

وكان عليّ - رضي الله عنه - محقاً في خروجه ؛ فقد استطاع أن يعيد أمّ المؤمنين إلى مأمناها عملاً بوصية النبيّ ﷺ له ، أخرج الحاكم عن عمرة بنت عبد الرحمن ، قالت : " لما سار عليّ إلى البصرة دخل على أمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ يودّعها ، فقالت : سرّ في حفظ الله وفي كنفه ، فوالله إنك لعلّ الحقّ والحقّ معك ، ولولا أنّي أكره أن أعصي الله ورسوله فإنّه أمرنا ﷺ أن نقرّ في بيوتنا لسرتُ معك ، ولكن والله لأرسلنّ معك من هو أفضل عندي وأعزّ عليّ من نفسي ابني عمر " (٢).

الأيدي الخبيثة توقع الفتنة بين الفريقين

وهكذا يتّضح أنّ عليّاً - رضي الله عنه - لم ينهض إلى البصرة لقتال عائشة - رضي الله عنها - ومن معها كما تقدّم ، وإنما ليردّها إلى مأمناها ويقوى بمن كان معها ، فهو يعلم أنّ القلوب واحدة والنّية واحدة ، لكنّه كان يخشى - رضي الله عنه - أن يفتق في الإسلام فتق ، وآية ذلك أنّهم لما اجتمعوا في النّصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، اجتمعت كلمتهم ، ولم يقتتلوا ، ولم يكن بينهم قتال ؛ فخشى المنافقون وأعدائهم الذين نُسب إليهم قتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - من اجتماعهم على قتالهم ، فلما جنّ الليل اندس قتلة عثمان

(١) الطبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٣ / ص ٤٩٤) ونقل عنه ذلك ابن الأثير في " الكامل في التاريخ " (٢م / ص ٣٢٥).

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣ / ص ١١٩) ، كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

- رضي الله عنه - بين هؤلاء وهؤلاء . وبعد أن اطمأنّ الفريقان أنشبوا السهام ، وبذلوا السُّيوفَ فيهم ، فنشب القتال على غير نيّة ، فأخذت كلّ طائفة تدفع عن نفسها ، وهي تظنّ أنّ الأخرى بدأتها القتال ، فكلتا الطائفتين محمّة في غايتها ، سليمة في نيتها ، مدافعة عن نفسها، بمثل هذا أجاب غير عالم من علمائنا عن سبب وقوع القتال .

وقد أشار الطّبري إلى هذا الأمر ، فقال : " ... فباتوا على الصّلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه ، والتّزوع عمّا انتهى الذين اشتهاوا ، وركبوا ما ركبوا ، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قطّ ، قد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلّها حتّى اجتمعوا على إنشأ الحرب في السّرّ ، واستسرّوا بذلك خشية أن يفتنّ بما حاولوا من السّرّ ، فغدوا مع العكس وما يشعرّ بهم جبرائهم ، انسلّوا إلى ذلك الأمر انسللاً ، وعليهم ظلمةٌ ... فوضعوا فيهم السّلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كلّ قوم في وجوه أصحابهم ... ونادى عليّ في النّاس : أيها النّاس ، كُفّوا ، فلا شيء " (١) .

المنافقون يُوجِّحون الفتنة بقتل كبار الصّحابة

أورد البخاري من حديث عمرو بن جवान ، قال : " والتقى القوم - يعني يوم الجمل - فقام كعب بن سور الأزدي معه المصحف ينشره بين الفريقين ، وينشدهم الله والإسلام في دمائهم ، فما زال بذلك المنزل حتّى قُتل طلحة أوّل قتيل ، وذهب الزبير يريد أن يلحق به فقتل " (٢) .

وانظر كيف بدأت هذه الحادثة بقتل صحابييين جليلين ، فقد سارع المنافقون إلى قتلها لإشعال الفتنة بين المسلمين وإذكاء نارها ، وتأجيج أوارها ، خشية أن يجتمعوا عليهم بعد أن

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج٣ / ص ٥١٧) وإسناده ضعيف ، ولكنّ منته ممّا لا يُستبَدّ ، ونقله ابن الأثير في " الكامل في التّاريخ " (٢م / ص ٣٣٦) وغيره في غيره .

(٢) البخاري " التّاريخ الأوسط " (ص ٤١ / رقم ٢٩٠) والخبر في " تاريخ خليفة بن خيَاط " (ص ١٨٥) وفي " سير أعلام النّبلاء " (ج ١ / ص ٣٥) وقال المحقّق : وفيه ابن أعين ، وعمرو بن جवान لم يوثقه غير ابن حبان .

قتلوا خليفة المسلمين عثمان - رضي الله عنه - !

وقد وردت أخبار كثيرة في حرصهم على قتل عائشة - رضي الله عنها - ودفاع من كان معها عنها ، منها ما أورده ابن حجر في " الفتح " عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : " أَيْتُكُنَّ صَاحِبَةَ الْجَمَلِ الْأَدِيبِ تَخْرُجَ حَتَّى تَنْبَحَهَا كِلَابُ الْحَوَابِ يَقْتُلُ عَنْ يَمِينِهَا وَعَنْ شِمَالِهَا قَتْلَى كَثِيرَةً ، وَتَنْجُو بَعْدَمَا كَادَتْ " (١) .

وهؤلاء القتلة لا أحسبهم إلا جماعة من المنافقين ، فقد وصفهم النبي ﷺ بذلك ، فقد أخرج ابن ماجه حديثاً صحيحاً عن عائشة - رضي الله عنها - ، قالت : قال رسول الله ﷺ : " يا عثمان ، إن ولأك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون أن تُخْلَعَ قميصك الذي قمصك الله ، فلا تخلعه " (٢) .

وأخرج نحوه أحمد بسند صحيح عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : " يا عثمان ، إن الله - عز وجل - عسى أن يُلبسك قميصاً ، فإن أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي " (٣) .

وهؤلاء المنافقون حَرَكْتُهُمْ أَيْدِ خَيْبَةٍ ؛ فالذين كانوا يضمرون الشر للإسلام وأهله يومها كانوا كثرة كاثرة من أهل الكتاب ، والمرتدين ، والأكاسرة والأباطرة ، والكفار ، فضلاً عن حديثي العهد بالإسلام ممن يسهل استمالتهم ، فقد كثر في ذلك العهد من لم يصحب النبي ﷺ ، وفُقد من عرفَ فضل الصحابة - رضي الله عنهم - ! فأسمى الناس أسرع إلى الاختلاف ، وقد سأل رجل علي بن أبي طالب ذات مرة : " ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟! فقال : لأنَّ أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي ، وأنا اليوم والٍ

(١) ابن حجر " فتح الباري " (ج ١٣ / ص ٤٥) وقال ابن حجر : رواه البزار ورجاله ثقات . وأورده الهيثمي

في " مجمع الزوائد " (ج ٧ / ص ٢٣٤) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٢) ابن ماجه " صحيح سنن ابن ماجه " (م ١ / ص ٢٠٥ / رقم ٩٠ - ١١٢) الألباني ، وقال : صحيح .

(٣) أحمد " المسند " (ج ١٧ / ص ٣٦٩ / رقم ٢٤٤٤٧) والمراد بالقميص الخلافة .

على مثلك" (١).

ولا يستبعد أنه قُتِل في حادثة الجمل بعض من يُتهم في دم عثمان - رضي الله عنه - ومَن أعان عليه ومالاً على دمه ، فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي حفص ، قال : " سمع عليّ يوم الجمل صوتاً تلقاء أمّ المؤمنين ، فقال : انظروا ما يقولون ، فرجعوا فقالوا : يهتفون بقتلة عثمان ، فقال : اللهم احلل بقتلة عثمان خزيّاً" (٢) فمن دعائهم وسؤاله أن يخزهم الله في هذا اليوم بالقتل يفهم أنّ كلا الطرفين ليس عنده أدنى شك في أنّ قتلة عثمان - رضي الله عنه - هم الذين أنشبو القتال ، وأتهم وراء كلّ شرّ وبلاء ، وأتهم اختلطوا في الفريقين .

وهذا الحدث الجلل يُستفاد منه الحذر من الأيدي الخفيّة التي كانت وما زالت توقع بين المسلمين ، والحذر من الألسن والأقلام التي تثير الحفائظ ، وتؤرغ الصدور !
الرّدّ على من احتجّ على خروج عائشة بقوله تعالى :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴾ [الأحزاب]

ولمّا ظهر عليّ - رضي الله عنه - جاء إلى عائشة - رضي الله عنها - ، فقال : " غفر الله لك ، قالت : ولك ، ما أردتُ إلاّ الإصلاح" (٣).

وأخرج عبد الرزاق في المصنّف بسند منقطع قول عائشة - رضي الله عنها - : " إنّي أريد أن يحجز بين الناس مكاني ، قالت : ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال ، ولو علمتُ ذلك لم أقف ذلك الموقف أبداً" (٤) أي كانت تعتقد أن مكاتها تكون حاجزاً بين الناس من

(١) ابن خلدون "المقدمة" (ص ٢١١) وشيبه بذلك قول عبد الملك بن مروان : "أنصفونا يا معشر الرعيّة ، تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر ! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعيّة أبي بكر وعمر" ابن قتيبة "عيون الأخبار" (م/١ ص ٦٢).

(٢) ابن أبي شيبة "مصنّف ابن أبي شيبة" (ج ١٥ ص ٢٧٧ / رقم ١٩٦٥٦).

(٣) ابن عماد "شذرات الذهب" (ج ١ ص ٢٠٦).

(٤) الصنعاني "المصنّف" (ج ٥ ص ٤٥٧ / رقم ٩٧٧٠).

فعدرها - رضي الله عنها - أنها كانت تريد الإصلاح ، وكانت متأولةً لقوله تعالى : ﴿ لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء]

فخروجها طاعة لا خروج معصية ، وهذا فيه ردُّ على من حمل على خروج عائشة - رضي الله عنها - واحتجَّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴾ [الأحزاب] وقوله ﷺ لنسائه عام حجة الوداع : " هذه ثمَّ ظهور الحُصْر " (١) .

فإن خروج الطاعة لا ينافي أمر الله ورسوله بالعودة ، وليس في الآية أو الحديث الشريف أمر بالعودة عن الحج أو الإصلاح بين الناس ، أو ما فيه مصلحة للمسلمين ، فاحتجاجهم بالآية أو الحديث الشريف على المنع مطلقاً ليس صحيحاً ، وقد كان معها محرماً عبد الله بن الزبير بن العوام ، إذ أن عائشة - رضي الله عنها - تكون خالته ؛ فوالدة عبد الله بن الزبير هي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين أخت عائشة .

أيضاً لو كان في خروجها معصيةً لله تعالى ما أخبر النبي ﷺ أنها زوجته في الآخرة ، أخرج البخاري عن الحكم عن أبي وائل قال : " قام عمار على منبر الكوفة فذكر عائشة ، وذكر مسيرها ، وقال : إنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة " (٢) .

ولو كان في خروج من كان معها مثل طلحة والزبير معصية لله ما أخبر النبي ﷺ أنهم شهدان فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : " أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير ، فتحرّكت الصخرة ، فقال رسول الله ﷺ : اهدأ ؛ فما عليك إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد " (٣) فكيف يحكم ﷺ أن

(١) أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة " المسند " (١٨م / ص ٣١٥ / رقم ٢٦٦٣٠)

(٢) البخاري " الصحيح " (٤م / ج ٨ / ص ٩٧) كتاب الفتن .


(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م / ج ١٥ / ص ١٩٠) كتاب فضائل الصحابة .

عائشة زوجته في الآخرة ، وأنّ طلحة والزبير شهدان لو كان في خروجهم معصية لله ، أو كان في خروجهم دغل أو غش أو خروج على الخليفة !؟

وهذا يدلّك على سلامة نيّة الصّحابة في الخروج ، وأنّهم لم يخرجوا لدنيا يصيبونها ، وحسبهم قول النبيّ ﷺ : " إنّها الأعمال بالنيّات ، وإنّما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ... " ^(١) وحسبهم قوله ﷺ : " عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير وليس ذاك إلاّ للمؤمن " ^(٢) .

ندم عائشة - رضي الله عنها - على خروجها ودلالته

وقد ندمت عائشة - رضي الله عنها - على خروجها ، أخرج الحاكم عن هشام وقيس عن عائشة ، قالت : " وددت أنّي كنت تكلت عشرة مثل الحارث بن هشام ، وأنّي لم أسر مسيري مع ابن الزبير " ^(٣) وندمها - رضي الله عنها - يدلّ على أنّ خطأها في الاجتهاد من الخطأ المغفور المأجور !

ولما سُئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خروجها برّرت واعتذرت ، فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند حسن عن عبيد بن سعد ، عن عائشة ، أنّها سُئلت عن مسيرها ، فقالت : " كان قدراً " ^(٤) ومن لم يسعه ذلك فليسعه قولُ الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ... ﴾  [الأعراف] فمن بقي له شيء بعد ذلك عند الله فليطلبه !

وقد لفت انتباهي أنّ عائشة - رضي الله عنها - لها مع الجمل حكایتان : الأولى يوم خرجت مع النبيّ ﷺ في غزوة غزاهما ، فنزلت عن الجمل فمشت حتّى جاوزت الجيش ، فلما

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ٨ج / ٥٩) كتاب الحيل .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م / ٩ج / ١٨) كتاب الزهد .

(٣) الحاكم " المستدرک " (ج ٣ / ص ١١٩) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٤) ابن أبي شيبة " مصنّف ابن أبي شيبة " (ج ١٥ / ص ٢٨١ / رقم ١٩٦٦٥) كتاب الجمل .

قضت من شأنها أقبلت إلى الرَّحْلِ فلمست صدرها فإذا عقدها قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدها فحبسها ابتغاؤه ، فكان ما كان من حديث الإفك حتى برّأها الله ممّا قالوا .

والثانية : لما خرجت إلى البصرة تركب جملها لتصلح بين النَّاس فكان ما كان في حادثة الجمل ، وحسب عائشة - رضي الله عنها - شرفاً أنّها خلقت طيبة ووعدت بمغفرة ورزق كريم ، قال تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التور] فشهد الله لها أنّها في الجنة ! ﴿ فَأَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف].

الرَّدُّ عَلَى مَنْ طَعَنَ عَلَى عَائِشَةَ بِقَوْلِهِ ﷺ " لَنْ يَفْلَحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ "

هذا الحديث الشريف لم يعن به النبي ﷺ عائشة - رضي الله عنها - ، وإنّما قاله ﷺ لما بلغه أنّ فارساً ملكوا ابنة كسرى بعدما هلك كسرى ، فقد أخرج البخاري عن أبي بكره ، قال : " نفعتني الله بكلمة أيام الجمل ، لما بلغ النبي أنّ فارساً ملكوا ابنة كسرى ، قال : لن يفلح قومٌ ولو أمرهم امرأة " (١).

وظاهر الكلام يوهّم بأنّ أبا بكره - رضي الله عنه - يضعف رأي عائشة - رضي الله عنها - في خروجها ، وليس الأمر كذلك ؛ فالمشهور أنّه كان على رأي عائشة في طلب الإصلاح ، لكنّه لما رأى ما آلت إليه الأمور اعتزل القتال مستفيداً من حديث النبي ﷺ في حقّ ابنة كسرى ، وغلب على ظنه أنّهم سيغلبون على أمرهم .

فإن قال قائل : لكنّ الحديث يفهم منه العموم ؛ لأنّ كلاً من كلمة (قوم) وكلمة (امرأة) : نكرة وقعت في سياق التّفني فتعمّم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب ، كما هو معلوم في الأصول ؟ فالجواب : أنّ المراد بالولاية : الولاية العامّة لا الولاية الخاصة ، والصّحابة لا يجهلون أنّ المرأة لا تتولى الإمارة ، وعائشة لم تكن تتولى إمرة أحد من المسلمين لا ولاية عامّة ولا خاصّة ! والروايات التي تصوّر عائشة أنّها كانت تقود جيشاً لا تصحّ .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/ص ٩٧) كتاب الفتن .

فإن قالوا : لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : " يخرج قوم هلكى لا يفلحون قائدهم امرأة " فالجواب أنَّ هذا حديث منكر لا يصحَّ عن رسول الله ﷺ والهلكى هم الَّذِينَ وضعوا هذا الحديث الهالك ، فقد ذكره الألباني في " سلسلة الأحاديث الضَّعيفة " ، وقال : " منكر " (١) . وذكره الهيثمي في " مجمع الزَّوائد " وقال : " رواه البزار ، وفيه عمر بن الهجنع ذكر الذهبي في ترجمته هذا الحديث في منكراته " (٢) .

تَجَنُّبُ الصَّحَابَةِ لِلْقِتَالِ

حتَّى الَّذِينَ شهدوا الفتنة من الصَّحابة - رضي الله عنهم - كانوا حريصين على عدم القتال ، ويشهد لذلك ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت ، قال : " ما زال جدِّي كافأ سلاحه يوم الجمل حتَّى قُتِلَ عَمَّارُ بَصْفَيْنَ ، فَسَلَّ سَيْفَهُ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : تقتل عَمَّاراً الفئئة الباغية " (٣) أي أنَّه لم يقاتل في الجمل ولا في صفين حتَّى تبيَّن له الحقُّ فقاتل عن بيِّنة .

وروى البخاري عن أبي حميلة قال : " قال محمد بن طلحة لعائشة يا أمَّ المؤمنين ، يوم الجمل ، فقالت : كن كخير ابني آدم ؛ فأغمد سيفه بعد ما سلَّه ، ثمَّ قاتل حتَّى قُتِلَ " (٤) . أي كُنُّ المَقْتُولِ ولا تُكُنُّ القاتِلَ ، وهذا يدلُّك على أنَّ عائشة - رضي الله عنها - كانت تنهَى عن القتال ولا تأمر به .

حتَّى الخليفة عليّ - رضي الله عنه - كان يتجنَّب القتال كيلاً يُصِيبَ دماً حراماً ففي " المطالب العالية " بسند صحيح عن سليمان بن صرد ، قال : جئت إلى الحسن - رضي الله عنه

(١) قال الألباني : مُنْكَرٌ " سلسلة الأحاديث الضَّعيفة " (٢م/١٦ ص / رقم ٥٣١) .

(٢) الهيثمي " مجمع الزَّوائد " (ج٧/ ص ٢٣٤) .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٦/ ص ١٢١ رقم ٢١٧٧٠) والحاكم في " المستدرک " (ج٣/ ص ٣٩٧) كتاب معرفة الصَّحابة .

(٤) البخاري " التَّاريخ الأوسط " (ص ٤٦ / رقم ٣٣٧) .

- فقلت : " اعذرني عند أمير المؤمنين ؛ حيث لم أحضر الواقعة ، فقال الحسن - رضي الله عنه :- ما تصنع بهذا ، لقد رأيتُه يلوذُ بي وهو يقول : يا حسن ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة ! " (١).

وكذلك طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام تجنبًا القتال ، فالمشهور أتهما لم يقاتلا ، فأما طلحة فأصابه سهم أول الأمر فقتل مظلوماً شهيداً ، وأما الزبير فرجع تاركاً للقتال فقتل مظلوماً شهيداً بوادي السباع^(٢) قرب البصرة مُنصرفاً في طريقه إلى المدينة تاركاً للقتال ، قتله ابن جرْموز غدرًا وغيلة .

ويؤيد هذا أن ابنُ جرْموز لما استأذن بالدخول على الخليفة وكان في اعتقاده أنه سينال حظوة عند الخليفة ، قال عليّ - رضي الله عنه - يومها : " بشر قاتل ابن صفية بالنار " أخرجه أحمد والحاكم^(٣) بسند صحيح عن زر بن حبيش .

حادثة الجمل لم تقع بدافع العصبية

لم يكن في اعتقاد عائشة - رضي الله عنها - ومن معها أن فتنة ستقع ، ولم يخطر ببال أحد منهم أنه سيكون قتال بين المسلمين ، خلافاً لما يصوره البعض من أن خروجهم كان لقتال عليّ الذي تهاون في محاسبة قتلة عثمان بزعمهم ، وأن خروجهم لا يسلم من العصبية والأهواء والمطامع والتنازع على الملك وغير ذلك من الافتراء على الصحابة - رضي الله عنهم - !

وتما يدلُّك على أن حادثة الجمل لم تقع عن عصبية ، ولم تحدث بتدبير من عائشة أو

(١) ابن حجر " المطالب العالية " (١٨م / ١٤٤ ص / رقم ٤٤٠٦) وقال المحقق : صحيح بهذا الإسناد ، ورواته ثقات .

(٢) وادي السباع : الذي قُتل فيه الزبير بن العوام ، بين البصرة ومكة ، بينه وبين البصرة خمسة أميال . ياقوت " معجم البلدان " (ج ٥ / ص ٣٤٣) .

(٣) أحمد " المسند " (ج ١ / ص ٤٦٤ / رقم ٦٨١) والحاكم في " المستدرک " (ج ٣ / ص ٣٦٧) كتاب معرفة الصحابة ، وانظر " كتاب الثقات " (ج ٢ / ص ٢٨٣) و " تاريخ خليفة بن خياط " (ص ١٨٦) .

عليّ أن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة ، أختا عائشة - رضي الله عنها - ، شهد الجمل مع عائشة وأخوه محمد مع عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - . قال الحافظ : " عبد الرحمن بن عبد الله وأمه أم رومان والدة عائشة ... شهد وقعة الجمل مع عائشة ، وأخوه محمد مع عليّ " (١) .

أثر استشهاد طلحة والزبير في نفس عليّ

أخرج خليفة عن عمر بن جاوران ، قال : " سمعت الأحنف بن قيس ، قال : لما التقوا كان أول قتيل طلحة بن عبيد الله ، وخرج كعب بن سور من البصرة معه المصحف ناشره بين الصّفين يُناشدُ النَّاسَ في دمائهم فقتل وهو بتلك الحالة " (٢) .

وكان النبي ﷺ قد أخبر في حياته : أن عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير شهداء ، فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : " أن رسول الله ﷺ كان على جرّاء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة ، فقال رسول الله ﷺ : اهدأ ؛ فما عليك إلا نبيّ ، أو صديق ، أو شهيد " (٣) .

والحديث يفهم منه أن من قُتل ظلماً فهو شهيد في أحكام الآخرة وما أعدّه الله للشهداء من ثواب ، والحديث من معجزات النبوة ؛ فقد قُتل عمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير ظلماً ، فماتوا شهداء - رضي الله عنهم - .

وقد كان لاستشهاد طلحة والزبير - رضي الله عنهما - أثرٌ بالغ في نفس عليّ - رضي الله عنه - ، ففي " مجمع الزوائد " عن طلحة بن مصروف يحدث : " أن عليّاً انتهى إلى طلحة بن عبيد الله وقد مات ، فنزل عن دابته وأجلسه ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ولحيته ، وهو

(١) ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج٤ / ص١٦٨ / رقم ٥١٤٣)

(٢) خليفة " تاريخ خليفة بن خياط " (ص١٨٥) وابن حجر " الإصابة " (٣م/ج٥ / ص٣٢٢ / رقم ٧٤٨٧) .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج١٥ / ص١٩٠) كتاب فضائل الصّحابة .

يترحمُ عليه ، وهو يقول : ليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة ^(١).

وأخرج أحمد بسند صحيح عن زرّ بن حُبَيْش ، قال : استأذن ابن جُرْمُوز على عليّ ، فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن جُرْمُوز يستأذن ، قال : ائذنوا له ، ليدخل قاتلَ الزبير النَّار ^(٢).

براءة مروان من دم طلحة

أما قَتْلُ طلحة فَيَتَّهِمُ فيه مروان بن الحكم ، فقد أخرج خليفة في تاريخه عن ابن سيرين ، قال : " زُمي طلحة بسهم فأصاب ثغرة نحره . قال : فأقرّ مروان أنّه رماه " ^(٣) وفي طبقات ابن سعد عن جويرية بن أسماء ، عن نافع ، قال : " ... نظر (مروان) إلى طلحة بن عبيد الله واقفًا ، فقال : والله إن دم عثمانٍ إلّا عند هذا ، هو كان أشدّ النَّاس عليه وما أطلب أثرًا بعد عين . ففوق ^(٤) له بسهم فرماه فقتله " ^(٥).

وقد أنكر ابن العربيّ هذا الحديث ، فقال : " وقد روي أنّ مروان لما وقعت عينه في الاصطفا على طلحة ، قال : لا نطلب أثرًا بعد عين ، ورماه بسهم فقتله . ومن يعلم هذا إلّا علام الغيوب ، ولم ينقله ثبّت ؟ " ^(٦) ووافقه المحقّق محبّ الدّين الخطيب ، وقال : " وهذا الخبر عن طلحة ومروان (لقيط) لا يعرف أبوه ولا صاحبه . وما دام لم ينقله ثبت بسند معروف عن رجال ثقات فإنّ للقااضي ابن العربيّ أن يقول بملء فيه : ومن يعلم هذا إلّا علام

(١) الهيثمي " مجمع الزوائد " (ج٩/ص١٥٠) وقال الهيثمي : رواه الطبراني بإسناد حسن . وأخرج نحوه الحاكم في " المستدرک " (ج٣/ص٣٧٢) وأبو شيبة في " مصنف بن أبي شيبة " (ج١٥/ص٢٦٩/رقم١٩٦٤٢).

(٢) أحمد " المسند " (ج١/ص٤٦٣/رقم٦٨٠).

(٣) خليفة " تاريخ خليفة بن خياط " (ص١٨٥).

(٤) فوق السهم : موضع الوتر فيه .

(٥) ابن سعد " الطبقات الكبرى " (٥م/ص٣٨) وذكر نحوه ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٣م/ص٢٢٣).

(٦) ابن العربيّ " العواصم من القواصم " (ص١٦١).

الغيوب؟! " (١).

قلت : وقد حكم على صحّة هذا الخبر ثلاثة من الأئمة الأعلام : ابن حجر ، والذهبي ،
والهيثمي .

قال الحافظ ابن حجر :

" أخرج أبو القاسم البغوي بسند صحيح عن الجارود بن أبي سبرة ، قال : لما كان
يوم الجمل نظر مروان إلى طلحة فقال : لا أطلب ثأري بعد اليوم ، فترع له بسهم فقتله ،
وأخرج يعقوب بن سفيان بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم أنّ مروان بن الحكم رأى
طلحة في الخيل ، فقال : هذا أعان على عثمان فرماه بسهم في ركبته ، فما زال الدّم يسبح حتّى
مات " (٢). وأخرج نحوه الحاكم في "المستدرک" (٣) وحكّم عليه الذهبي بالصّحّة في تلخيص
المستدرک.

كما صحّح هذا الخبر الهيثمي من رواية الطّبراني عن قيس بن أبي حزام ، قال : " رأيت
مروان بن الحكم حين رمى طلحة يومئذ بسهم فوقع في يمين ركبته ، فما زال يسبح إلى أن
مات " (٤).

وأخرجه خليفة من طريق جويرية بن أسماء ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمّه ، قال :
" رمى مروان طلحة بن عبيد الله بسهم ، ثمّ التفت إلى أبان بن عثمان ، فقال : قد كفينك بعض
قتلّة أبيك " (٥).

(١) ابن العربيّ " العواصم من القواصم " (ص ١٦١).

(٢) ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج ٣/ص ٢٩٢/رقم ٤٢٥٩).

(٣) الحاكم "المستدرک" (ج ٣/ص ٣٧٠) كتاب معرفة الصّحابة.

(٤) وقال الهيثميّ : رواه الطّبرانيّ ورجاله رجال الصّحيح "مجمع الزّوائد" (ج ٩/ص ١٥٠) وهو في "
المعجم الكبير" للطبراني كما ذكر (١م/ص ٧٢/رقم ٢٠١).

(٥) خليفة " تاريخ خليفة بن خيّاظ " (ص ١٨٥) وأورده الذهبي في " سير أعلام النبلاء " =

قلت : وهذا الحديث لا يَصِحُّ متناً حتى لو صحَّ سنداً ؛ فليس كلَّ صحيح سنداً ينبغي أن يكون صحيحاً متناً ، بل يشترط سلامة الحديث من مبدئه إلى منتهاه ، من غير شذوذ ولا علة . وهذا مما لا يجمله الحافظ - رحمه الله - ولا غيره من النقاد ، ولكنه لم ينظر إلى متنه معرفة منه أنّ صحّة الإسناد لا يلزم منها صحّة الحديث ، قال ابن الصّلاح : " والحكم بالصّحّة أو الحُسن على الإسناد لا يلزم منه الحُكم بذلك على المتن ، إذ قد يكون شاذّاً أو معلّلاً " (١).

ويدلّك على بطلان المتن أمور خمسة :

الأوّل : أنّ مروان بن الحكم وطلحة بن عبيد الله في صَفِّ واحد ، قال ابن حجر : " مروان بن الحكم ... شهد الجمل مع عائشة ، ثمّ صَفِّين مع معاوية ، ثمّ ولي إمرة المدينة لمعاوية " (٢) فكيف يقتله وهو في صَفِّه !؟

الثاني : كيف يَسْتَحِلُّ مروان قتل طلحة وهو أحد العشرة المبشرين بالجنّة ، بدعوى أنّه من قتلة عثمان ، ومروان أعلم النَّاس بقتلة عثمان ، فقد كان مع عثمان يوم الدّار وشهد حَصْرَه ، وكان من المدافعين عنه ومن آخرهم خروجاً من عنده يوم قتل - رضي الله عنه - ، وقتلته من المنافقين كما أخبر عثمان - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ ومروان لا يجهل ذلك لقربه من عثمان ، وهو كاتبه ، أخرج خليفة بسند صحيح عن عبد الرّحمن بن مهدي ، عن حصن بن أبي بكر ، عن يحيى بن عتيق ، عن محمّد بن سيرين ، قال :

" انطلق الحسن ، والحسين ، وابن عمر ، وابن الزّبير ، ومروان ، كلهم شاكِّ في السّلاح حتى دخلوا الدّار ، فقال عثمان : " أعزّم عليكم لما رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتهم بيوتكم ، فخرج ابن عمر والحسن والحسين ، فقال ابن الزّبير ومروان : ونحن نعزم

= (ج ١/ص ٣٦) عن خليفة بن خياط ، وقال المحقّق : إسناده صحيح كما قال الحافظ في " الإصابة " .

(١) ابن كثير " الباعث الحثيث " (ص ٤٨) .

(٢) ابن حجر " الإصابة " (٣م / ج ٦/ص ١٥٦ / رقم ٨٣١٢) .

على أنفسنا أن لا نبرح"^(١).

الثالث : كيف يَسْكُتُ معاويةٌ عن فِعْلَةِ مروان بن الحكم وهي من الموبقات السبع ولا يَحْقُقُ عليه ، ويجعله في صَفِّهِ ، ويؤيِّه إمرة المدينة بعد ذلك؟! وكيف يرضى أهل المدينة بإمرته وفيهم الصَّحابة أمثال عبد الله بن عمر ، وعائشة ... ، وهذا فيه تخطئة للصَّحابة - رضي الله عنهم - ، كما أنه لم ينقل عن عائشة - رضي الله عنها - أنها أنكرت على مروان ذلك ، ونحن نعلم أن مروان كان معها في حادثة الجمل ، وكانت في المدينة يوم كان مروان على إمرتها .

الرَّابع : لو صحَّت هذه الروايات من أن مروان قتل طلحة بزعم أنه من قتلة عثمان ، فإنَّ سكوت عائشة وعليّ يومها على قَوْلِ وفِعْلِ مروان فيه إقرار بصحَّة دعواه من أن طلحة من قتلة عثمان ! وهذا أظهر ما يردُّها ؛ فكيف يقتل طلحة عثمان وكان النَّبِيُّ ﷺ قد بشره بالجنَّة؟! .

الخامس : أن مروان بن الحكم بن أبي العاص من كبار التابعين ، أرسل عن النَّبِيِّ ﷺ ، وروى عن غير واحد من الصَّحابة منهم عمر وعثمان وعليّ ، وروى له البخاري وأبو داود والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وقرَّنه البخاري بالمسور بن مخرمة في روايته عن الزَّهري عن عروة عنهما في حديث الحديبية بطوله ، فلو أن مروان قتل طلحة لكانت من موبقاته التي تكفي أن يتوقَّف البخاري عن ذكره في صحيحه . ومروان لا يُتَّهم في حديثه ولم يجرَّحه أحدٌ ، ولو كان شيء من ذلك لتداولته كتب الجرح والتعديل بالتضعيف .

وفي " تاريخ دمشق " أن طلحة أصيب بسهم غَرَب أي أناه سهم طائش من حيث لا يدري ، فلا يُعرَف راميهِ ولا من أين أتى وهذا هو الرَّاجح ، قال ابن عساكر : " ... سنة ست وثلاثين وفيها قُتِلَ طلحة بن عبيد الله في المعركة أصابه سهم غَرَب فقتله "^(٢).

(١) خليفة " تاريخ خليفة بن خيَّاط " (ج ١/ ص ١٨٨) .

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج ٢٥/ ص ١٢٢) .

عدد قتلى الجمل وزمن القتال ودلالته

الرّواية عند الطّبري عن عدد قتلى الجمل أنّهم عشرة آلاف ، وأنّه قُتل من بني عدّي يومئذ سبعون شيخاً كلّهم قد قرأ القرآن ، وأنّ عائشة - رضي الله عنها - ما زالت ترجو النّصر حتّى خفيت أصوات بني عدّي . وكلّ هذا لا يصحّ ، فقد أخرج الطّبري من طريق سيف ، وهو ضعيف ، فضلاً عن أنّ المتن فيه اضطراب .

فقد أخرج الطّبري عن شعيب ، عن سيف ، عن محمّد وطلحة ، قالوا : " كان قتلى الجمل حول الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب عليّ ونصفهم من أصحاب عائشة : من الأزديّ ألفان ، ومن سائر اليمن خمسمائة ، ومن مضر ألفان ، وخمسمائة من قيس ، وخمسمائة من تميم ، وألف من بني ضبّة ، وخمسمائة من بكر بن وائل " ^(١) قلت : وانظر إلى المجموع ، فإنّه لا يساوي عشرة آلاف ، وهذا يدلّك على تهليل المتن واضطرابه . أيضاً الرّواية عند الطّبري في تعيين عدد من خرّج مع عائشة تتحدّث - كما تقدّم - أنه خرج معها ألف أو ثلاثة آلاف ، فكيف يُقتل من أصحاب عائشة - رضي الله عنها - خمسة آلاف؟!

ثمّ ذكر الطّبري بعد ذلك - دون سند - أنّه قيل : " قُتل من أهل البصرة في المعركة الأولى خمسة آلاف ، وقُتل من أهل البصرة في المعركة الثّانية خمسة آلاف ، فذلك عشرة آلاف قتل من أهل البصرة ، ومن أهل الكوفة خمسة آلاف " ^(٢) ورواية المجاهيل لا تصحّ قولاً واحداً ؛ فلا ينظر إلى أيّ متن إذا لم يصحّ إسناده بدليل .

ثمّ رجع الطّبري إلى سنده الأوّل عن سيف ، ومحمّد وطلحة قالوا : " وقُتل من بني عدّي يومئذ سبعون شيخاً كلّهم قد قرأ القرآن ، سوى الشّباب ومن لم يقرأ القرآن ، وقالت عائشة - رضي الله عنها - ما زلت أرجو النّصر حتّى خفيت أصوات بني عدّي " ^(٣) .

(١) الطّبري : " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٣/ ص ٥٤٣) .

(٢) المرجع السّابق .

(٣) المرجع السّابق .

قلت : وهذه الرواية باطلة سنداً ، ومدار بطلان سندها على سيف ، أما بطلان متنها فَمَرَدُّهُ إلى اتهام أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تنطوي على غِلٍّ للمسلمين ، وتشتهي النَّصر ولو كان ثمنه قتل القراء ، وحفظه القرآن ، وهذا باطل بداهة ! وهذا كلام مَنْ قَصَّرَ نظرُهُ عن معرفة عدالة الصَّحابة ؛ فالصَّحابة - رضي الله عنهم - أبرُّ النَّاسِ قلوباً ، وأصلحهم أنفوساً ، وأعمقهم إيماناً ، وأرسخهم علماً ، وأصدقهم خوفاً من الله تعالى ؛ ولذلك اختارهم الله تعالى لصحبة نبيِّهِ ﷺ ، ونقل دينه ، فكانوا وربَّ النَّاسِ مثلاً للنَّاسِ ، لكن من تأخر منهم ابتلي بِحُثَالَةٍ من النَّاسِ !

والصَّحابة - رضي الله عنهم - قطع الله عنهم العمل ولم يقطع عنهم الأجر ، فذهبوا بالأجور ، وما انقطعت أجورهم ؛ فهذه السنن التي بين أيدينا ، لهم أجرها ، وأجر من عمل بها حتَّى تقوم السَّاعة ! ومن ذكرهم بسوء ولو بِشَطْرٍ كلمة فإنَّها يهديهم حسناته ، إن كانت له حسنات !

وأخرج الطَّبْرِي عن مُحَمَّد بن الفضل ، عن سعيد القطعي ، قال : " كُنَّا نتحدَّث أن قتلي الجمل يزيدون على ستة آلاف " ^(١) وإسناده ضعيف لكذب مُحَمَّد بن الفضل ، قال ابن حجر : " مُحَمَّد بن الفضل بن عطية الخراساني ، كذَّبوه " ^(٢).

وأخرج خليفة عن كهَمَس ، عن سعيد ، عن قتادة ، قال : " قُتِلَ يوم الجمل عشرون ألفاً " ^(٣) وإسناده ضعيف : كهَمَس بن المُنْهَال السَّدوسي ، قال عنه ابن حجر : " صدوق رمي بالقدر " ^(٤) وقال عنه الذهبي : " اتهم بالقدر ، وله حديث منكر أدخله البخاري من أجله في كتاب الضَّعفاء وقال أبو حاتم : محله الصدق " ^(٥) وسعيد هو ابن أبي عروبة : مهراَن اليشكري

(١) الطَّبْرِي : " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٣ / ص ٥٤٧).

(٢) ابن حجر " تقريب التَّهذيب " (ص ٥٠٢ / رقم ٦٢٢٥).

(٣) خليفة " تاريخ خليفة بن خياط " (ص ١٨٦).

(٤) ابن حجر " تقريب التَّهذيب " (ص ٤٦٢ / رقم ٥٦٧١).

(٥) الذهبي " المغني في الضَّعفاء " (٢م / ص ٢٣٢ / رقم ٥١١٣) وانظر ترجمته في " كتاب الضَّعفاء =

قال عنه الحافظ: " كثير التدليس واختلط وكان من أثبت الناس في قتادة"^(١) و قتادة لم يدرك الحادثة.

وقد أورد خليفة بياناً بأسماء من حُفظ من قتلى الجمل فكانوا قرابة المائة^(٢). وهذا يؤكد قلة عدد القتلى ، وهذا ليس غريباً فلم يكن أحد من الفريقين يهاجم الآخر ، وإنما كان يدفع عن نفسه ، والمشهور أن الصحابة كانوا يتجنبون القتال وينهون عنه.

ومما يدل على قلة عدد قتلى الجمل قصر زمن القتال يومها ، فقد نشب القتال بعد الظهر وانتهى مع غروب الشمس ، أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن زيد بن وهب أن القتال نشب بعد الظهر قال : " فكفّ عن طلحة والزبير وأصحابهما ، ودعاهم حتى بدؤوه فقاتلهم بعد صلاة الظهر ، فما غربت الشمس وحول الجمل عين تطوق ممن كان يدب عنه ، فقال عليّ : لا تتموا جريماً ، ولا تقتلوا مدبراً ، ومن أغلق بابه وألقى سلاحه فهو آمن ، فلم يكن قتالهم إلا تلك العشيّة وحدها"^(٣).

الأسباب التي جعلت حادثة الجمل تؤلم المسلمين عبر التاريخ !

مع أن حادثة الجمل ما هي إلا فتنة دامت ساعات معدودات ، إلا أنها أوجعت المسلمين عبر التاريخ لأسباب ثلاثة :

الأول : كونها أول قتال يقع بين المسلمين ، والثاني : بسبب ما نتج عن هذه الحادثة من استشهاد اثنين من كبار الصحابة ، وهما طلحة والزبير - رضي الله عنهما - ، والثالث : نتيجة نقلها من رواية لا يعتد بهم ، أو نقلها دون سند تعرف به ، فهذا اليعقوبي مثلاً يقول : " كانت

= الصغير " للبخاري (ص ١٠١) .

(١) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ٢٣٩ / رقم ٢٣٦٥).

(٢) خليفة " تاريخ خليفة " (ص ١٨٧ - ١٩٠) .

(٣) ابن أبي شيبة " مصنف ابن أبي شيبة " (ج ١٥ / ص ٢٨٦ / رقم ١٩٦٧٩) وصححه الحافظ في " فتح الباري " (ج ١٣ / ص ٤٨) وقال: أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح.

الحرب أربع ساعات من النهار ، فروى بعضهم أنه قُتِلَ في ذلك اليوم نيف وثلاثون ألفاً^(١) وهذا لا يصحّ نقلاً ولا عقلاً ؛ فالقتال أربع ساعات بالسيوف لا يوقع هذه الأعداد من القتلى! وقد يقول قائل لكنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخبر أنّه : " يقتل عن يمينها وعن شأها قتلى كثيرة"^(٢) فالجواب نعم ولكن ليس بهذه الكثرة المبالغ بها ! ولا غرو أنّ المبالغة من علامات الوضع التي تُعرف بها الروايات الباطلة .

الثناء على عائشة قبل موتها على لسان ابن عباس

لما حضرت عائشة - رضي الله عنها - الوفاة استأذن ابن عباس - رضي الله عنه - عليها وهي تموت ، فأثنى عليها ، فلما خرج من عندها وافق خروجه دخول ابن الزبير ، فأخبرته عن دخول ابن عباس وثنائه عليها ، وقالت : " وددت لو كنت نسيماً منسياً " وهذا على عادة أهل التقي والورع !

أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة ، قال : " استأذن ابن عباس - قبل موتها - على عائشة ، وهي مغلوبةٌ ، قالت : أحشى أن يثني عليّ ، فقيل : ابن عمّ رسول الله ﷺ ومن وجوه المسلمين ، قالت : ائذنوا له ، فقال : كيف تجديتك ؟ قالت : بخير إن اتقيتُ الله ، قال : فأنتِ بخير إن شاء الله ؛ زوجةُ رسول الله ﷺ ، ولم ينكحُ بكرةً غيرك ، ونزل عذرك من السماء ، ودخل ابن الزبير خلفه ، فقالت : دخل ابن عباس ، فأثنى عليّ ، وددتُ أني كنتُ نسيماً منسياً"^(٣) .

وأخرج البخاري عن القاسم بن محمد أن عائشة اشتكت ، فجاء ابن عباس ، فقال :

(١) اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي " (٢م/ص ٨١) .

(٢) ابن حجر " فتح الباري " (ج ١٣/ص ٤٥) وقال ابن حجر : رواه البزار ورجاله ثقات . وأورده الهيثمي في " مجمع الزوائد " (ج ٧/ص ٢٣٤) وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٦/ص ١٠) كتاب تفسير القرآن ، وانظر " الرّصف " لابن العاقولي (٢م/ص ٢١٢) .

"يا أم المؤمنين ، تقدمين على فرط صدق على رسول الله وعلى أبي بكر"^(١).

وابن عباس - رضي الله عنه - يريد بهذه الكلمات أن يبشّرها بمنزلتها في الجنة ، وقوله لها : " على فرط صدق " يعني رسول الله ﷺ ، وأبا بكر ؛ لأنّ قوله " رسول الله ... " بدل من فرط صدق ، وأضافهما إلى الصدق وصفاً لهما ومدحاً . والمعنى أنّك ستلحقين بالأحبة ، فقد سبقاك وهيا لك المنزل في الجنة ، فافرحي يا عائشة .

وهذه الشهادة عندما تأتي من عبد الله ابن عباس لها دلالتها ؛ لقربه من عليّ ، فما كان ليشهد لها - رضي الله عنه - لولا علمه بذلك !

(١) البخاريّ "صحيح البخاريّ" (٢م/ج٤/ص ٢٢٠) كتاب أحاديث الأنبياء .

المبحث الثاني

صاحب الأجر وصاحب الأجرين

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) [الأحزاب]

عُدْرُ معاوية في التّعجيل وعذر عليّ في التّأخير

ماذا جرى في صفين؟ وعلّامَ اختلف معاوية وعليّ؟ وهل سبب الاختلاف يميز الاقتتال؟ وكم دام هذا الاقتتال؟ وكم كان عدد القتلى؟ وما أحقيّة معاوية في الطلب بدم عثمان؟ وأيّ الفريقين كان معه الحقّ؟

هذه الأسئلة وغيرها عزّت إجاباتها الدّقيقة على كثير من النّاس؛ لندرة وتفترق أخبارها الصّحيحة في كُتُب التّاريخ والتّراجم والسّير والمتون والتّخريج والعلل والسّؤالات والشّروح والفقه والتّراجم والطّبقات والبلدان والأنساب... ولا أدعي أنّي أحطتُ بما لم يُحط به أحد من الباحثين، وإنّما هو ما تيسّر من التّقدير وتقدير من التّيسير، والفضل كلّه لله تعالى الذي نسأله أن يهدينا لما اختلف فيه النّاس من الحقّ بإذنه، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦) [النور].

أما ما جرى في صفين، فقد جرى بين فريقين متّأولين مجتهدين: فريق معاوية - رضي الله عنه - صاحب الأجر، وفريق عليّ - رضي الله عنه - صاحب الأجرين.

وكان معاوية يطلب بدم ابن عمه عثمان - رضي الله عنه -، وينكر على عليّ - منعه من اقتضاء حقّه من قتلة عثمان، والتّعجيل في تعقبهم والاقتصاص منهم؛ إقامة لحدود الله لا سيّما أنّ له شوكة عليهم.

وكان عليّ يرى أنّ إقامة القصاص على قتلة عثمان - رضي الله عنه - وعلى مَنْ مَلَأ على دمه حقّ واجب، لكنّ أخذ البيعة من معاوية مُقَدَّم عليه لا سيّما وأنّه عامل على بلاد الشّام

من عهد أبي بكر وعثمان ، أفلا يكون له من الطاعة ما كان للخلفاء من قبله !

ولذلك كان عليّ يرى أنّ على معاوية وأولياء دم عثمان - رضي الله عنه - أن يتحاكموا إليه بعد أن يتوطّد الأمر له ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنّه ممّن قتل الخليفة عثمان - رضي الله عنه - أو مآلاً على دمه ، أو أعان عليه اقتصّ منه .

وعُدُّ عليّ - رضي الله عنه - في تأخيره لإقامة الحدود على هؤلاء البغاة مردّه إلى أمرين:

الأول : أنّه لم يكن يومها من السهل عليه أن يتبيّن هؤلاء البغاة ، بعد أن تفرّقوا في الأمصار . فالذين شغبوا على عثمان - رضي الله عنه - من المنافقين والغوغاء والعامّة والمتورين وأتباع ابن سبأ ، جاؤوا من أمصار مختلفة ، وكانوا كثرة كاثرة ، ولهم قبائل وطوائف تتعصب لهم وتتصر لهم ، وإقامة الحدود عليهم لا تكون خبط عشواء ، فهناك من يبتهم بقتل الخليفة ، وهناك من أعان على دمه ، وهناك من صلّ وغوى ، وهناك جاهل معرّر به لا هو في العير ولا في النّفير ، وهذا يحتاج إلى تحقيق وتدقيق وتروؤ .

الثاني : أنّ البلاد انتقضت وانتفضت بعد مقتل عثمان - رضي الله عنه - فالأمر لم يكن قد توطّد له بعد ، فهو يحتاج إلى قوّة تعينه على أمره ، ولو كان له قوّة ما تأخر في إخضاع البلاد ومحاسبة البغاة على عثمان - رضي الله عنه - . ولا يخفى أنّ للخليفة أن يؤخّر الأحكام إذا كانت المصلحة في ذلك ، هذا عذره - رضي الله عنه - .

ولربّ قائل يقول : ألم يكن لعثمان من هو أولى بالطلب بدمه من معاوية !؟

والجواب : بلى ، كان هناك ولده أبان بن عثمان ، ولكن لم تكن له شوكة كما كانت لمعاوية - رضي الله عنه - ولذلك أقام معاوية نفسه مقام وليّ الدّم ، وهو ابن عمّه ، وقتل ظلماً وعدواناً ، وعثمان يومها مقدّم في الفضل على سائر الصّحابة ، فكيف يقعد معاوية عن نصرته وله قوّة على ذلك ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا ... ﴾ ﴿٣٣﴾ [الإسراء] هذا عذره - رضي الله عنه - .

سبب تشدّد معاوية في الطّلب بدم عثمان

وقد يسأل سائل : ما الحكمة من إصرار معاوية على الاقتصاص من قتلة عثمان في الحال؟ ! أما وسعه أن يطيع أمر الخليفة الذي يرى أن التّريث هو السبيل إلى النيل من قتلة عثمان؟! أم أنّ لمعاوية مآرب أخرى؟

قد يتوهم متوهم أنّ العصبيّة وراء تشدّد معاوية ، فهو يطلب بدم ابن عمّه ، أو أنّ وراء ذلك طلب السّيادة والملك .

أمّا العصبيّة فلا ، فدعوى الجاهليّة عند الصّحابة موضوعة ؛ لأنّ النّبِيَّ ﷺ خطب فيهم يوم عرفة ، وقال : " ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع " (١) وما وَضَعَهُ النّبِيُّ ﷺ وضعه الصّحابة - رضي الله عنهم - ، لكنّه - رضي الله عنه - كان يرى أنّ له سلطاناً ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا ... ﴾ [الإسراء].

وأما الملّك فلا ؛ لأنّ معاوية لا يسأل الإمارة ، فهو يعرف قول النّبِيَّ ﷺ لما خاطب عبد الرّحمن بن سمرة ، وقال له : " لا تسأل الإمارة فإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها " (٢) والصّحابة لا يؤمّرون أحداً يسأل الإمارة أو يحرص عليها ، لقوله ﷺ لرجلين من قوم أبي موسى - رضي الله عنه - : " إنا لا نؤيّي هذا من سأله ولا من حرص عليه " (٣).

ولكنّ وراء تشدّده أمرين فيما نعتقد : ظاهر ، وخفي . أمّا الأمر الظاهر فهو أنّ البغاة على الخليفة عثمان - رضي الله عنه - اجترؤوا على رأس الدّولة ، وهو خير من طلعت عليه الشّمس بعد النّبِيَّ ﷺ وخليفته ، فكأنّ معاوية - رضي الله عنه - لا يرى لنفسه عذراً أمام الله إن تهاون بالطلب في دم عثمان ، والبغاة يرتعون ويلعبون في أرض الهجرة وقبّة الإسلام ودار الإيمان ، لا سيّما وأنّ له شوكة عليهم .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/٨ج/١٨٢) كتاب الحجّ .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/١٠٦) كتاب الأحكام .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/١٠٧) كتاب الأحكام .

أما الخفيّ الذي عَزَّ معرفته على الكثير ممَّن يُتَّقُونَ عن المثالب ولا تعنيهم المناقب فهو أن معاوية كان يخشى من تأخير محاسبتهم أن يستطير شرهم ، وأن يكثر عليهم أمثالهم من المنافقين وأراذل النَّاس ، فيصيب علياً ما أصاب عثمان ، ويستبيحوا بِيَضَّةَ الإسلام مرتين !

نعم كان يخشى على عليّ منهم ، قال الطحاوي : " ثم جرت فتنة صَفِينٍ لرأي ، وهو أن أهل الشَّام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكَّن من العدل عليهم - وهم كافون ، حتَّى يجتمع أمر الأمة ، وأتهم يخافون طُغْيَانَ مَنْ في العسكر ، كما طَعُّوا على الشَّهيد المظلوم " (١).

ولو شاء الله أن يجتمع عليّ ومعاوية على هؤلاء البغاة ما وقعت حادثة الجمل ولا

صفين ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا...﴾ [١٢] ﴿[الأنفال].

وعلى ذلك فإن معاوية محقّ في طلبه ، سليم في نيّته ، لكن عظيم مصابه في عثمان - رضي الله عنه - جعله يتشدّد في طريقة الطّلب بدمه ، إلى حدّ طلب فيه حقاً وقاتل عليه .

من الأدلّة على أنّ علياً ومن معه أولى بالحق من معاوية وصحبه

نحن نعلم أننا أقلُّ من أن نتكلّم فيما جرى بين الصّحابة - رضي الله عنهم - ، فالصّحابة زكاهم الله تعالى ، ومن زكاه الله فقد أغناه عن تزكية أحد . ولذلك لا يحتاج واحد منهم إلى الدّفاع عنه ، لكن كثرة الروايات الباطلة دفعتنا إلى الكشف عن الحق من بين ركام الزّيف ، فالروايات لها زيف مثل زيف الدّراهم ، تحتاج إلى نقد وتمييز .

وحتىّ لا ننتهمُ بالميل إلى معاوية دون وجه حقّ نقول : هناك أدلّة قاطعة على أنّ علياً ومن معه أولى بالحق من معاوية وأصحابه ، منها : أنّ النّبِيَّ ﷺ قال : " تمرُّقُ مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطّائفتين بالحق " (٢) والمارقة هم الخوارج ، وقد وليّ قتلهم عليّ - رضي الله عنه - ومن معه ، فدلّ هذا الحديث على أنّ علياً ومعاوية متعلقان بالحق ولكن علياً الأقرب إليه .

(١) الطحاوي " شرح العقيدة الطحاوية " (ص ٥٤٦).

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج ٧/ص ١٦٨) كتاب الزّكاة.

ومن الأدلة: قول النبي ﷺ لعمار: " وَيَحْ عَمَّارَ تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ " (١) وعمار - رضي الله عنه - كان في صفِّ عليّ - رضي الله عنه - ولم يكن في صفِّ معاوية - رضي الله عنه - .

بطلان خبر رفع المصاحف على الرّماح

وما حدث بين عليّ - رضي الله عنه - بعد أن بويع بالخلافة ، وبين معاوية - رضي الله عنه - الذي كان يومها عاملاً على دمشق ممّا لا يمكن العلم بدقيقه وصغيره ، والقول المفصل فيه قول بلا علم ، لأنّ الأخبار الصّحيحة شحيحة .

فخبر الاقتتال على الماء ، وخبر دعاء عليّ معاوية إلى الطّاعة والجماعة ، وخبر رفع المصاحف على الرّماح والدّعاء إلى الحكومة (الاحتكام) ، جُلُّ هذه الأخبار لا تصحّ ؛ فقد أخرجها الطّبري من طريق أبي مخنف ، وأبو مخنف لا يوثق به ، وستأتي ترجمته ، وأخرج طرفاً من هذه الأخبار من طريق الزّهري ، والزّهري لم يدرك هذه الأحداث .

وسأجتزئ بعض هذه الأخبار المفضوح كذبها لدراستها ، بعد أن أذاعها من أذاعها ، وصدّقها من صدّقها ، فضّل من ضلّ ، وخسّر من خسّر ! ثمّ أسوق بعد ذلك ما صحّ من الأخبار وما يطمئنّ له القلب من الآثار ؛ لأعارض تلك الأخبار وأزّدها .

فقد أخرج الطّبري من طريق أبي مخنف ، أنّ عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرفعوا المصاحف على الرّماح ليقفوا الفرقة في جيش عليّ ، قال أبو مخنف :

" فلما رأى عمرو بن العاص أنّ أمر أهل العراق قد اشتدّ ، وخاف في ذلك الهلاك ، قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ قال : نعم ، قال : نرفع المصاحف ، ثمّ نقول : ما فيها حكم بيننا وبينكم ، فإنّ أبي بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول : بلى ينبغي أن نقبل ، فتكون فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا : بلى نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنّا ، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين فرفعوا المصاحف بالرّماح ،

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٣ ج/٢٠٧) كتاب السير .

وقالوا : هذا كتاب الله بيننا وبينكم" (١).

وهذه الرواية باطلة سنداً لأنها من طريق أبي مخنف ، وهو أخباري تالف ، وباطلة متناً من وجوه :

أحدها : تزعم الرواية أنّ عليّاً كان كارهاً للتحكيم وينهى عنه ، وهذا خلاف الثابت ، فإنّ عليّاً - رضي الله عنه - لما بلغه طلب معاوية التحكيم ، قال : " نعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتابُ الله " (٢) وسيأتي ذلك في موضعه .

الثاني : أنّ كلمة (بلى) الواردة في الرواية وهي حرف جواب مختصة بالنفي ، لا تقع إلاّ بعد نفي في اللفظ أو في المعنى ، سواء اقترنت به أداة استفهام أو لا ، فإن اقترنت به أداة استفهام وكان الاستفهام منفيّاً وأردت الإثبات قلت : بلى ، وإن أردت النفي ، قلت : نعم . وقد استُخدم حرف الجواب (بلى) في الرواية مرّتين استخداماً خاطئاً ، وهذا من علامات الوُضْع ، إذ أنّ الصحابة - رضي الله عنهم - أهل الفصاحة والبلاغة ، وهذا كلام يحتاج أن ترشد صاحبه الذي وضعه ، فقد ضلّ .

الثالث : تزعم الرواية أنّهم لما طلبوا الاحتكام إلى كتاب الله تعالى رفعوا المصاحف على الرّماح ، وهذا خلاف الثابت ، فقد صحّ أنّ عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يرسل إلى عليّ بمصحف مع أحد رجاله يدعوه إلى كتاب الله ، ففي رواية أحمد : " فجاء به رجل ، فقال بيننا وبينكم كتاب الله " (٣) .

وهذا هو اللائق والأولى ، فرواية الطّبري تُوهِمُ أنّ عشرات بل مئات المصاحف رفعت على الرّماح ، ونحن نعلم أنّ المصاحف يومها كانت قليلة ، فالخليفة عثمان - رضي الله عنه - هو الذي جمع النَّاس على مصحف واحد وأمرَ نفرًا من الصحابة بكتابة المصاحف ،

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ٣٤) .

(٢) أحمد " المسند " (م ١٢ / ص ٣٩٩ / رقم ١٥٩١٧) بإسناد صحيح عن حبيب بن أبي ثابت .

(٣) المرجع السّابق .

وأرسل لكلّ مصر مصحفاً ، فمن أين جاؤوا بهذه المصاحف كلّها ، ثم إنّ الأولى أن يُحمل كتابُ الله بالأيدي لا أن يحمل على الرّماح !

الرّابع : لا يصدّق أنّ الصّحابة تخدع بعضها في الله ، فلا يُعقل أن يُظهِر معاوية وعمرو للخليفة عليّ أمراً ويضمّرا خلافه ، ويخدعانه بماذا ؟ يخدعانه بكتاب الله ! هذا قطعاً ليس من أخلاق الصّحابة ، أمّا من ذهب إلى جواز ذلك واستدلّ بقوله : "الحربُ خدعة" ^(١) فإنّ الحديث لا يفهم منه جواز ذلك ، وإنّما يفهم منه جواز خداع الكفّار في الحرب ، إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز. والصّحابة لا يخدعون ولا يغدرون بعضهم في الصّالح ولا في غيره .

كما أخرج الطّبريّ في أمر المصاحف والتّحكيم من طريق أبي مخنف ، عن عبد الرّحمن ابن جندب الأزدي ، عن أبيه أنّ عليّاً ، قال : " عبادَ الله امضوا على حقّكم وصدقكم قتال عدوكم ، فإنّ معاوية ، وعمرو بن العاص ، وابن أبي معيط ، وحبيب بن مسلمة ، وابن أبي سرح ، والضّحّاك بن قيس ، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، أنا أعرف بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالاً ، وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شرّ أطفال ، وشرّ رجال ، ويحكّم ! إنهم ما رفعوها ، ثمّ لا يرفعونها ، ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ودهناً ومكيدة ، فقالوا له : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله - عزّ وجلّ - فنأبى أن نقبله !

... فقال له مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين^(٢) الطّائي ثمّ السّنبسي في عصابة معهما من القرّاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا عليّ ، أجب إلى كتاب الله - عزّ وجلّ - إذا دُعيت إليه ؛ وإلاّ ندفعك برمتك إلى القوم ، أو نفعل كما فعلنا بآبن عفّان ... " ^(٣).

وهذه الرواية باطلة سنداً ومتناً ، أمّا بطلان سندها فمرده إلى أبي مخنف ، لوط بن يحيى ،

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٣ / ص ٢٤) كتاب الجهاد والسير .

(٢) الصّواب زيد بن حصن يبدو أنّه تصحيف .

(٣) الطّبريّ " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ٣٤) .

فهو متروك ، أما بطلان متنها فمن وجوه :

أحدها : أن الرواية تطعن في وجوه الصحابة - رضي الله عنهم - ، فهي تطعن في عليّ كما تطعن فيمن ذكر من الصحابة ، فلا يصدق أنّ معاوية ومن معه من الصحابة ليسوا أصحاب دين وقرآن ، ونحن نعلم أنّ النبي ﷺ استكتب معاوية وجعله أميناً على القرآن وخبر السماء .

ولا يصدق أنّ عليّاً - رضي الله عنه - وهو من هو في العلم والفقہ ينفي الدّين عن أصحاب النبي ﷺ لأجل أنّهم في صفّ معاوية ! فهل يخفى على عليّ عدالة الصحابة الثابتة بالتواتر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى يتهمهم بأنهم ليسوا أصحاب دين ، فإذا لم يكن أصحاب النبي ﷺ أصحاب دين ، فمن يكون إذا؟!!

وقد وضع العلماء قواعد لمعرفة الرواية المختلقة ، منها مخالفة الرواية لما ثبت في الكتاب والسنة ، وهذه الرواية تخالفهما معاً ؛ فهي تشكك في عدالة الصحابة ، وعدالة الصحابة قد نصّ عليها الكتاب والسنة .

الثاني : الرواية تتهم الصحابي زيد بن حصن الطائي ثم السنسي^(١) أنّه من قتلة عثمان - رضي الله عنه - ، وأنّه من الخوارج ، ونحن نعرف أنّه لا يتهم أحد من أصحاب النبي ﷺ في دم عثمان - رضي الله عنه - وقد بينا ذلك في كتابنا (شهادة الدار عثمان بن عفان - رضي الله عنه -) ، وليس في الخوارج أحد ممن صحب رسول الله ﷺ فقد ثبت أنّ ابن عباس قال للخوارج: " أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار ، لأبلغكم ما يقولون فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل : وليس فيكم منهم أحد"^(٢) .

(١) ذكر الحافظ في ترجمته أنّه كان عامل عمر بن الخطّاب على حدود الكوفة ، وقال : " وقد قدّمت غير مرّة أنّهم كانوا لا يؤمّرون في ذلك الزمان إلاّ الصحابة " ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج٣/ص٢٦/رقم٢٨٨٧)

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج٢/ص١٥٠) كتاب قتال أهل البغي . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرّجاه . وأخرجه النسائي في " خصائص أمير المؤمنين عليّ " (ص١٥٠) ، وقال =

الثالث : هذه الرواية تزعم أن علياً - رضي الله عنه - كان يعرف قتلة عثمان - رضي الله عنه - ويؤويهم في جيشه منذ أن قُتل عثمان ، والأمر أمرهم ، وهذا باطل ، فالخليفة عليّ هو من روى قول النبي ﷺ : " المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبلُ منه يوم القيامة صَرْفٌ ولا عدلٌ " (١) .

الرابع : لا يصدق أن علياً يدعى إلى الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وبأبي ، وهو يقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥١) [التور] .

الخامس : المشهور عند العلماء أن من علامات الوضع ركافة الألفاظ وفساد المعنى ، فمما يُظهر جلياً أن هذه الرواية من وحي أهواء المبطلين أنها اشتملت بعد ذلك على ألفاظ يعفّ قلبي عن ذكرها تقديراً لمقام أصحاب النبي ﷺ ، فكيف يسمع الصحابة - رضي الله عنهم - مثل تلك الألفاظ ولا ينكرونها؟! فضلاً عن أن تجري على ألسنتهم ، وقد قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ... ﴾ (٢٤) [الحج] .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك كثيراً من الروايات والأخبار للمؤرّخ نصر بن مزاحم المتوفى سنة (٢١٢هـ) في كتابه " وقعة صفين " تتشعر لها الأبدان وتشيب من هولها نواصي الولدان لا تصحّ البتّة ، فضلاً عن الأشعار الكثيرة في هذا الكتاب ، والتي هي من صناعة الرواة أو تليفيق أصحاب الأخبار .

وهذه ترجمة لأبي مخنف ونصر بن مزاحم ليكون القارئ على بصيرة فلا يقع في أعراض الصحابة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَجَبِينُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ ﴾ (٦) [الحجرات] فلو جاء الإنسان بكلّ معذرة

= المحقق : إسناده صحيح .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/١٠ ص) كتاب الفرائض .

يعتذر بها يوم القيامة ، لا ينفعه ذلك من بعد ما تبين له الحقّ ، فإنّ جوارحه ستشهد عليه ، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

ترجمة أبي مخنف

ترجم له ابن الجوزي في " كتاب الضعفاء والمتروكين " وقال : " لوط بن يحيى ، أبو مخنف ، قال يحيى : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشيء . وقال أبو حاتم الرّازي : متروك الحديث . وقال الدراقطني : ضعيف "(١).

وترجم له الجرجاني في " الكامل " فقال : " ... حَدَّثَ بِأَخْبَارٍ مِّنْ تَقَدَّمَ مِنَ السَّلَفِ وَالصَّالِحِينَ وَلَا يَبْعُدُ مِنْهُ أَنْ يَتَنَاوَهُمْ ، وَهُوَ شَاعِي (شيعي) مُحْتَرَقٌ صَاحِبُ أَخْبَارِهِمْ ... لَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمَكْرُوهِ الَّذِي لَا أُسْتَحَبُّ ذِكْرُهُ "(٢).

وترجم له الرّازي في " الجرح والتّعديل " ... قال : " حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : أَبُو مَخْنَفٍ مَتْرُوكٌ الْحَدِيثُ "(٣).

وترجم له العقيلي في " كتاب الضعفاء الكبير " فقال : " عن محمّد ، عن عيّاس ، قال : سمعت يحيى ، قال : أبو مخنف ، وأبو مريم ، وعمرو بن شمر ، ليسوا هم بشيء ، قلت : ليحيى : هما مثل عمرو بن شمر ؟ قال : هما شرٌّ من عمرو بن شمر "(٤).

وترجم له ابن حجر في " لسان الميزان " وقال : " لوط بن يحيى ، أبو مخنف ، أخباري تالف ، لا يوثق به . تركه أبو حاتم وغيره . وقال الدراقطني : ضعيف . وقال ابن معين : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشيء . وقال ابن عددي : شيعي محترق ، صاحب أخبارهم "(٥).

(١) ابن الجوزي " كتاب الضعفاء والمتروكين " (ج٣/ ص٢٨/ رقم ٢٨١٣).

(٢) الجرجاني " الكامل في ضعفاء الرّجال " (ج٦/ ص٩٣/ رقم ١٦٢١/٥).

(٣) الرّازي " الجرح والتّعديل " (م٧/ ص٢٤٧/ رقم ١٢٥٧٤/ ١٠٣٠).

(٤) العقيلي " كتاب الضعفاء الكبير " (ج٤/ ص١٨/ رقم ١٥٧٢).

(٥) ابن حجر " لسان الميزان " (م٦/ ص٤٣٠/ رقم ٦٤٤٨).

وترجم له الذّهبي في " المغني في الضّعفاء " فقال : " ساقط ، تركه أبو حاتم . قال الدّارقطني : ضعيف " (١).

هذه آراء بعض الحفاظ فيه ، وعلى ذلك فكلّ من نقل عنه واهتمّ به شرقياً كان أم غربياً ، فكلامه لا يُعتدُّ به .

ترجمة نصر بن مزاحم

ترجم له العُقيليّ في " كتاب الضّعفاء الكبير " فقال : " نصر بن مزاحم المنقري : كان يذهب إلى التّشيع ، وفي حديثه اضطراب وخطأ كثير " (٢).

وترجم له ابن الجوزي في " كتاب الضّعفاء والمتروكين " قال : " قال أبو خيثمة : كان كذاباً ، قال يحيى : ليس حديثه بشيء . وقال أبو حاتم الرّازي : واهي الحديث متروك الحديث . وقال الدّارقطنيّ : ضعيف . وقال إبراهيم الجوزجانيّ : كان زائغاً عن الحقّ . وقال أبو بكر الخطيب : يريد بذلك غلوّه في الرّفص . وقال صالح بن محمّد : روى عن الضّعفاء أحاديث مناكير . وقال أبو الفتح الأزدي : كان غالباً في مذهبه ، غير محمود في حديثه " (٣).

وترجم له ابن حجر في " لسان الميزان " فقال : " نصر بن مزاحم الكوفيّ : رافضيّ جلدّ ، تركوه . وقال العجّليّ : كان رافضياً غالباً ليس بثقة ولا مأمون " (٤).

بطلان قصّة التّحكيم المشهورة من وجوه

وأخرج الطّبري من طريق سليمان بن يونس بن يزيد ، عن الرّهري ، قال : " قال صعصعة بن صوحان يوم صفّين حين رأى النّاس يتبارون : ألا اسمعوا ، تعلّمنّ والله لئن

(١) الذّهبي " المغني في الضّعفاء " (ج٢/ص٢٣٤/رقم٥١٢٢).

(٢) العُقيليّ " كتاب الضّعفاء الكبير " (ج٤/ص٣٠٠/رقم١٨٩٩).

(٣) ابن الجوزي " كتاب الضّعفاء والمتروكين " (ج٣/ص١٦٠/رقم٣٥١٨).

(٤) ابن حجر " لسان الميزان " (٨م/ص٢٦٧/رقم٨١٢٧).

ظهر عليّ ليكوننّ مثل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ، وإن ظهر معاوية لا يُقرّ لقاتل بقول حقّ ، قال الزهري : فأصبح أهل الشّام قد نشروا مصاحفهم ، ودعوا إلى ما فيها ؛ فهاب أهل العراقيين ، فعند ذلك حكّموا الحكمين ، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ، واختار أهل الشّام عمرو بن العاص . فتفرّق أهل صقّين حين حكم الحكمان ، فاشترط أن يرفعا ما رفع القرآن ، وأن يخفضا ما خفض القرآن ، وأن يختارا لأمة محمد ﷺ ، وأتمها يجتمعان بدومة الجندل ، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في العام المقبل بأذرح ، فلمّا انصرف عليّ خالفت الحرورية ، وخرجت ، وكان ذلك أوّل ما ظهرت فأذنوه بالحرب ، وردّوا عليه إن حكّم بني آدم في حكم الله - عزّ وجلّ - وقالوا : لا حُكْم إلاّ الله - سبحانه - وقاتلوا .

فلمّا اجتمع الحكمان بأذرح وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من النّاس ، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطّاب ، وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير ، ووافق معاوية بأهل الشّام ، وأبى عليّ وأهل العراق أن يوافقوا ... فلمّا اجتمع الحكمان وتكلّموا ، قال عمرو بن العاص : يا أبا موسى ، رأيت أوّل ما نقضي به من الحقّ أن نقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم ، قال أبو موسى : وما ذاك ؟ قال : ألسنت تعلم أنّ معاوية ، وأهل الشّام قد وفّوا وقدموا للموعد الذي واعدناه إيّاه ؟ قال : بلى ، قال عمرو : واكتبها ، فكتبها أبو موسى ، قال عمرو : يا أبا موسى أنت على أن نسّمّي رجلاً يلي أمر هذه الأمة ، فسّمّي لي ، فإن أقدر على أن أتابعك ، فلك عليّ أن أتابعك ، وإلاّ فلي عليك أن تتابعني ، قال أبو موسى : أسّمّي لك عبد الله بن عمر ، وكان ابن عمر فيمن اعتزل ، قال عمرو : إنّي أسّمّي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحاً مجلسهما حتّى استبّيا ، ثمّ خرجا إلى النّاس ، فقال أبو موسى : إنّي وجدت مثل عمرو مثل الذين قال الله - عزّ وجلّ - : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا ... ﴾ [الأعراف] فلمّا سكت أبو موسى تكلم عمرو ، فقال : إنّي وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال الله - عزّ وجلّ - : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ... ﴾ [الجمعة] وكتب كلّ واحد

منها مثله الذي ضربه لصاحبه إلى الأمصار ... " (١).

وهذه الرواية لا تصحّ سنداً؛ لأنّ الزّهري لم يُدرِك هذه الحادثة، والزّهري هو: محمّد ابن مسلم الزّهري، أبو بكر، الفقيه الحافظ متفق على جلالته وإتقانه، ولد في آخر خلافة معاوية - رضي الله عنه - وفي " سير أعلام النبلاء " (٢) فإنّ مولده فيها قاله دحيم وأحمد بن صالح: في سنة خمسين، وفيما قاله خليفة بن خياط: سنة إحدى وخمسين.

وأحداث صفيّين هذه كانت بدايتها سنة ست وثلاثين للهجرة، فكيف يروي الزّهري أحداثاً وقعت قبل ولادته بأربعة عشر عاماً على الأقلّ؟! فالرواية مرسلّة، ومراسيل الزّهري ذهبت كأدراج الرياح عند العلماء، لا تقوم بها حجّة، ولذلك قال أحمد بن سنان الواسطي: " كان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزّهريّ وفتادة شيئاً، ويقول: هو بمنزلة الرّيح، ثمّ يقول: هؤلاء قوم حفاظ كانوا إذا سمعوا الشيء علقوه " (٣).

ومن العلماء والفقهاء من يرى عدم صحّة الاحتجاج بالمرسل، قال الإمام مسلم: " والمرسل من الروايات في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجّة " (٤).

ويدلّك على ضعفها أنّ الزّهري أوّل الرواية يحدّث عن صعصعة بن صوحان، وهو من كبار التابعين، وتوفي في خلافة معاوية، أي أن الزّهري لم يسمع منه.

(١) الطّبري: " تاريخ الأمم والملوك " (٤م/٤ ص ٤١) وأخرج نحوها ابن سعد عن محمّد بن عمر، عن معمر ابن راشد، عن الزّهري في " الطبقات الكبرى " (٤م/٤ ص ٢٥٥). ومحمّد بن عمر هو الواقدي، متروك، والزّهري لم يدرك الحادثة.

(٢) انظر أخبار الزّهري في " سير أعلام النبلاء " (ج ٥/ ص ٣٢٦/ رقم ١٦٠) و " كتاب التاريخ الكبير " (١م/١ ص ٢٢٢/ رقم ٦٩٣) و " كتاب الثقات " (ج ٥/ ص ٣٤٩) و " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " (٨م/ ص ٢٢٧).

(٣) ابن أبي حاتم " كتاب المراسيل " (ص ١٣).

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م/١ ج ١/ ص ١٣٢) مقدّمه الشّارح. وهو قول الشّافعيّ أيضاً وغيره من الفقهاء.

وقد قال الزُّهري ذات يوم : " يا أهل العراق ، يخرج الحديث من عندنا شِبْرًا ، ويصير عندكم ذراعاً " (١) قلت : وقد أحسن من قال :

وقد نقلوا عني الذي لم أفه به وما آفة الأخبار إلا روايتها

وأخرج نحو هذه الرواية ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٢) وفي سندها ثلاثة مجروحين : ضعيف ، ومتروك ، ومرمي بالوضع ، وقد رأيت بيان حال هذه الروايات درءاً لتوهم التعصب ، ودفعاً لمظنة الهوى ، فقد أخرجها ابن سعد من طريق محمد بن عمر ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن عمرو بن الحكم . أما محمد بن عمر ، فهو الواقدي ، والواقدي ضعيف باتفاق ومتروك مع سعة علمه ، وتقدمت ترجمته ، أما ابن أبي سبرة ، فقال عنه الحافظ : " رموه بالوضع " (٣) أما ابن أبي فروة ، فقال عنه الحافظ : " متروك " (٤) .

كذلك الرواية لا تصحّ متناً ؛ لأنّ فيها اضطراب من وجوه :

أحدها : هذه الرواية تصوّر أنّ هناك خلافاً بين عليّ ومعاوية على الخلافة ، وأنّ معاوية ينازع عليّاً عليها ، وهذا باطل فالخلاف بينهما ليس على الملك كما هو معلوم ، ولو كان معاوية ينازع عليّاً الخلافة لما تحلّف صحابياً واحداً عن النكير عليه ، بل ومقاتلته من أوّل الأمر ، ولما كانت هناك شبهة في وجوب مقاتلته ، فقد قال النبي ﷺ : " إذا بُويع لخليفتين ، فاقتلوا الآخر منهما " (٥) ، وقال النبي ﷺ : " من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد

(١) الذّهبي " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " (٨م / ص ٢٣٧) أحداث سنة ثلاثين ومائة .

(٢) ابن سعد " الطبقات الكبرى " (٤م / ص ٢٥٦) .

(٣) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ٦٢٣ / رقم ٧٩٧٣) .

(٤) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ١٠٢ / رقم ٣٦٨) .

(٥) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م / ج ١٢ / ص ٢٤٢) .

أن يشقَّ عَصَاكُمْ أو يفرِّق جماعتكم ، فاقتلوه " (١).

وهذا ممَّا لا يخفى على الصَّحابة - رضي الله عنهم - ، الَّذِينَ لم يكن هناك من هو أشدَّ منهم تعظيماً لأمر الله ورسوله ، ولو كان ذلك كذلك لما كان معاوية - رضي الله عنه - معتقداً أنَّه على الحقِّ ولا الصَّحابة الَّذِينَ معه ، ونسبة ذلك إلى الصَّحابة تحطئة لهم .

ثمَّ إنَّه لم يرِدْ من طريق صحيح ولا ضعيف أنَّ علياً كان يريد عزل معاوية - رضي الله عنه - عن إمرة الشَّام .

الثَّاني : هذه الرِّواية كغيرها من الرِّوايات الباطلة تصوِّر الصَّحابيَّ الجليل عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أنَّه مخادع وغادر ، وأنَّ أبَا موسى الأشعريَّ - رضي الله عنه - مغفل جاهل لا يعرف بالقضاء ، أسْتَغْفِرُ الله وأتوب إليه ؛ فإنَّ هذه الكلمات لا يطاوعني قلبي على تسجيلها ، فكيف يستقيم هذا وأبو موسى كان واحداً من القضاة الفقهاء ، فقد زُوي عن مسروق قوله : " القضاة أربعة : عمر ، وعليّ ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري - رضي الله عنهم - " (٢).

وقال الحافظ في ترجمته لأبي موسى : " واسمه : عبد الله بن قيس : استعمله النَّبِيُّ ﷺ على بعض اليمن ، واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة ، افتتح الأهواز ثمَّ أصبهان ، ثمَّ استعمله عثمان على الكوفة " (٣).

وقد فقهه أبو موسى الأشعريَّ - رضي الله عنه - أهل البصرة ، وأقرأهم القرآن ، حتَّى قال الحسن : " ما قدِمَ البصرة راكبٌ خير لأهلها من أبي موسى الأشعري " (٤).

فهو الفقيه العالم بالقرآن والسُّنَّة ، حسن الصَّوت بالقرآن ، روى مسلم عن عبد الله ابن بُرَيْدَةَ عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنَّ عبدَ الله بن قيس أو الأشعري أُعطي

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م/ج ١٢/ص ٢٤٢).

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣/ص ٤٦٥) كتاب معرفة الصَّحابة .

(٣) ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج ٤/ص ١٢٠/رقم ٤٨٨٩).

(٤) الحاكم " المستدرک " (ج ٣/ص ٤٦٥) كتاب معرفة الصَّحابة .

مِزْمَاراً مِنْ مِزْمِيرِ آلِ دَاوُدَ" (١) وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ ، فَقَدْ قَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : " لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مِزْمِيرِ آلِ دَاوُدَ" (٢).

وَكَانَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا رَأَاهُ قَالَ : " ذَكَرْنَا رَبَّنَا يَا أَبَا مُوسَى ، وَفِي رِوَايَةٍ : شَوْقُنَا إِلَى رَبِّنَا ، فَيَقْرَأُ عِنْدَهُ" (٣) فَمَنْ يَتَكَلَّمُ عَلَى صَحَابِيٍّ أَشْبَهَ بِنَمْلَةٍ وَهَنَانَةٌ تَحَاوُلُ أَنْ تَرْحُزِحَ جِبَلًا شَاخِحًا مِنْ مَكَانِهِ ! أَوْ أَشْبَهَ بِفِمْ كَرِيهِ يَحَاوُلُ أَنْ يَطْفِئَ شَمْسَ الضَّحَى وَهِيَ سَاطِعَةٌ .

وَلَا تَصَحَّ الْأَخْبَارُ الَّتِي فِيهَا اتِّهَامٌ لِأَبِي مُوسَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَنَالُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عَلِيٍّ ، فَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : " إِنَّ عَلِيًّا أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ" (٤) وَقَالَ الْحَاكِمُ : " هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ ، وَلَمْ يَخْرُجْهُ ، وَالْغَرَضُ مِنْ إِخْرَاجِهِ بَرَاءَةَ سَاحَةِ أَبِي مُوسَى مِنْ نَقْصِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ رِوَايَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْهُ" (٥).

فَلَيْسَ هُنَاكَ مِنْ مَكْرٍ وَلَا خَدِيعَةٍ وَلَا تَبْدِيلٍ - كَمَا يَصَوِّرُونَ - وَإِنَّمَا كَانَ وَاحِدَهُمْ يَعْرِفُ سَابِقَةَ الْآخَرِ وَيُدِينُ بِفَضْلِهِ ، وَلَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمُ الْعَدْرَ أَبَدًا ، رَوَى أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنِ الْحَسَنِ ، قَالَ : " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، فَقَالَ : أَقْتُلْ لَكَ عَلِيًّا ؟! قَالَ : لَا ، وَكَيْفَ تَقْتُلُهُ وَمَعَهُ الْجُنُودُ ؟ قَالَ : أَلْحَقْ بِهِ فَأَقْتُلْكَ بِهِ ، قَالَ : لَا ؛ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ ، لَا يَفْتِكُ مَوْءَمٌ" (٦) وَالْفَتْكُ هُوَ أَنْ يُؤْتَى الْإِنْسَانُ مِنْ مَأْمَنٍ لَا يَرَى أَنَّهُ أُورِدَ بِهِ بِأَسٍ فَيَغْدِرُ فِجَاءً ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَرَبَّوْا فِي مَدْرَسَةِ النَّبِيِّ ﷺ !

الثَّالِثُ : أَنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا هَذِهِ الرِّوَايَاتِ عَمِدُوا إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي أُتْرِكَتْ فِي الْكُفَّارِ وَأَهْلِ

(١) مُسْلِمٌ " صَحِيحٌ مُسْلِمٌ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ " (٣م/ج٦/ص٨٠) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ ، وَالْبُخَارِيُّ نَحْوَهُ " صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ " (٣م/ج٦/ص١١٢) كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ .

(٢) مُسْلِمٌ " صَحِيحٌ مُسْلِمٌ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ " (٣م/ج٦/ص٨٠) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ .

(٣) ابْنُ حِجْرٍ " الْإِصَابَةُ " (٢م/ج٤/ص١٢٠) رَقْمٌ ٤٨٨٩ .

(٤) الْحَاكِمُ " الْمُسْتَدْرَكُ " (ج٣/ص٤٦٥) كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ .

(٥) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ .

(٦) أَحْمَدُ " الْمُسْنَدُ " (ج٢/ص٢٠١) رَقْمٌ ١٤٢٦ .

الكتاب ، فجعلوها على المؤمنين - وأصحاب النبي الكريم ﷺ! ألا ترى كيف ضربوا مثلاً بالكلب والحمار لصحابيين جليلين ، هما أنقى من الضباب ، وأطهر من ماء السحاب !!

فهل يليق بالصَّحَابِيَّ الجليل عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن يكون مثله ، مثل من قال الله فيه : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَٱنْسَلَخَ مِنْهَا فَٱتَّبَعَهُ ٱلشَّيْطٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلضَّٰلِمِينَ ۝١٧٥ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ ءَأَخَذَ ٱلْأَرْضَ وَٱتَّعٰهُ هَوْنَهُ ۚ فَشَآءَ كَمَثَلِ ٱلْكَٱلْبِ ۚ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثٌ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثٌ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِنَا ۚ فَٱقْضِصْ ٱلْقُصَصَ ۚ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ ۝ ﴾ [الأعراف] هل كذب عمرو بن العاص - رضي الله عنه - بآيات الله تعالى حتى يكون هذا مثله ! أم هل يليق أن يكون مثل أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِلُوا ٱلتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ ٱسْفَارًا ۚ ... ﴾ [الجمعة] وأي فائدة ترجى من كتابة هذه الأمثال وإرسالها إلى الأمصار ! وهذا ليس غريباً من هؤلاء الذين يلفقون الأخبار ولا يخافون الواحد القهار !

وهذا يدلُّك على أن الذين كتبوا هذه الروايات هم من أتباع الذين خرجوا على عليٍّ وممن يتأشبهم ، وفي البخاري : " كان ابن عمر يراهم شرار الخلق ، وقال : إثمهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين " (١).

الرابع : هذه الرواية تجعل أمر اختيار الحكمين من فعل أهل العراق وأهل الشام ، وكأن علياً ومعاوية ليس لهما من الأمر شيء .

رواية التحكيم من طريق آخر

وأخرج الطبري قصة التحكيم من طريق آخر ، وفيها أن عبد الله بن عباس نصَّح لأبي موسى ألا يتكلم أولاً وحذره حتى لا يغدر به عمرو بن العاص ، وساق قصة التحكيم ، وزاد في آخرها أن علياً كان إذا صلى فنتت ولعن معاوية ومن معه ، ومعاوية كان إذا قنت لعن

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/٥١ ص) كتاب استتابة المرتدين .

عليّاً والحسن والحسين ، وهو محض كذب ، فقد أخرجها من طريق أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو جناب الكلبي :

" فقال له ابن عباس : ... ثم تكلم أنت بعد ؛ فإنّ عمرأ رجل غادر ... وكان أبو موسى مغفلاً ، فقال له : إنّنا قد اتفقنا ، فتقدّم أبو موسى ، فحمد الله - عزّ وجلّ - وأثنى عليه ثم قال : يا أيّها النّاس ، إنّنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشعثها من أمر قد جمع رأبي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليّاً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولّوا منهم مَنْ أحبُّوا عليهم ، وإني قد خلعتُ عليّاً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً ، ثمّ تنحّى وأقبل عمرو بن العاص ، فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال إنّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ... فكان أبو موسى يقول : حدّثني ابن عباس غدرة الفاسق ، ولكني اطمأنت إليه وظننت أنّه لن يُؤثّر شيئاً على نصيحة الأمة ، ثمّ انصرف عمرو وأهل الشّام إلى معاوية وسلّموا عليه بالخلافة ، ورجع ابن عباس وشريح بن هانئ إلى عليّ ، وكان إذا صلّى الغداة يقيت ، فيقول : اللهمّ العن معاوية وعمرأ وأبا الأعور السّلمي وحبیباً وعبد الرّحمن بن خالد والضّحاک بن قيس والوليد ، فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا قنت لعن عليّاً وابن عباس والأشتر وحسنأ وحسينأ"^(١).

وهذه الرواية في سندها مجروحان أبو مخنف ، وهو أخباري تالف ، وتقدّمت ترجمته ، وأبو جناب الكلبي ، وهو يحيى بن أبي حية مُدلس ، وستأتي ترجمته بعد أسطّار . أمّا ممتنّها فكنت أحببت أن أنزّه كتابي منه ، ولكن لكثرة من يتعلّق بهذا الكلام الباطل ذكرته لأنّبه على بطلانه ؛ فكيف يُصدّق أنّ الصّحابة يلعن بعضهم بعضاً ، والنبيّ ﷺ يقول : " لعن المؤمن كقتله"^(٢).

وكيف يُصدّق أنّ ابن عباس وأبا موسى يتّهمان عمرو بن العاص بالعدو والفسق ، والصّحابة - رضي الله عنهم - لا يعرّفون العدو ولا يوصّفون بالفسق ، وإنّما الفاسق من قال

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ٥١).

(٢) أحمد بسند صحيح عن ثابت بن الضّحاک " المسند " (ج ١٢ / ص ٥٤٣ / رقم ١٦٣٣٧).

الله تعالى فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بَنِيًا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَنْهَا مَا فَعَلْتُمْ تَرْدِمِينَ ﴿٦﴾ [الحجرات] والصحابة لا توصف بالفسق لأن الله تعالى حبب إليهم الإيمان وكره لهم الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ ءَلِإِيمَانَ وَرَزَنَةً فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانَ ... ﴿٧﴾ [الحجرات] فهل يجهل ابن عباس - رضي الله عنه - ذلك وهو ترجمان القرآن وحبر هذه الأمة؟! فهذه الرواية تطعن في ابن عباس وأبي موسى وعمرو بن العاص معاً .

وقد تعرّض الهيثمي بالتقد لهذا الخبر بعد أن ساقه من رواية الطبراني عن عبد الله بن مسعود ، قال : " ... ولا قنّت عليّ حتّى حارب أهل الشام ، وكان يقنت في الصلوات كلّهن ، وكان معاوية يدعو عليه أيضاً يدعو كلّ واحد منهما على الآخر " (١) قال الهيثمي : " رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه شيء مُدرك عن غير ابن مسعود بيقين هو قنوت عليّ ومعاوية في حال حربهما ؛ فإنّ ابن مسعود مات في زمن عثمان ، وفيه محمد بن جابر اليمامي ، وهو صدوق ولكنه كان أعمى واختلط عليه حديثه وكان يُلقن " (٢) .

وأما الرد على من جوّز وقوع التلاعن بينهما وأنّ هذا لا يستبعد وقوعه بدعوى أنّه دون القتل الذي وقع بينهما ، وأنّ القتال أعظم منه .

فهذا كلام منقول عن من صنعته إحداث الأحدّاث ، ومن ذهب إلى هذا يحتاج إلى دليل إثبات عن أثبات ليس فيه علة ، وحتى يأتينا هذا الدليل يظلّ كلامه دعوى مجردة من البرهان ، أمّا قوله التلاعن دون القتل ، فقد ساوى النبيّ ﷺ بين لعن المؤمن وقتله في غير حديث للدلالة على شناعة هذا الجرم ، فقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال : " ومن لعن مؤمناً فهو كقتله " (٣) . وهذا ممّا لا يجمله الصحابة ، فضلاً عن أن يجهلوا تحريم سب الصحابة الذي ثبت عن

(١) الهيثمي " مجمع الزوائد " (ج ٢/ ص ١٣٦) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) البخاري عن ثابت بن الصّحّاك " صحيح البخاري " (م ٤/ ج ٧/ ص ٨٤) كتاب الأدب .

النَّبِيِّ ﷺ فيما رواه الشَّيْخَانُ : " لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ... " ^(١) " وَأَيُّ سَبِّ أَكْثَرَ مِنْ لَعْنِهِمْ ! فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَهَى عَنْ سَبِّهِمْ فَمِنْ بَابِ أَوْلَى النَّهْيِ عَنْ لَعْنِهِمْ .
 وَقَدْ صَحَّ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " مَنْ سَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ سَبَّنِي " ^(٢) .

ولا يخفى أن من الذين يجوزون وقوع التلاعن بين الصحابة من غايته إباحة ذلك وإيجاد عذر لمن يقع في أعراضهم من جهلة القوم ، فكأنه يقول لهم : طالما حدث منهم ذلك فسنظّل على آثارهم مقتضين ! ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [التور] ﴿١٣﴾ فهو لاء ليس عندهم دليل على جواز ذلك ، ولا أثاره من علم ! بل إن الله تعالى نهى عن سب ما يعبده المشركون مخافة أن يحملهم الجهل على سب الله سبحانه ، فقال : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام] ﴿١٨﴾ فإذا كنا نُهينا عن سب الأصنام ، فهل يجوز سب الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - !

ونحن لا ننكر أنه كان بين عليّ ومعاوية ما كان مما يكون بين البشر ، ولكن كان يكتنفه تقوى الله وخشيته ؛ فقد كان الخلفاء والأمراء والعلماء يتدثرون بالدين الذي كان يومها ظاهراً .

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : " سألت أبي عن رجل يشتم رجلاً من أصحاب رسول الله ؟ قال : ما أراه على الإسلام " ^(٣) .

وقال بعض السلف : " لحوم العلماء مسمومة وعادة الله فيمن آذاهم أبداً معلومة " .

(١) مسلم عن أبي هريرة " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٦٦ ج / ١٦٦ ص ٩٢) كتاب فضائل الصحابة .
 والبخاري عن أبي سعيد الخدري " صحيح البخاري " (٢م/٤ ج / ٤ ص ١٩٥) كتاب أحاديث الأنبياء .
 (٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣/ ص ١٢١) كتاب معرفة الصحابة ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٣) ابن الجوزي " مناقب الإمام أحمد " (ص ١٦٥) .

قلت : فإذا كانت لحوم العلماء مسمومة ، فما ظنك بلحوم الصحابة ! وما بالك بمن شبعوا من لحومهم ! أليس عادة الله في هتك منتقصهم معلومة ؟! ﴿يَجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾ (١٣) [الحجرات] .

ترجمة أبي جناب الكلبي

ترجم له الذهبي في " المغني في الضعفاء " وقال : " يحيى بن أبي حية ، أبو جناب الكلبي . قال أبو زرعة : مدلس . وقال النسائي والدارقطني : ضعيف . وقال يحيى بن سعيد القطان : لا أستحل أن أروي عنه " (١) .

ورتبته عند ابن حجر ضعيف لكثرة تدليسه ، فقد ترجم له في " تقريب التهذيب " وقال : " يحيى بن أبي حية ، أبو جناب ، ضعفه لكثرة تدليسه " (٢) .

انخداع غير كاتب وقارئ بالروايات الموضوعة

ولكن الغريب أن ينخدع بهذه الروايات كثير من الكتاب ، فهذا أحدهم يقول : " ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية أنها كانا يُؤثران اللعب على المكشوف ، ولا يضيعان الوقت في مراءٍ يعرفانه ولا يجهلانه ، وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مداجاة فيها ، فقال له : أتري أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ؟ لا والله ! إن هي إلا الدنيا تكالب عليها ، وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنا بذنك ... " (٣) .

وقال أيضاً : " وأخذ معاوية يذكر عمالأة عليّ على قتل عثمان " (٤) وخلص إلى أنه أخذ

(١) الذهبي " المغني في الضعفاء " (٢م/ص ٥١٣/رقم ٦٩٥٥) .

(٢) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ٥٨٩/رقم ٧٥٣٧) وانظر ترجمته في " تذهيب التهذيب الكمال " للذهبي (م ٩/ص ٤٣١/رقم ٧٥٨٣) و " معجم أسامي الرواة " للألباني (م ٤/ص ٣٩٥) .

(٣) قول عباس محمود العقّاد في كتابه " عمرو بن العاص - رضي الله عنه - " (ص ٦٣) .

(٤) العقّاد " عمرو بن العاص - رضي الله عنه - " (ص ١٦٦) .

يستميل عمرو بن العاص حتى قال له عمرو: " اجعل لي مصر طُعمَة ما دامت لك ولاية"^(١) وظل يصوّر عمرو بن العاص أنّه كان يطمع في ولاية مصر جامعة موروثه في عقبه ...

ثمّ ذهب إلى أعجب من ذلك ، فقال : " وليقل الناقدون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار ، وصحّة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصّه ، فالذي لا ريب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ قاطبة على نقضه ، إنّ الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ..."^(٢).

قلت : ولا أدري كيف يأخذ أعجازاً ليس لها صدورٌ ، وأحاديث ليس لها حُطْم ولا أزمّة ! أليس من الخطأ أن يتعصّب إنسانٌ إلى رأيه المجرد الذي لا يستند إلى البراهين ، ثمّ يقول : إنّه لن يطيع أحداً من العالمين؟! إلا إذا كان يخشى أن يجادله أحد بالسنة ، فيفلجه بالجواب المسكت .

فلتكن لنا قُدوة بما كان عليه الأئمة المجتهدون ، الذين يُسرّ الواحد منهم إذا ظهر الحقّ ولو على يد غيره ، فقد أترّ عن غير واحد منهم أنّه كان يقول : " رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب " .

فإذا لم يكن هناك إجماع على مسألة فلا ينبغي لباحث التّعصّب لرأيه ، وعليه أن يحيط بجملة علوم ، منها : علم الجرح والتعديل ، وقواعد أصول الفقه قبل أن يتعصّب للدليل الذي معه إنّ كان معه دليل ، ومن هذه القواعد التي ينبغي الالتفات لها أنّ " الدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال " .

ووالله الذي لا إله غيره إنّ ما صحّ من الأحاديث والأخبار موجود عند أعلام أهل الحديث والآثار ؛ فهم الذين مع الحقّ ، والحقّ معهم ؛ لأنّهم أخذوا دينهم وتاريخهم وعقائدهم خلفاً عن سلف ، وقرناً عن قرن ، وجيلاً عن جيل ، وتابعاً عن تابع ، وعدلاً عن

(١) العقاد " عمرو بن العاص - رضي الله عنه - " (ص ١٦٦).

(٢) المرجع السابق .

عدل حتّى انتهوا إلى أصحاب النبي ﷺ ، الذين نقلوا بدورهم عن الذي لا ينطق عن الهوى، متحرّين الأمانة والصدق .

فلا ريب أنّ الحقّ مع أهل الحديث وأئمة الفرقة الناجية ، ويشهد لذلك ، ما رواه البخاري عن حميد ، قال : سمعت معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - يخطب ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنّنا أنا قاسم ويُعطي الله ، ولن يزال أمر هذه الأمة مُستقيماً حتّى تقوم الساعة ، أو حتّى يأتي أمر الله " (١).

فقد أخرج هذا الحديث البخاري في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) ، وعنون له تحت باب (قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ يقاتلون ، وهم أهل العلم) وأخرج الحاكم بسند صحيح عن أحمد بن حنبل قال : " إنّ لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم " (٢) ولذلك سيظلّ أهل العلم من هذه الأمة ظاهرين على الحقّ إلى يوم القيامة ، لا يضرّهم من خالفهم .

ولو تتبعت الذين نقلوا هذه الأباطيل ، لاحتجت إلى مصنّفات ، وإنّما نقلت منها شيئاً يسيراً ؛ لأعارضها بصحيح السيرة ، وليكون القارئ على بصيرة ، فمثل هذه الأخبار سوّد بها هؤلاء الكتب الطوال ، وصفحات الأعمال ! وإنّ الحليم منّا ليقف حيراناً من هؤلّ ما يجد مسطوراً في كتبهم !

والذين أجهدوا أنفسهم في تعقب أخبار الصحابة - رضي الله عنهم - من كتب التاريخ التي فيها الغث والسمين ، وأعدّوا المصنّفات دون تمييز الصحيح من الدخيل ، وظلّوا على آثار هؤلاء المؤرّخين يهرعون ، كان الواجب عليهم أن يُعدّوا عند الله عذراً ! قال تعالى : ﴿ وَنَكَسْتُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ ... ﴾ (١٢) ﴿ يس ﴾ التي تركوها وراء ظهورهم ، وقد أصاب من قال :

(١) البخاري : " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ١٤٩) كتاب الاعتصام بالكتاب .

(٢) الحاكم " معرفة علوم الحديث " (ص ٢) وانظر " الحجّة " (ج ١ / ص ٢٦٢) .

وما مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَتَبِقِي كِتَابَتُهُ وَإِنْ قَيَّيْتُ يَدَاهُ
فَلَا تَكْتُبُ يَمِينُكَ غَيْرَ شَيْءٍ يَسُرُّكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

ولا أدري ما عذرهم ، وكتب الجرح والتعديل لم تترك لتعلل منهم عذراً يتعلل به ؟!

ولم ينشغل الصحابة - رضي الله عنهم - بتأليف الكتب ونشرها ، وإنما انشغلوا بتأليف
القلوب ونشر الإسلام ، فشتان بين مقاصد الدنيا ومقاصد الدين !

وقد جمعت أسماء بعض الكتاب والمحققين الذين ساهموا في نشر كثير من الروايات
التي لا تصح سنداً ولا متناً ، وأحصيت كتبهم ، ثم رأيت أن أنزه كتابي عنهم ؛ فذلك أذكى
وأطهر من أن أذكر عُجْرَهُمْ وُبُجْرَهُمْ .

ومما يبعث الأسي أنه يكاد لا يخلو بيت من بيوت المسلمين في هذه الأزمان من أشباه
ونظائر هذه الكتب ! فالخذر الخذر ؛ فالتاريخ الإسلامي إذا لم ينظر فيه محدثٌ فعظم الله
أجره فيه ! فمن أراد السلامة فليأخذ التاريخ من كلام حافظ محدث من أهل السنة
والجماعة ، يكون حجة في علم الرواية والدراية ، وقد حكم على الأخبار صحيحها وضعيفها
وموضوعها ، فمن فعل ذلك فقد استبرأ لدينه وعرضه وتقواه ، ولم يغلبه تعصبه وجهله
وهواه .

ولو أن هؤلاء الكتاب تدبروا كلام الله لانتهوا ، فالله تعالى يقول : ﴿ لِيَحْمِلُوا
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ
﴿ ١٥ ﴾ [التحل] ، فكم هم الذين وقعوا في عرض الصحابة وهم من هم ، وأغروا العوام
على تلبيهم ! وكم هم الذين انخدعوا وعُزُّروا بهذه الروايات ، فنقموا لأجل ذلك على
الصحابة الأجلاء الذين لم يحفظ الدين إلا بهم ! فهم الذين نقلوا إلينا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ
بالرواية ، وبيئوا لنا من الأحكام والأركان ما لا يحيط بعلمه أحد لتفردهم بالبرهان ، وتمييزهم
بمعايينة النبي ﷺ والحديث معه باللسان ، فهم الذين عاصروا التنزيل ، وأخذوا دينهم عن
البشير التذير الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، أفلا نطيع أمر الله فنقابل الإحسان بالإحسان كما

أمر الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن].

ولكن ليعلم الكاتب والقارئ أنه ما من أحدٍ أخذت في التاريخ شيئاً إلا سُئِلَ عنه يوم القيامة ! وما من شك أن من ينطق بأخبار الوضّاعين ، ويتابعهم ، ويتحدّث بلسانهم يعتبر امتداداً لهم ، وشريكاً لهم بالإثم !

تنبيه المؤرّخين إلى روايات الوضّاعين

وقد حدّر المؤرّخون القدماء من روايات الوضّاعين ، ونبّهوا إلى حدوث التّحريف والتّغيير في التّاريخ ؛ ليحترز النّاس فلا يقبلوا إلا ما صحّ من الأخبار والآثار سنداً وامتناً ، قال ابن الأثير :

" لم أذكر في موقعة الجمل إلا ما ذكره أبو جعفر (الطّبري) إذ كان أوثق من نقل التّاريخ ، فإنّ النّاس قد حشوا توارخهم بمقتضى أهوائهم " (١).

وقال ابن العربي : " ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولا تسمعوا لمؤرّخ كلاماً إلا للطّبري ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والذّاء الأكبر ، فإنّهم ينشئون أحاديث فيها استحقار الصّحابة والسّلف ، والاستخفاف بهم " (٢).

وابن العربي يعرف أنّ تاريخ الطّبري مشحون بالروايات الباطلة ، لكنّه أثنى عليه لأنّه أخرج الروايات مُعنعنةً ، وأسندها إلى أصحابها ؛ ليكون القارئ على بينة ، فقد قال الطّبري في مقدّمة كتابه : " فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصّحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنّه لم يُؤتَ في ذلك من قبلنا ، وإنّما أتى من قبل بعض ناقله إلينا ، وإنّما أدبنا ذلك على نحو ما أدبنا إلينا " (٣).

(١) ابن الأثير " الكامل في التّاريخ " (٢م / ص ٣٥٠).

(٢) ابن العربي " العواصم من القواصم " (ص ٢٥١).

(٣) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ١ / ص ٥).

وقال ابن خلدون : " ... فكثيراً ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء فلا ينبغي أن تسود فيها الصحف " (١).

الدليل على أن الخلاف لم يكن على الملك كما زعموا

قال ابن خلدون : " كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه مُلحد ، وإنما اختلف اجتهادهم في الحق فاقتتلوا عليه " (٢).

وقال ابن حزم : " كانوا عدداً ضخماً جداً لا طاقة له عليهم ، فقد سقط عن عليّ - رضي الله عنه - ما لا يستطيع عليه ، كما سقط عنه وعن كل مسلم ما عجز عنه من قيام بالصلاة ، والصوم ، والحج ، ولا فرق ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴾ [البقرة] " (٣).

قلت : ومما يشهد أن الخلاف لم يكن على الملك كما يُصوّر المبتطلون ما أخرجه يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد عن يعلى بن عبيد ، عن أبيه ، قال : " جاء أبو مسلم الخولاني وأناس إلى معاوية ، وقالوا : أنت تنازع علياً ، أم أنت مثله ؟ فقال : لا والله ، إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني ، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قُتلَ مظلوماً ، وأنا ابن عمه ، والطالب بدمه ، فأتوه ، فقولوا له ، فليدفع إليّ قتلة عثمان وأسلم له ، فأتوا علياً ، فكلّموه ، فلم يدفّعهم إليه " (٤).

وكلّ الأخبار التي تصوّر عمراً ومعاوية - رضي الله عنهما - أنّهما كانا يريدان الدنيا

(١) ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " (٢م / ص ١٨٨).

(٢) ابن خلدون " مقدّمة ابن خلدون " (ص ٢٢٧).

(٣) ابن حزم " الفصل " (ج ٣ / ص ٨٧).

(٤) الذهبي " سير أعلام النبلاء " (ج ٣ / ص ١٤٠) وقال المحقق : رجاله ثقات .

والملك لا تصحّ ، ومن جملة هذه الأخبار ما أخرجه الطبري معلولاً عن أحمد ، عن علي بن عبد الله وهشام بن سعد ، عن عبد الملك بن عمير ، قال : " أغلظ رجلٌ لمعاوية ، فأكثر ، فقبل له : أتحلّم عن هذا ؟ فقال : إني لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا"^(١).

فهذه الرواية تزعم أنّ معاوية - رضي الله عنه - لا يغضب إلا إذا نازعه أحد الملك ، وفيها اتهام صريح لمعاوية أنّه كان يرى أنّ الخلافة ملك لبني أميّة لا ينبغي لأحد أن ينازعه عليها ! وهذا الكذب على معاوية - رضي الله عنه - لا يُستغرب فالشياطين توحى لأوليائها ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ...﴾ [الأنعام].

ويدلّك على بطلان متنها فساد سندها ، فإنّ عبد الله بن صالح بن محمّد^(٢) لم يدرك عبد الملك بن عمير^(٣)، فقد تُوفيّ عبد الملك بن عمير بن سويد اللّخمي سنة مائة وست وثلاثين للهجرة ، وعبد الله بن صالح لم يولد بعد ، وإنّها ولد سنة مئة وسبع وثلاثين للهجرة ، أي بعد وفاة عبد الله بن عمير بسنة ، كذلك الرواية في سندها علّة أخرى ، وهي هشام بن سعد المدني المرمي بالتشيع ، قال عنه ابن حجر : " صدوق له أوهام ورمي بالتشيع"^(٤).

وجملة القول أنّ عليّاً ومعاوية - رضي الله عنهما - كانا مُحَقِّقَيْن في غايتها سليمين في نيتها، ولو كانا يعرفان أنّ الأمر سيفضي بهما إلى الاقتتال لتوقّفا من أول الأمر ، وآية ذلك رغبتهما في التّحكيم وحرصهما عليه ، فقد أمكنهما وقف الاقتتال بعد ثلاثة أو أربعة أيام من نشوبه ، وجنحا إلى السّلم والتّحكيم ، وانتهى الأمر ، فلم يكن في نيّة أحدهما هزيمة الآخر لتحقيق مطلبه .

(١) الطبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ٢٤٩).

(٢) من الطبقة العاشرة ، انظر ترجمته في " تقريب التّهذيب " لابن حجر (ص ٣٠٨ / رقم ٣٣٨٨).

(٣) من الطبقة الرابعة وقال الحافظ : " ثقة فصيح عالم تغير حفظه وربّما دلّس " " تقريب التّهذيب " (ص ٣٦٤ / رقم ٤٢٠٠).

(٤) ابن حجر " تقريب التّهذيب " (ص ٥٧٢ / رقم ٧٢٩٤).

معاوية يرسل بمصحف إلى عليّ ليحتكموا إليه

ثبت في الحديث الصحيح أنّ معاوية - رضي الله عنه - لما استحرّ القتل آوى بجيشه إلى تل يعصمه من القتال ، فأشارَ عليه عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أن يرسل بمصحف مع رجل إلى عليّ ليحتكموا إلى كتاب الله ، فإنّ عليّاً لن يأبى عليه !

قلتُ : وانظر حسنَ الظنِّ ، فهو لا يظنّ بعليّ إلاّ خيراً ، ثمّ انظر كيف كان القرآن في حياتهم شعاراً والسنة دثاراً .

فلما جاء الرجل عليّاً بالمصحف ، رأى عليٌّ - رضي الله عنه - أنّه الأولى بطلب التحكيم وبالمبادرة نزولاً عند قوله تعالى : ﴿ فَإِن نَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... ﴾ (٥٦) [النساء] وعملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ... ﴾ (١٠) [الشورى] فقد كان - رضي الله عنه - وقافاً عند حدود الله .

وبينما هو كذلك جاءه القرءاء الذين سُئِموا بعد ذلك بالخوارج يستأذنونه باستئناف قتال جيش معاوية المعتصم بالتل ، فقام الصحابيّ الجليل سهل بن حنيف فيهم خطيباً يذكرهم بصلح الحديبية ، وكيف أنّ بعض المسلمين كانوا كارهين للصلح ، لكن أعقبه خيرٌ عظيم .

أخرج أحمد بسند صحيح عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : " أتيتُ أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليٌّ بالنهروان ، ففينا استجابوا له ، وفيما فارقه ، وفيما استحلّ قتالهم ، قال :

كنا بصفين ، فلما استحرّ القتل بأهل الشام اعتصموا بتلّ ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : أرسل إلى عليّ بمصحف وادعُهُ إلى كتاب الله ؛ فإنّه لن يأبى عليك ، فجاء به رجلٌ ، فقال : بيننا وبينكم كتابُ الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكَتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢٣) [آل عمران] .

فقال عليّ: نعم أنا أولى بذلك ، بيننا وبينكم كتاب الله . قال : فجاءته الخوارج - ونحن ندعوهم يومئذ القرءاء - وسئو فهم على عواتقهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، ما تنتظر هؤلاء القوم الذين على التلّ؟ ألا نمشي إليهم بسيفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فتكلّم سهل بن حنيف ، فقال :

يا أيّها النَّاسُ ، اتّمموا أنفُسَكُم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصّلى الذي كان بين رسول الله وبين المشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر إلى رسول الله ، فقال : يا رسول الله ألسنا على الحقّ وهم على الباطل؟ أليس قتلنا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال : بلى ، قال: ففيم نُعطي الدّنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال : يا بن الخطّاب إني رسول الله ولن يضيعني أبداً... " (١).

نعم ، هذا ما حدث ، لما رأى سهل بن حنيف كراهة أصحاب عليّ التّحكيم ، وليس كراهة عليّ للتّحكيم كما يزعمون ، خطبهم ووعظهم بأن يتّقوا الرّأي في دينهم ، وأعلمهم بما جرى في صلح الحديبية من كراهة أكثر النَّاس الصّلى ، ومع هذا أعقب هذا الصّلى خيراً عظيماً .

وروى مسلم عن أبي وائل ، قال : " قام سهل بن حنيف يوم صفين ، فقال : " أيها النَّاس ، اتّمموا أنفُسَكُم ، لقد كتّمنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، ولو نرى قتالاً لقاتلنا ، وذلك في الصّلى الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ... " (٢).

فالحديث يُفهم منه أن معاوية وعليّاً - رضي الله عنهما - كانا يرغبان في التّحكيم والصّلى لما سيُفضي إليه الصّلى من خير ، لكنّ بعض أصحاب عليّ - رضي الله عنه - كرهوا ذلك ، وهم الخوارج .

(١) أحمد "المسند" (١٢م/١٢ص ٣٩٩/رقم ١٥٩١٧) .

(٢) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٦م/٦ج ١٢/ص ١٤٠) كتاب الجهاد والسير.

وأخرج البخاري عن الأعمش ، عن أبي وائل قال : " قال سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ : يا أيها الناس ، اتَّهَمُوا رَأْيَكُمْ ^(١) على دينكم ، لقد رَأَيْتُنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ ^(٢) ولو أُسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَرُدَّدْتُهُ ، وما وَضَعْنَا سُيُوفَنَا على عَوَاتِقِنَا إلى أَمْرٍ يُفْطَعُنَا إِلَّا أَسْهَلْنَا ^(٣) بنا إلى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ غَيْرَ هَذَا الأَمْرِ " ^(٤) أي أَنَّ السَّيُوفَ يَفْضِيْنَ بِهِمْ إلى أَمْرٍ سَهْلٍ فِيهِ الخَيْرُ إِلَّا هَذَا الأَمْرَ وَهَذِهِ المَقَاتِلَةُ ، وَاسْتَشَى صِفِّيْنَ ؛ لِقُوَّةِ حَجَجِ الطَّائِفَتَيْنِ وَعِظْمِ الشَّبْهَةِ : إِذْ حُجَّجَ عَلِيٌّ وَمَنْ مَعَهُ قَتَلَ الطَّائِفَةَ البَاغِيَةَ حَتَّى تَعُودَ إلى الحَقِّ ، وَحُجَّجَ معاوية قَتَلَ الخَلِيفَةَ عِثْمَانَ ظَلَمًا وَعَدْوَانًا وَوَجُودَ قَتَلْتَهُ بِأَعْيَانِهِمْ فِي الجَانِبِ العِرَاقِيِّ .

وكيف لا يرغب عليّ - رضي الله عنه - في الصُّلْحِ وَقَدْ رَغِبَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ ؟! فَقَدْ أُخْرِجَ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ إِيَّاسِ بْنِ عَمْرٍو الأَسْلَمِيِّ عَنِ عَلِيٍّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ السَّلْمَ ^(٥) فَافْعَلْ " ^(٦) .

ولذلك كتب عليّ بينه وبين معاوية كتاب الصُّلْحِ أَوْ مَا يَسْمَى بِوِثِيقَةِ التَّحْكِيمِ ، أَوْ كِتَابَ الحُكُومَةِ كَمَا جَاءَ فِي غَيْرِ مَصْدَرٍ ، ثُمَّ انْفَصَلَ الفَرِيقَانِ عَلى أَنْ يَجْتَمِعَ الحُكَمَاءُ أَبُو مُوسَى مِنْ جِهَةِ عَلِيٍّ ، وَعَمْرُو بْنُ العَاصِ مِنْ جِهَةِ معاوية فِي العَامِ القَابِلِ فِي دُومَةِ الجَنْدَلِ ، وَقِيلَ فِي أُذْرَحِ والأوَّلِ أَظْهَرَ ، وَرَجَعَ الفَرِيقَانِ : رَجَعَ معاوية إلى الشَّامِ ، وَعَلِيٌّ إلى الكُوفَةِ .

-
- (١) يظهر أنَّ القراء اتَّهَمُوهُ بالتَّقْصِيرِ فِي القِتَالِ ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الرَأْيَ لَا يُقَالُ بِهِ مَعَ وَجُودِ النَّصِّ .
(٢) أراد يوم الحديبية ، وأبو جندل هو ابن سهيل بن عمرو القرشي ، قال الحافظ : " وكان من السابقين إلى الإسلام ومن عُدِّبَ بسبب إسلامه " ابن حجر " الإصابة " (٤م/ج٧/ص٣٣/رقم ٢٠٢) .
(٣) أنزلتنا في السهل من الأرض ، كناية عن التحوّل من الصّيق إلى الفرج .
(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج٨/ص١٤٨) كتاب الاعتصام .
(٥) أي المُسَلِّم .
(٦) أحمد " المسند " (ج١/ص٤٦٩/رقم ٦٩٥) .

نص كتاب الصلح (وثيقة التحكيم) كما في " كتاب الثقات "

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : قاضى عليّ على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المسلمين ، أنّا ننزل على حكم الله وكتابه ، فما وجد الحكمان في كتاب الله فهما يتبعانه ، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة تجمعهما . وهما آمانان على أموالهما وأنفسهما وأهاليهما، والأمة أنصار لهما على الذي يقضيان عليه ، وعلى المؤمنين والمسلمين .

والطائفتان كلتاها عليهما عهدُ الله وميثاقه أن يفيا بما في هذه الصحيفة على أن بين المسلمين الأمنُ ووضع السلاح وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ليحكم بين الناس بما في هذه الصحيفة على أن الفريقين جميعاً يرجعان سنةً ، فإذا انقضت السنة إن أحبّا أن يرُدّا ذلك ردّا ، وإن أحبّا زادا فيها ما شاء الله ، اللهمّ إنا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة"^(١).

عدد القتلى في صفين وزمن القتال

اضطربت الروايات في كتب التاريخ في عدد القتلى من الفريقين في صفين ، بين مُكثَر ومُقَل ، وهذا الاضطراب وحده في عدد القتلى يضعف تلك الروايات ويجعلها غير مقبولة .

ومن جملة ذلك ما ذكر المسعودي عن أحمد الدورقي ، عن يحيى بن معين " أن عدد من قتل بصفين من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس : من أهل الشام تسعون ألفاً ، ومن أهل العراق عشرون ألفاً"^(٢).

أي أنّه كان يُقتل بمعدّل ألف كلّ يوم ، ونسبة هذا الكلام ليحيى بن معين لا تصحّ؛

(١) محمد بن حبان " الثقات " (ج٢ / ص ٢٩٣) .

(٢) المسعودي " مروج الذهب " (م٢ / ص ٤١٢) .

لأنَّ يحيى بن معين من كبار الآخذين عن تَبَعِ الأتباع ، وهو ثقة حافظ إمام الجرح والتَّعديل ، روى له البخاري ، ومسلم وغيرهما . وقال محمد بن هارون الفلاس : " إذا رأيت الرَّجل يقع في يحيى بن معين فاعلم أنَّه كذاب يضع الحديث ، وإِنَّها يبغضه لما بيَّنت من أمر الكذَّابين " (١) .

فلا يُصدِّق أن هذا العالم الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله ﷺ وبيَّنت أمر الكذَّابين يُحدِّث بمثل هذه الأخبار وهو لم يدركها ، فقد ولد سنة (١٥٨هـ) وصَفَيْن كانت سنة (٣٧هـ) .

ثمَّ كيف للمسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ) أن يُحدِّث عن أحمد الدَّورقي المتوفى سنة (٢٤٦هـ) فالخبر مُعضِل أو مُنقَطِع لأنَّه سقط من إسناده اثنان أو واحد ، ومثل هذا الإسناد غير المتَّصل من طرفيه لا تقوم به حُجَّة ، والدَّورقي ترجم له الحافظ في " تقريب التَّهذيب " (٢) ورتبته ثقة ، فلا يصحَّ نسبة هذه الأخبار له .

ثمَّ ذهب المسعودي إلى أنَّ العدد أكثر ممَّا قيل ، أي أنَّه يُجرِّح أحمد الدَّورقي وشيخه يحيى بن معين ، والجرحُ به أولى ، والمسعودي يُردِّ عليه ولا يُؤخذ منه فهو يذكر الأخبار دون الاهتمام بأسانيدها ، وقد انتقده ابن خلدون في مقدمته بعد الحديث عن أصناف المدركين للغيب من البشر ، فقال : " وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب . ويظهر من كلام الرَّجل أنَّه كان بعيداً عن الرِّسوخ في المعارف ، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله " (٣) .

وقال المسعودي بعد ذلك : " وأما الهيثم بن عدي الطَّائِي وغيره مثل الشَّرقي بن القطامي وأبي مخنف فذكروا ما قدَّمنا ، وهو أنَّ جملة من قُتِل من الفريقين جميعاً سبعون ألفاً : من أهل الشَّام خمسة وأربعون ألفاً ، فيهم خمسة وعشرون بدرياً ... " (٤) .

(١) الذَّهبي " سير أعلام النبلاء " (ج ١١ / ص ٨٣) .

(٢) ابن حجر " تقريب التَّهذيب " (ص ٧٧ / رقم ٣) .

(٣) ابن خلدون " مقدمة ابن خلدون " (ص ١١٩) .

(٤) المسعودي " مروج الذهب " (م ٢ / ص ٤١٢) .

وهؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم كلهم تداولتهم كتب الجرح والتعديل بالتضعيف أو لهم عن آخرهم : فأما الهيثم بن عدي فقد ترجم له ابن الجوزي في " كتاب الضعفاء والمتروكين " وقال : " الهيثم بن عدي : أصله كوفي يروي عن شعبة ، قال يحيى : كان يكذب ، ليس بثقة . وقال السعدي : ساقط ، قد كُشف قناعه . وقال أبو داود : كذاب . وقال النسائي ، والرازي ، والأزدي : متروك الحديث . وقال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به ولا الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار"^(١) وترجم له الذهبي في " المغني في الضعفاء " وقال : " الهيثم بن عدي الطائي أبو عبد الرحمن ، تركوه . وقال أبو داود والسجستاني : كذاب "^(٢).

وأما شرقي بن قطامي فترجم له الرازي في " الجرح والتعديل " وقال : " شرقي بن قطامي الشاعر : ليس بقوي الحديث ، ليس عنده كثير حديث . ويقال : اسم شرقي القطامي الوليد بن الحصين بن حبيب الكلبي "^(٣).

وقد ذكر غير المسعودي غير هذه الأعداد ، ولو تَقَصَّيْتُ ما ذكروه بالبحث والدراسة لاحتجتُ أن أفرد كتاباً . وهم الذين شأنا كتبهم بما نقلوه من أباطيل مما تَلَقَّفُوهُ من كلام الإخباريين وغيرهم !

وما يدلُّك على قلة عدد القتلى أن القتال الحقيقي لم يدم أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام وكان يتوقف ليلاً ، قال صاحب كتاب : " الثقات " : " فلما كان الغد اقتتلوا قتالاً شديداً ، فحجز بينهم الليل حتى قاتلوا ثلاثة أيام "^(٤).

وزد على ذلك أن هناك روايات تتحدّث عن مئات القتلى من الصحابة ، وهذا كذب لأن الصحابة جُلُّهم اعتزل القتال ، ويدلُّك على فساد هذه الدعوى قول الحافظ ابن كثير :

(١) ابن الجوزي " كتاب الضعفاء والمتروكين " (ج ٣ / ص ١٧٩ / رقم ٣٦٢٢).

(٢) الذهبي " المغني في الضعفاء " (٢م / ص ٤٨٨ / رقم ٦٨٠٨).

(٣) الرازي " الجرح والتعديل " (ج ٤ / ص ٣٤٢ / رقم ٦٧٦٢ / ١٦٤٣).

(٤) محمد بن حبان " الثقات " (ج ٢ / ص ٢٩).

"ومن كان من الصحابة مع معاوية ؟ يقال : لم يكن في الفريقين مائة من الصحابة، والله أعلم، وجميعهم صحابة، فهم عدول كلهم"^(١).

وقد خيّر المسلمون يوم صفين أعلاماً من الصحابة منهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب وكان مع معاوية، قال الحافظ : " ولا خلاف في أنه قُتِلَ بصفيين مع معاوية"^(٢)، وقتل في أصحاب عليّ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي^(٣) وقتل أيضاً هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، المعروف بالمرقال ابن أخي سعد بن أبي وقاص^(٤) كما قُتِلَ الصحابيُّ الجليل عمّار ابن ياسر - رضي الله عنهم جميعاً - .

براءة معاوية وعمرو من دم عمّار بن ياسر

قول النبي ﷺ : " وَيَحَ عَمَّارَ تَقْتُلُهُ الْبَاغِيَةُ"^(٥).

لا يفهم منه أنّ فئة معاوية تتحمل دمه ؛ فما جاء مطلقاً في هذا الحديث الشريف ، جاء مُقَيِّداً في حديث آخر ، فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي غادية ، قال : " قُتِلَ عمّار بن ياسر ، فأخبر عمرو بن العاص ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنّ قاتله وسالبه في النَّار . فقيل لعمرو : فإنّك تقاتله ؟ قال : إنّها قال : قاتله وسالبه"^(٦). فالَّذي يتحمّل وزره قاتله وسالبه .

ولم يكن في نيّة أحد من الصحابة أن يقتل عمّار بن ياسر ، وهو يعلم أنّ قاتله في النَّار ! وليس أدلّ على ذلك من رواية أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن الحارث ، قال : " إنّني

(١) ابن كثير "الباعث الحثيث" (ص ١٦٧).

(٢) ابن حجر "الإصابة" (٣م/ج ٥/ص ٧٦/رقم ٦٢٣٥).

(٣) ابن حجر "الإصابة" (٢م/ج ٤/ص ٣٩/رقم ٤٥٥٠).

(٤) ابن حجر "الإصابة" (٣م/ج ٦/ص ٢٧٥/رقم ٨٩١٣).

(٥) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج ٣/ص ٢٠٧) كتاب السير.

(٦) أحمد "المسند" (ج ١٣/ص ٤٩١/رقم ١٧٧٠).

لَأَسَائِرَ عبد الله بن العاص ومعاوية ، فقال عبد الله بن عمرو لعمرو : سمعتُ رسول الله يقول : تقتله الفئة الباغية - يعني عَمَّاراً - ، فقال عمرو لمعاوية : اسمع ما يقول هذا ، فحدثه ، فقال : أنحنُ قتلناه؟! ^(١) فمن قوله : " أنحنُ قتلناه؟! " يفهم أنه لا نيةً لقتله ^(٢) .

عدد من شهد الفتنة من الصحابة - رضي الله عنهم -

وهذه الفتنة لم يشهداها من الصحابة إلا نفر قليل ، خلافاً لما تصوَّره كثير من الروايات الموضوعة التي توغر صدور القراء ، فهذه الروايات فيها أن الذين شاركوا في الجمل وصفين من الصحابة أكثر عدداً من الذين توقفوا ، وما صحَّ ما أخرجه عبد الرزاق في " المصنَّف " بسند صحيح ^(٣) عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، قال : " ثارت الفتنة ، وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف ، لم يخفَّ منهم أربعون رجلاً " ^(٤) أي أن عدد الصحابة الذين شاركوا في الجمل وصفين أقل من أربعين صحابياً .

وأخرج نحوه أبو بكر الخلال بسند صحيح عن محمد بن سيرين ، قال : " هاجت

(١) أحمد " المسند " (ج٦/ص٣٨٩/رقم٦٩٢٦) .

(٢) المشهور أن قاتل عَمَّار أبو الغادية يسار بن سبع ، ترجم له الحافظ في الكنى ، وقال : له صُحبة "الإصابة" (م٤/ج٧/ص١٤٧) .

قلتُ : ومن الغريب أن يكون قاتله وهو يعلم أن قاتله في النَّار ، ومن العجيب أن يقتله ، وقد روي أنه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول : " إنَّ دماءكم وأموالكم حرام... " .

(٣) قلت : وإسناده صحيح ، معمر هو شيخ عبد الرزاق أبو عروة البصري ، قال عنه ابن حجر : معمر بن راشد الأزدي ، ثقة ثبت فاضل إلا أن في روايته عن ثابت والأعمش وهشام بن عروة شيئاً وكذا فيما حدَّث به بالبصرة " تقريب التهذيب " (ص٥٤١/رقم٦٨٠٩) وأيوب بن أبي تميمة : كيسان السخيتاني ، أبو بكر البصري ، ثقة ثبت حجة من كبار الفقهاء العباد " تقريب التهذيب " (ص١١٧/رقم٦٠٥) وابن سيرين ، هو أبو بكر ابن أبي عمرة البصري ، محمد بن سيرين الأنصاري ، ثقة ثبت عابد كبير القدر كان لا يرى الرواية بالمعنى " تقريب التهذيب " (ص٤٨٣/رقم٥٩٤٧) .

(٤) عبد الرزاق " المصنَّف " (ج١١/ص٣٥٧/رقم٢٠٧٣٥) كتاب الجامع .

الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضر فيها مائة بل لم يبلغوا ثلاثين" (١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي، قال: "لم يشهد الجمل من أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار إلا عليّ، وعمّار، وطلحة، والزبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذاب" (٢).

وأخرج أحمد - رحمه الله - عن أمية بن خالد (٣)، قال: قلت لشعبة: إن أبا شيبة (٤) حدّثنا عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنّه قال: "شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، قال: كذب والله؛ لقد ذاكرت الحكم ذاك وذكرناه في بيته، فما وجدنا شهد صفين أحد من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت" (٥).

ولا يُفهم من هذه الروايات تعيين العدد، فقد ذكر كلّ منهم مبلغ علمه، وإنّما يستفاد منها قلة عدد الصحابة في حادثتي الجمل وصفين، ذلك لأنّ الجمل شهدها زيادة على ما ذكر الشعبي عبد الله بن الزبير ذكر ذلك الحافظ في "الإصابة" (٦) وأصيب يومها بجراح، وشهدها الحسن بن عليّ. كذلك شهد صفين من أهل بدر أبو فضالة الأنصاري وقتل فيها مع عليّ، ذكر ذلك البخاري في "التاريخ الأوسط" (٧) وابن حجر في "الإصابة".

(١) أبو بكر الخلال "السنة" (ج ٢/ص ٤١٦/رقم ٧٢٨).

(٢) ابن أبي شيبة "المصنّف" (ج ١٥/ص ٢٤٦/رقم ١٩٦٢٨) وأورده أحمد بن حنبل في "كتاب العلل" (٣م/ص ٤٥) وخليفة في "تاريخ خليفة بن خياط" (ص ١٨٦) وأبو بكر الخلال في "السنة" (ج ٢/ص ٤٦٦/رقم ٧٢٩) وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) أمية بن خالد بن الأسود القيسي، صدوق "تقريب التهذيب" (ص ١١٤/رقم ٥٥٣).

(٤) أبو شيبة هو عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي، ضعيف "تقريب التهذيب" (ص ٣٣٦/رقم ٣٧٩٩).

(٥) أحمد "كتاب العلل" (١م/ص ٢٨٧) وأبو بكر الخلال "السنة" (ج ٢/ص ٤٦٥/رقم ٧٦٢) وقال المحقق: إسناده حسن.

(٦) ابن حجر "الإصابة" (ج ٢/ص ٤٠٧).

(٧) البخاري "التاريخ الأوسط" (ص ٤٣) وابن حجر "الإصابة" (ج ٧/ص ١٥٢/رقم ٨٩٥).

مَن اعتزل الفتنة من الصحابة

مَن اعتزل الفتنة أهبان بن صيفي - رضي الله عنه - ، فقد روى البخاري عن عديسة بنت أهبان بن صيفي ، قالت : " حين قدم عليّ بن أبي طالب البصرة جاء إلى أبي ، فقال أبي : إنّ خليلي وابن عمك أمرني إذا كان قتال بين فئتين من المسلمين أن أَخِذَ سيفاً من خشب ، فانصرف " (١).

ومَن اعتزل المغيرة بن شعبة ، كان معتزلاً بالطائف وأرضها حتى حكم الحكمان ، قال الحافظ عنه : " ... فلما قُتِلَ عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين ، ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع الناس عليه ، ثم ولّاه بعد ذلك الكوفة فاستمرّ على إمرتها حتى مات " (٢).

ومَن اعتزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، قال الذهبي : " والظاهر أنّه اعتزل الفتنة وانزوى إلى الرملة " (٣).

ومَن اعتزل محمد بن مسلمة - رضي الله عنه - ، أخرج أحمد بإسناد حسن عن سهل ابن أبي الصلت ، قال : سمعتُ الحسن يقول : " أنّ عليّاً بعثَ إلى مُحَمَّد بن مسلمة فجاء به ، فقال : ما خَلَفَكَ عن هذا الأمر ، قال : دفع إليّ ابن عمك يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ سَيْفًا ، فقال : قاتل به ما قوتل العدو ، فإذا رأيت الناس يُقتلُ بعضهم بعضاً فاعمدْ به إلى صخرة فاضربْهُ بها ، ثمّ الزم بيتك حتى تأتيك منية قاضية أو يدُ خاطئة ، قال : خَلُوا عنه " (٤).

ومَن اعتزل أسامة بن زيد الحبُّ بن الحبِّ ، قال ابن حجر : " واعتزل أسامة الفتنة

(١) البخاري "التاريخ الأوسط" (ص ٤٧ / رقم ٣٤٥)

(٢) ابن حجر "الإصابة" (٣/ج ٦ / ص ١٣٢ / رقم ٨١٧٥)

(٣) الذهبي "سير أعلام النبلاء" (ج ٣ / ص ٣٣).

(٤) أحمد "المسند" (ج ١٤ / ص ٢٥ / رقم ١٧٩٠٢) وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (ج ٧ / ص ٣٠١)

وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .

بعد قتل عثمان إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية ^(١).

وأخرج البخاري عن حرملة ، قال : " أرسلني أسامةُ إلى عليّ ، وقال : إنّه سيَسْأَلُكَ الآنَ ، فيقول : ما خَلَفَ صاحبك ؟ فقل له : يقول لك : لو كُنْتُ في شِدْقِ الأسدِ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ فِيهِ ، ولكن هذا أمرٌ لم أَرَهُ " ^(٢) أي أنّ عليّاً سِيسأله عن سبب تخلف أسامة بن زيد عن حادثتي الجمل وصفين، ويطلب منه أن يعتذر له أنّه يحب أن يكون معه على السراء والضراء ، لكنّه لا يرى القتال بين المسلمين .

وأسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ ومن آل البيت ، أمّه أمّ أيمن حاضنة النَّبِيِّ ﷺ ، كان النَّبِيُّ ﷺ يُجلّسه على فخذه ويجلس الحسن على فخذه الآخر ويدعو لهما ، روى البخاري عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - عن النَّبِيِّ ﷺ : " أنّه كان يأخذه والحسنَ ، ويقول : اللهمّ آتني أحبّهما فأحبّهما " ^(٣).

ومنهم سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عمر ابن سعد عن أبيه أنّه قال : " جاءه ابنه عامر ، فقال : " أيُّ بُنيّ ، أيّ الفتنة تأمرني أن أكون رأساً؟! لا والله حتّى أعطى سيفاً إن صرّبتُ به مؤمناً نبأ عنه ، وإن صرّبتُ به كافراً قتله !! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنّ الله - عزّ وجلّ - يُحبُّ الغنيّ الحفّيّ التّقيّ " ^(٤).

وأخرج الحاكم بإسناد صحيح عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين ، قال : " قيل لسعد ابن أبي وقاص : ألا تقاتل ؟ فإنّك من أهل السّورى ، وأنت أحقّ بهذا الأمر من غيرك ، قال : لا أقاتل حتّى تأتوني بسيف له عينان ، ولسان وشفتان ، يعرف الكافر من المؤمن ، قد جاهدْتُ وأنا أعرفُ الجهادَ ، ولا أبخع بنفسي إن كان رجلاً خيراً منّي " ^(٥).

(١) ابن حجر " الإصابة " (١م/١ج/١ص/٢٩ رقم ٨٩).

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٤ج/٨ص/٩٩) كتاب الفتن .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٢ج/٤ص/٢١٦) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) أحمد " المسند " (٢ج/٢ص/٢٤٦ رقم ١٥٢٩).

(٥) الحاكم " المستدرک " (٤ج/٤ص/٤٤٣) كتاب الفتن والملاحم ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط =

وروى مسلم عن عامر بن سعد ، قال : " كان سعد بن أبي وقاص في إبله ، فجاءه ابنه عُمَرُ فلَمَّا رآه سَعَدُ ، قال : أعوذ بالله من شرِّ هذا الرَّاكِب ، فنزل ، فقال له : أَنْزَلْتِ في إبلِك وغنمك وتركت النَّاس يتنازعون الملكَ بينهم ، فضرب سَعَدُ في صَدْرِهِ ، فقال : اسكُتْ سمعتُ رسول الله يقول : " إِنَّ الله يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيِّ الحَنَفِيَّ " (١).

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : " إِنَّ أَبِي شكاني إلى رسول الله ﷺ ، فقال لي رسول الله ﷺ : أطلع أباك ما دام حيًّا ولا تَعْصِه ، فأنا معكم ولست أقاتل " (٢).

ومَن اعتزل عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - ، أخرج البخاري عن سعيد بن جبَّير ، قال : " خرج علينا عبد الله بن عمر فرجونا أن يُحدِّثنا حديثاً حسناً ، قال : فبادرنا إليه رجلٌ ، فقال : يا أبا عبد الرَّحْمَنِ ، حدِّثنا عن القتال في الفتنة ، والله يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ... ﴾ [الأنفال] فقال : هل تدري ما الفتنة - ثكلتك أمك - إنَّها كان محمدٌ يُقاتلُ المشركين وكان الدُّخول في دينهم فتنة وليس كقتالكم على الملك " (٣).

ولرَبِّ محتجٍّ محتجٌ علينا يقول : ها هي الأحاديث صريحة في أنَّهم كانوا يُقاتلون على الملك ؟

قلنا : هذا الحديث لا يراد به القتال الذي وقع في الجمل وصفين ، فابن عمر لا يعني

= الشيخين ولم يخرجاه . وأخرجه عبد الرزاق " المصنَّف " (ج ١١ / ص ٣٥٧ / رقم ٢٠٧٣٦) كتاب الجامع .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م / ج ١٨ / ص ١٠٠) كتاب الزهد .
(٢) أحمد " (ج ٦ / ص ١٠٧ / رقم ٦٥٣٨) ، وأورده الهيثمي في " مجمع الزوائد " (ج ٧ / ص ٢٤٤) وقال : رواه أحمد ورجاله ثقات ، وابن حجر في " المطالب العلية " (١٨م / ص ١٧٠ / رقم ٤٤١٧) وقال المحقق : صحيح بهذا الإسناد . وقد وقفت على روايات ضعيفة تشير إلى أنَّه قاتل ورواية أحمد تردّها ، والله أعلم .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ٩٤) كتاب الفتن .

عليّاً ولا معاوية ولا حتى يزيد ، وإنّما المراد فتنة ابن الزبير عام نزول الحجاج به في أواخر سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وصفين حدثت في السابع والثلاثين من الهجرة ، وابن عمر خطابه موجّه لغير الصحابة .

ومن تتبّع طرائق الحديث عرف مناسبته ومعناه والمراد منه ، فقد أخرج البخاري عن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : " أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير ، فقالا : إنّ الناس صنعوا ، وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أنّ الله حرّم دم أخي ، فقالا : ألم يقل الله : ﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ... ﴾ [الأنفال] فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ^(١) .

ومنهم أبو هريرة - رضي الله عنه - ، فهو أحد رواة أحاديث القعود في الفتن كما تقدّم. وممن روى أحاديث القعود في الفتن واعتزل أبو موسى الأشعري ، فقد أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : " كسروا قسيكم ، وقطعوا أوتاركم - يعني في الفتنة - ، والزموا أجواف البيوت ، وكونوا فيها كالخيل من ابني آدم ^(٢) .

وممن اعتزل أبو مسعود ، وهو عقبه بن عمرو الأنصاري ، فقد روى البخاري عن عمرو أنّه سمع أبا وائل يقول : " دخل أبو موسى وأبو مسعود على عمّار حيث بعثه عليّ إلى أهل الكوفة يستنفرهم ، فقالا : ما رأيك أنيت أمراً أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمت ، فقال عمّار : ما رأيت منكما منذ أسلمتما أمراً أكره عندي من إبطائكما عن هذا الأمر ، وكساهما حلّة حلّة ثمّ راحوا إلى المسجد ^(٣) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٥/ص ١٥٧) كتاب تفسير القرآن .

(٢) أحمد " المسند " (ج ١٤/ص ٥٤١/رقم ١٩٥٥١) ورواه الترمذي وحسنه في " الجامع الكبير " .

(٣م/ص ٦٧/رقم ٢٢٠٤) وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج ٨/ص ٩٨) كتاب الفتن .

وانظر كيف جعل كل منهما الإبطاء والإسراع عيباً لما يعتقد من أن الحق معه، فأبو موسى الأشعري، وأبو مسعود الأنصاري - رضي الله عنهما - اعتزلا تمسكاً بالأحاديث الواردة في القعود في الفتن، وما فيها من وعيد لمن حمل السلاح على المسلم، أما عمار - رضي الله عنه - فكان يرى في الإبطاء مخالفة للخليفة علي - رضي الله عنه - في قتال التآكثين والباغين على عثمان - رضي الله عنه - وترك امتثال قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نِعْمَانَ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...﴾ [الحجرات] فكلا الفريقين متأول مجتهد مأجور، ولم يخرجهم ذلك عن العدالة.

فالانتباه الانتباه من الوقوع في الفتن وملاستها، والله الله في الدماء؛ فما أعظم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله!

سبب ملابسة الفتنة واعتزالها

وقد يقول قائل: ألا يترتب على اعتزال الصحابة للفتنة خذلان أهل الحق؟!؟

والجواب أن الصحابة - رضي الله عنهم - تنازعوا هذه المسألة، فقد كانت الأمور مشتبهة اشتباهاً شديداً، فاختلف اجتهادهم، ولم تختلف قلوبهم ولم تتباغض، فمن تبين له الحق باجتهاده مع طائفة كان معها ينصرها، لثبوت أمر الله تعالى بقتال الطائفة الباغية، فالله تعالى يقول: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي نِعْمَانَ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...﴾ [الحجرات] ومن لم يتبين له الحق وغم عليه وتحير ولم يظهر له ترجيح إحدى الطائفتين اعتزلها، عملاً بالآيات والأحاديث التي تنهى عن الوقوع في الفتن وتحذر منها، وكل واحد يعتقد أنه المحق. والحق الصرّف حمل اجتهاد كل واحد من الصحابة على الصواب، سواء من لابس الفتن أو اعتزل؛ لأنهم مجتهدون متأولون.

ومن الأحاديث التي كانت سبباً في اعتزال غير صحابي ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: "ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه"

فَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ ^(١).

وما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن خرشة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ستكون من بعدي فتنة التائم فيها خيرٌ من اليقظان ، والقاعدٌ فيها خيرٌ من القائم ، والقائمٌ فيها خيرٌ من الساعي ، فمن أتت عليه فليمش بسيفه إلى صفاةٍ فليضربه بها حتى ينكسر ، ثم ليصجح حتى تنجلي عما انجلت " ^(٢).

وما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن زياد بن مسلم، عن أبي الأشعث الصنعاني قال : بعثنا يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير فلما قدمت المدينة دخلت على فلان سمى زياد اسمه ، فقال: " إن الناس قد صنعوا ما صنعوا فما ترى ؟ فقال : أوصاني خليلي أبو القاسم ﷺ إن أدركت شيئاً من هذه الفتن فاعمد إلى أحد فاكسر به حد سيفك ، ثم أفضد في بيتك ، قال : فإن دخل عليك أحد إلى البيت فقم إلى المخدع ، فإن دخل عليك المخدع فاجث على ركبتك ، وقل : بؤ يا ثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فقد كسرت سيفي وقعدت في بيتي " ^(٣).

أحاديث الوعيد على من حمل السلاح على أخيه المسلم

وأهل السنة مجمعون على تحريم الطعن على أحد من أصحاب النبي ﷺ بسبب ما جرى بينهم ، حتى لو عرف المحق منهم ؛ لأنهم لم يقاتلوا على الدنيا ، ولا قاتلوا عن جهل ، أو أتباع هوى ، وإنما هم متأولون مجتهدون فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد وهو أجر الاجتهاد ؛ ذلك أن المجتهد المتأول من آحاد الناس له أجر وإن أخطأ ، فما ظنك بالصحابة الذين هم أكمل اجتهاداً وأحسن تأويلاً ! ولذلك فإن مخطئهم كمصيبهم في أصل الأجر والثواب وتحري الحق والصواب .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج٨/ص٩٢) كتاب الفتن .

(٢) أحمد " المسند " (ج١٣/ص٢٣٣/رقم١٦٩٤٧) .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٤/ص٢٦/رقم١٧٩٠٥) .

أَمَا مَنْ يَرُدُّ هَذَا الْكَلَامَ بِمَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ عَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، قَالَ : " ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ (يَعْنِي عَلِيًّا) ، فَلَقِينِي أَبُو بَكْرَةَ ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قُلْتُ : أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ ، قَالَ : ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانُ بَسِيفَيْهِمَا ، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالْأَلِّ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ " (١) .

فَإِنَّ الرَّدَّ عَلَى هَذَا الَّذِي أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ الَّذِي فِيهِ أَنَّ الْقَاتِلَ وَالْمَقْتُولَ فِي النَّارِ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ قَاتَلَ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ سَائِعٍ ، وَيَكُونُ قِتَالَهُمَا عَنْ جَهْلٍ ، أَوْ هَوًى ، أَوْ عَلَى دُنْيَا ، أَوْ مُلْكٍ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

وَلَعَلَّ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ ! فُقِيلَ : كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ؟ ! قَالَ : الْهَرْجُ ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ " (٢) فَيَبِّينُ هَذَا الْحَدِيثَ عِلَّةَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ ، وَهُوَ إِذَا كَانَ الْقِتَالُ عَنْ جَهْلٍ وَعَصْبِيَّةٍ فَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : " فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ " .

فَإِنْ احْتَجَّوْا عَلَيْهِمْ لِمَا جَرَى بَيْنَهُمْ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : " لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ " (٣) .

فَإِنَّا نَقُولُ لَهُمْ : هَلْ وَصَلَكُمْ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِمْ ؟ ! أَمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مِنْ عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ وَسَائِرِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - الَّذِينَ رَوَوْا الْحَدِيثَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَقَلُوهُ إِلَيْنَا ؟ ! ثُمَّ كَيْفَ تَحْتَجِّجُونَ عَلَيْهِمْ بِأَحَادِيثَ بَلَّغْتَهُمْ قَبْلَ أَنْ

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ج/٣٧) كتاب الذبائح ، وأخرجه في (كتاب الإيمان) ، كذلك أخرج نحوه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/١٨ج/١٠) .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/١٨ج/٣٥) كتاب الفتن .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/٥ج/١٢٦) كتاب المغازي .

تبلغكم ، ولا تعظّمون حرمتهم ، ولا تعرفون سابقتهم ، وتستطيّلون عليهم وأنتم دونهم !؟ وهذا الحديث لا ينطبق على الصّحابة .

وكُلّ الأحاديث التي بهذا المعنى لها تأويل مبسوط في كتب شروح الحديث ، ومنها ، قول النبي ﷺ : " سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ " (١) .

والمراد بالكفر كُفْرُ الإحسان وأخوّة الإسلام ، لا كُفْرُ الجحود والنكران المُخرج من المِلَّةِ بالتَّهَامِ ، فكُفْرٌ دون كفر ، وفسوق دون فسوق ، ويكفي لتأكيد ذلك أن تدبّر قوله تعالى : ﴿ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... ﴾ (١٧٧) ﴿ [البقرة] فَإِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْفُسُوقِ يَخْتَلِفُ عَنِ الْفُسُوقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٩) [البقرة] فالفسوق درجات كما الكفر درجات .

وفي تأويل هذا الحديث أقوال أُخَر ، منها : أنّه في المستحلّ ، ومنها أنّه على سبيل التشبيه لأنّ هذا الفعل يشبه فعل الكفّار ، وقيل : إنّ أحاديث النهي مخصوصة بآخر الزّمان ، حيث تتحقّق المقاتلة في طلب الملك ، فقد وقع في حديث أبي موسى الأشعري أنّ النبي ﷺ قال : " إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ ، وَيُنزَلُ فِيهَا الْجَهْلُ ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرَجُ ، وَالْهَرَجُ الْقَتْلُ " (٢) .

وهناك أقوال أُخَر يضيّق المقام عن ذكرها ، ولعلّ أقوى هذه الأقوال أنّ إطلاق الكفر على قتال المؤمن للمبالغة في تحذير السّامع ؛ لينزجر ويرتدع عن الإقدام على القتال ، ولذلك فقد توقّف غير عالم عن تأويل أحاديث الوعيد لتكون أكثر زجراً ، وأشدّ ردعاً .
والحقّ الَّذي عليه السّلف والخلف أنّنا يجب أن نمسك عمّا جرى بينهم ، ولا نذكرهم إلاّ بما ذكرهم الله في كتابه ، والنبي ﷺ في سنّته .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م/١ج/٢ص/٥٤) كتاب الإيمان .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٤ج/٨ص/٨٩) كتاب الفتن .

اجتماع الحكمين

ما حقيقة ما جرى في التحكيم ؟ وما الأمر الذي اجتمع لأجله الحكمان ؟ وعلام اتفقا ؟ وما نتائج التحكيم ؟

تَقَدَّمَ أَنَّ حَاصِلَ الْخِلَافِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَانَ يَعْتَقِدُ بِوُجُودِ قِتْلَةِ عِثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْجَانِبِ الْعِرَاقِيِّ ، فَاعْتَلَّ بِأَنَّ عِثْمَانَ قُتِلَ مَظْلُومًا ، وَهُوَ وَلِيُّ دَمِهِ ، وَتَجِبُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْأَخْذِ عَلَى يَدِ قَتْلِهِ ، وَأَنَّ لَهُ شَوْكَةَ عَلَى ذَلِكَ ، فَالْتَمَسَ مِنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يَأْخُذَ لَهُ حَقَّهُ فِي حِينِهِ وَفِي وَقْتِهِ ، أَوْ يَسَلِّمَهُ إِيَّاهُمْ وَيَمَكِّنَهُ مِنْهُمْ ؛ لِأَخْذِهِمْ بِعِثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثُمَّ يَسَلِّمَ لَهُ ، أَمَّا عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَكَانَ يَرَى تَأْخِيرَ ذَلِكَ حَتَّى يَتَوَطَّدَ الْأَمْرُ لَهُ وَيُخْضَعَ الْبِلَادُ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْوَاجِبُ طَاعَتَهُ ، وَلَيْسَ عَلَى مَعَاوِيَةَ إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدِنَّ بِقِتَالِ الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ .

ولذلك فإن اجتماع الحكمين كان للنظر في قضية مقتل عثمان - رضي الله عنه - ، والنظر في الخلاف الذي نشأ عن ذلك بين معاوية وعليّ - رضي الله عنهما - : معاوية الذي يرى أن له الحق في الطلب بدم عثمان - رضي الله عنه - ومحاسبة قتلته ، وعليّ - رضي الله عنه - الذي يرى الاجتماع على الطاعة ووحدة الجماعة ، ليقوى على وضع الحق مواضعه ، ثم يطلب منه أولياء الدم بعد ذلك القصاص ممن يثبت عليه قتل عثمان أو الممالة على دمه .

فاجتمع الحكمان للنظر في رأي من يستحق أن يُقدّم على الآخر ، وكيف السبيل إلى الخروج من هذه الشدة ، ولم يجتمعا للنظر في عزل أحد ، وما كان لأبي موسى وعمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن يخلعا خليفة انعقدت له البيعة من أهل الحل والعقد ! وليس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما يُوجبُ خلعَ عليّ - رضي الله عنه - فلم يظهر منه ما يوجب خلعه .

قال محمد بن حبان : " فلما دخلت السنة الثامنة والثلاثون اجتمعوا لميعادهم مع الحكمين ولم يخرج عليّ بنفسه ووافى معاوية في أهل الشام وكان بينه وبين أبي موسى الأشعري

ما كان وافترق النَّاسَ ورجعوا إلى أوطانهم"^(١).

وأصحُّ ما روي في هذا الشَّان ما ذكره ابن عساكر عن حُضَيْن بن المنذر ، وهو أحد قادة جيش عليّ ، ومن كبار التابعين الثَّقَات ، فقد أرسل إليه يومها معاوية ، وكان قد بلغه ما يكره من أمر الحكّمين ، وهذا يدلُّك على أنّ تلفيق الأخبار وإثارة الشَّائعات حول حقيقة قرار الحكّمين قد بدأ مبكراً وأنه دُبِّر بليلاً .

قال معاوية : " إنّه بلغني عن عمرو بعض ما أكره ، فأنته فاسأله عن الأمر الذي اجتمع هو وأبو موسى فيه ، كيف صنعا ؟ قال : فأنته ، فقلت : أخبرني عن الأمر الذي اجتمعتما فيه أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال النَّاس ، والله ما كان ما قالوا ، ولكن لما اجتمعتُ أنا وأبو موسى قلتُ له : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنّه في النَّفَر الذي توفّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، قال : فقلتُ : أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية ؟ وقال : إن يُستعن بكما ففيكما معونة ، وإن يُستغنى عنكما فطالما استغنى أمرُ الله عنكما "^(٢).

هذا هو قرار الحكّمين : ردُّ الخلاف الذي بين عليّ ومعاوية إلى أهل الشُّورى الذين توفّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ، فهم أجدر ببحثه ، ورأيهم أدعى للقبول .

وأهل الشُّورى الذين نصَّ عليهم عمر لما حضرته الوفاة ستة نفر ، قال عمر - رضي الله عنه - : " ما أجد أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النَّفَر أو الرَّهط الذين توفّي رسولُ الله وهو عنهم راضٍ ، فسَمي : عليّاً ، وعثمان ، والزَّبير ، وطلحة ، وسعداً ، وعبد الرَّحمن ، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر^(٣) ، وليس له من الأمر شيء "^(٤).

(١) ابن حبان " الثَّقَات " (ج ٢ / ص ٢٩٧)

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج ٤٦ / ص ١٧٥) وذكره ابن العربي في " العواصم من القواصم " (ص ١٨١) وعزاه إلى الدَّارقطني .

(٣) وعبد الله بن عمر لم يعدّه من أهل الشُّورى ولكن جبر خاطره بأن جعله من أهل المشاورة في ذلك .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (ج ٢ / ص ٢٠٦) كتاب بدء الخلق .

ولم يكن يوم التحكيم من هؤلاء غير عليّ ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، فأما عبد الرحمن بن عوف فهات في خلافة عثمان ، وأما عثمان وطلحة والزبير فقتلوا ظلماً وعدواناً .

ويظهر أنّ الحكمين قد اجتهدا في الأمر وأدركا بثاقب فكرهما ، وصائب رأيهما ألاّ يعجلا في الأمر ، وأن يشاركهما الرأي كِبَارُ الصّحابة وأعيانهم من أمثال سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر شقيق حفصة أم المؤمنين ، وهما عظيمي القدر ؛ عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ... ﴾ [الشورى] فضلاً عن خشية الحكمين أن يستغلّ مرضى القلوب قرار التحكيم إن لم يكن مرضياً لأحد الفريقين في تجديد الخلاف وإيقاع الفتنة ، خاصة وأنّ كلا الفريقين ظل يظنّ أنّه على الحقّ وأنّ الحقّ معه .

فهذا معاوية - رضي الله عنه - ظلّ معتقداً أنّه على الحقّ حتى بعد التحكيم ، ويعذر بهذا ؛ لأنّه لو كان يرى أنّ الحقّ مع عليّ فلا معنى لمخالفته له ، أخرج البخاري عن ابن عمر ، قال :

" دخلتُ على حفصة ، ونوساتها تنطف^(١) ، قلتُ : قد كان من أمر الناس ما ترين ، فلم يُجعل لي من الأمر شيءٌ ، فقالتُ : الحقُّ ، فإتّهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فُرقةٌ ، فلم تدعه حتّى ذهب ، فلما تفرّق الناس خطب معاوية ، قال : مَنْ كان يُريدُ أن يتكلّم في هذا الأمر فليُطلع لنا قرّنه ، فلنحنّ أحقُّ به منه ومن أبيه ، قال حبيب بن مسلمة : فهلاًّ أجبتُهُ ، قال : عبد الله : فحللتُ حُبوتي وهمتُ أن أقول : أحقُّ بهذا الأمر منك مَنْ قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيتُ أن أقول كلمة تُفرّق بين الجمع وتسفك الدّم ويُحمّل عني غير ذلك ، فذكرتُ ما أعدّ الله في الجنان ، قال حبيبٌ : حُفِظَتْ وَعَصِمَتْ " (٢) .

وتقدير الكلام أنّ عبد الله بن عمر دخل على أخته حفصة (أم المؤمنين) وكانت

(١) أي صَفَائِرَ شعرها تَقَطُرُ .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٣م/ج ٥/ص ٤٨) كتاب المغازي .

نوساتها تقطر بللاً - كأنها كانت اغتسلت - فشاورها فيما كان بين معاوية وعليّ واجتماع الناس على التحكيم للنظر فيما اختلفا فيه ، وكانوا قد تواعدوا على الاجتماع في دومة الجندل ، وسألها إن كان الخير في أن يقعد أو يلحق بهم ، فأشارت عليه أنه لا يجملُ به أن يتخلف عن صلح بين أمة محمد ﷺ ، وهو صهر رسول الله ﷺ وابن عمر بن الخطاب ، وألحّت عليه حتى ذهب ووافاهم هناك .

فلما تفرّق الناس ، قال معاوية - رضي الله عنه - كلمة تُعبّر عن قناعته أنه على الحقّ ، قال: " من كان يُريدُ أن يتكلّم في هذا الأمر فليُطع لنا قرّنه ، فلنحُنْ أحقُّ به منه ومن أبيه " وقد فسّر الحافظ في الفتح قوله " هذا الأمر " وقال: " أي بالخلافة " (١). قلت: وفيه بُعدٌ؛ لأنّ الخلاف بينهما لم يكن على الخلافة كما تقدّم ، والمراد من الأمر الطّلب بدم عثمان - رضي الله عنه - والله أعلم .

وهناك من حمّل هذا الحديث على أنّه كان في زمن معاوية لما أراد أن يعهدَ ليزيد ، وأنّ ابن عمر كان يرى أنّه أحقُّ بالخلافة ويطمع فيها ، وأنّ معاوية كان لا يرى أحداً أحقُّ بالخلافة من يزيد ، وهذا لا يصحّ ، وقد وجّه ابن حجر هذا الحديث بما يفيد أنّ هذه القصة كانت في التّحكيم بعد صفّين ، فقد ذكر طريقاً آخر للحديث من رواية عبد الرزاق عن معمر ، قال: " فلم تدعه حتى يذهب ، فلما تفرّق الحكّمان ، خطب معاوية ... " (٢) وقال ابن حجر : وهو يفسّر المراد ويعيّن أنّ القصة كانت بصفّين (٣) وقيل غير ما تقدّم ، وأياً كان سبب ومناسبة هذا الحديث فالظنّ بمعاوية لا يكونُ إلاّ خيراً .

فإن قال قائل : فقد شهد التّحكيم من شهد من كبار الصّحابة من أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الرّحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزّبير ، والمغيرة بن شعبة ، وسعد بن أبي وقاص على خلافٍ فيه ، فأيّ فائدة من هذا القرار الذي خرجا به !؟

(١) ابن حجر " فتح الباري " (ج٧/ص٣٢٤) .

(٢) الصّنعاني " مصنّف عبد الرزاق " (ج٥/ص٤٨٣ / رقم٩٧٧٩) .

(٣) ابن حجر " فتح الباري " (ج٧/ص٣٢٣) .

فالجواب أنّ من شهد لم يكن له من الأمر شيء ، وإنّما الأمرُ أمرُ الحكّمين ، وأي قرار عنها يتحمّلان تبعته وحدهما ، وقرار خلع عليّ وإثبات معاوية يستحيل أن يصدر عنهما ، وهما أتقى لله من أن يفعلا ذلك ؛ لما في ذلك من مخالفة للكتاب والسنة ، ولما ينشأ عن هذا القرار من فساد وفرقة ، وهذا خلاف الذي اجتمعا لأجله ، ثم إنّ سعد بن أبي وقاص هناك خلاف على حضوره .

وتأجيل الحكومة من قبل الحكّمين لم يخرج عمّا جاء في كتاب الصلح ، فلهما أن يؤجلا الأمر إذا اقتضت المصلحة ذلك كما يفهم من كتاب الصلح . وأيّاً كان الأمر فلا بدّ أنّ للصحابة - رضي الله عنهم - فيما شجّر بينهم أعداراً تخفى علينا .

وهذا التّحكيم كان من نتائجه ظهور المحقّ من المبطل ، فقد ظهر أنّ عليّاً ومعاوية كانا محقّقين في غايتهما لكنّ عليّاً كان الأدنى إلى الحقّ ، وظهر أنّ المبطل هم الخوارج الذين خرجوا على عليّ - رضي الله عنه - يوم علموا أنّ الحرب التي أشعلوها قد وضعت أوزارها ، فلم يرّض هؤلاء بالاحتكام إلى كتاب الله لحقن دماء المسلمين ، ولا رضوا بقرار التّحكيم ، فقَاتلهم عليّ بعد ذلك لما ظهر منهم ، وكان له أجرٌ على قتاله لهم ، ويشهد لذلك ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : " تكون في أمّتي فرقتان ، فتخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحقّ " (١) .

ذُكِرْنَا لِمَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ لَا يَنَافِي أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْإِمْسَاكِ عَنْ ذِكْرِهِمْ

هذا مجمل تلك الأحداث ولها بسط في كتب التاريخ لا يسرّ الناظرين ، على أن الإيجاز في هذا المقام هو الأولى واللائق ، والاختصار على الصّحيح هو الحقّ والواجب ، فقد قال ﷺ : " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا " (٢) فكثرة المقالة في هذا الموضوع قد تكون عشرة غير مُقابلة ، كما

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج٧/ص١٦٨) كتاب الزّكاة .

(٢) رواه الطّبراني في " المعجم الكبير " (ج٢/ص٩٣/رقم١٤٢٧) وقال الهيثمي : رجال سنده رجال الصّحيح إلّا واحداً اختلف فيه ، وقد وثقه ابن حبان وغيره " تطهير الجنان واللسان " (ص٥٠) والألباني " سلسلة الأحاديث الصّحيحة " (١م/ص٤٢/رقم٣٤) .

أن الواجب إذا صحَّ شيء عن الصحابة - رضي الله عنهم - أن نحمله على أحسن تأويل إذ هم أهل لذلك بصريح القرآن والسنة .

وذكرنا لما جرى بين أصحاب النبي ﷺ لا ينافي أمر النبي ﷺ بالإمساك عن الحديث عن أصحابه ؛ لأن ما ذكرناه هو الحق الذي لا بد من بيانه من عدالة الصحابة خلافاً لما يذكره المبطلون من أخبار كاذبة يتخذونها مدخلاً للطعن على أصحاب النبي ﷺ ليقوعوا العامة في بغضهم .

فالإمساك الذي أمر ﷺ به هو الإمساك عن الكلام عنهم إذا كان فيه تنقيص لهم ، أو وضع منهم ، أو إزراء بهم ، أما ذكرهم للذب عنهم وبيان فضائلهم والافتداء بهم فلا يُفهم ذلك من الحديث ، فلو أمسكنا عن الحديث كيف سيفهم الجاهل الحق من الباطل ، ومتى سيعرف المؤمن الصحيح من السقيم ؟! ومن الأقوال السائرة عند العرب : " اعقل لسانك إلا في أربعة : حق توّضّحه ، وباطلٍ تدحضه ، ونعمة تشكرها ، وحكمة تظهرها " (١) .

وقد بلغ من جهل الجهلاء أن وصفوا من يُحَقِّق فيما جرى بين أصحاب النبي ﷺ بمن يعبت بأكفان الموتى ، أو بمن شغّل نفسه بنش قبور الموتى ، وهذا أعجب ما سمعت ؛ إذ أباحوا لأنفسهم كتابة الأباطيل ، وعابوا على غيرهم بيان زيفها ! فهم لا يريدون أن نعرف من تاريخنا الإسلامي إلا ما أرادوه لنا !

ولا عجب أن يسخر أقوام ممن غايته بيان عذر أصحاب رسول الله ﷺ وتنزيه الصحابة وإظهار قدرهم ؛ فأعجب من ذلك أنهم ما قدروا الصحابة أنفسهم ، وهذا يذكر بقول الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (١٢) وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿ [الصفات] .

وهذا البلاء ليس باستطاعة معاوية - رضي الله عنه - دفعه ، فالله تعالى إذا أراد شيئاً أصابه ، فقد قال له النبي ﷺ ذات يوم : " يا معاوية ، إن وُلِّيتَ أمراً فاتق الله - عزّ وجلّ -

(١) المنجد في اللغة والأعلام : (ص ٣٣) فرائد الأدب .

واعِدِلْ . قال : فما زلتُ أظنّ أنّي مبتلى بعمل لقول النبي ﷺ حتّى ابتليت^(١) .

فمن أراد النّجاة فليُعرض عن هواة التّرهات وعشاق الجدل الذين يخاصمون في الصّحابة بالباطل ، فقد ذمّ الله تعالى الجدل لغير إحقاق حقّ وإبطال باطل ، فقال : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ [الزخرف] فأنا أعلم أنّ من النّاس ناساً مهما جتتهم بآية وبيّنة لا يؤمنون بها اقتداء بكفار قريش الذين لم تنفع فيهم معجزة ولا آية ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ ﴾ (١٤) ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١٥) ﴿ [الحجر] وفي الحديث الشّريف عن أبي أمامة قال رسول الله ﷺ : " ما ضلّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدل ثم تلا هذه الآية ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف] " (٢) .

مناظرة ابن عبّاس الخوارج فيما نَقَموه على عليّ

من هم الثّراء ؟ ولماذا خرجوا على عليّ ؟ ولماذا سمّوا بالحروريّة ؟ وماذا قال لهم ابن عبّاس في مناظرته لهم فيما أنكروه على عليّ حتّى يرجع منهم ألفان ؟

أما من أنكر على عليّ - رضي الله عنه - التّحكيم في صفين ، وادّعى أنّ عليّاً حكّم الرجال في دين الله تعالى ، وذلك حرام بدليل قوله تعالى ﴿ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ (٥٧) ﴿ [الأنعام] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ... ﴾ (١٠) ﴿ [الشورى] .

فإنّ الذين أنكروا عليه ذلك هم الخوارج ، وكانوا يُسمّون قبل ذلك بالقرّاء لكثرة اجتهادهم في تلاوة القرآن الكريم ، إلّا أنّهم كانوا يتأولون بعض آياته على غير مراد الله منه ويتعنّتون برأيهم . وسُمّوا بالخوارج بعد حادثة التّحكيم لأنّ طائفة منهم ابتدعت وخرجت

(١) أخرجه أحمد في "المسند" بإسناد صحيح (ج ١٣ / ص ٢٠٤ / رقم ١٦٨٧٢) وهو في "سير أعلام النبلاء" (ج ٣ / ص ١٣١) وقال المحقّق: رجاله ثقات .

(٢) أحمد "المسند" (ج ١٦ / ص ٢٢٣ / رقم ٢٢٠٦٤) وإسناده صحيح .

على الدين وعلى عليّ أمير المؤمنين ، وسمّوا بعد ذلك بالحرورية لأنهم فارقوا عليّاً واعتزلوه ونزلوا في مكان قرب الكوفة يسمّى حروراء ، واتّفقوا هناك على قتال أهل العدل ، فأرسل إليهم عليّ ابن عباس فناظرهم فحجّهم فرجع منهم ألفان .

وما كان عليّ - رضي الله عنه - ليقاتل هؤلاء إلّا بعد أن ظهر منهم ما يوجب قتالهم ، وما قاتلهم إلّا بعد أن أقام الحجّة عليهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا... ﴾ (١١٥) ﴿ [التوبة].

فقد أرسل لهم عليّ ابن عباس وهو حبر هذه الأمة وترجمان القرآن ، فدخل عليهم في دار نصف النهار ، وسألهم عما نتموه على عليّ ، فذكروا أموراً ثلاثة :

إحداهنّ : أنّه حكّم الرّجال في أمر الله ، والله يقول : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴾ (٥٧) ﴿ [الأنعام] والثانية : أنّه قاتل ولم يسب ولم يغنم ، والثالثة : أنّه محا نفسه من أمير المؤمنين .

فاشترط عليهم ابن عباس أن يرجعوا إذا قرأ عليهم من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ما يردّ قلوبهم ، فوافقوا .

فقرأ عليهم ردّاً على مطعنهم الأول قول الله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ... ﴾ (١٥) ﴿ [المائدة] فقد صير الله حكمه إلى الرّجال في قتل صيد الأرنب ونحوه في حالة الإحرام بحج أو عمرة ، ومقتضى كلام ابن عباس أنّ الله تعالى لو شاء لحكّم ، ولكن أجاز للرّجال أن تحكّم ، فكأنّه يقول لهم : فأيهما أولى وأفضل حكم الرّجال في أرنب أم في إصلاح ذات البين بين معاوية وعليّ وحسن دماء المسلمين بين الطائفتين المؤمنتين ؟

ثمّ قرأ عليهم آية أخرى تجيز حكم الرّجال في إصلاح ذات البين وذلك بين الرّوجين، وأنّ دمّ أمة محمد ﷺ أعظم حرمة من امرأة ورجل مختلفين، فقرأ عليهم قول الله تعالى في امرأة ورجل : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ رِشْقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ

أَهْلَهَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ [النساء] فكان جوابه مُسْكَنًا .

هذا ولا يخفى أن علياً - رضي الله عنه - ما حَكَمَ الرجال في دين الله تعالى ، وإنما حَكَمَ كلام الله ، قال علي - رضي الله عنه - : " والله ما حَكَمْتُ مخلوقاً ، إنما حَكَمْتُ القرآن " (١) .

نعم ، حَكَمَ كتاب الله لأن الله يقول : ﴿ فَإِنْ نَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... ﴾ ﴿٥٩﴾ [النساء] فكيف يردُّ علي - رضي الله عنه - هذا النزاع بين الطائفتين المؤمنتين إلى الله والرسول ؟ هل يترك الجميع يتكلم بحجته فيكثر اللغط ، ويضيع الحق ؟ أم يتدبُّ رجلين عدلين مَرَضِيَّين من كلا الطائفتين من أهل الرأي والحجبا يحكمان لمن أوجب الله في كتابه الحكم له ؟ هذا ما فعله - رضي الله عنه - لا سيِّما وآته واثق بأن الحق معه !

وكيف يمتنع التحكيم ، وهو عمل بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... ﴾ ﴿٩﴾ [الحجرات] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... ﴾ ﴿١٠﴾ [الحجرات] بل اللجوء إلى التحكيم وقبوله من حسنات علي ومعاوية - رضي الله عنهما - . وهو مُصَدِّق لقوله تعالى في وَصْفِ أصحاب النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ ... ﴾ ﴿٣٩﴾ [الفتح] ، وقوله تعالى : ﴿ أَدِّلْهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضَ عَلَى الْكٰفِرِينَ ... ﴾ ﴿٥٤﴾ [المائدة] .

أما الأمر الثاني الذي احتجوا به ، وهو أنه قاتل في الجمل وصفين ولم يسب ولم يغتم ، فبين لهم أن ذلك لا يحل شرعاً ؛ فكيف يسبُّون أمهم عائشة ويستحلُّون منها ما يستحلُّون من غيرها ، إذ السبايا يجوز الزواج بهنَّ ، وعائشة أمهم ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاحَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا

(١) ابن الجوزي " فنون الأفتان " (ص ٥٥) وانظر " مجموع فتاوى ابن تيمية " (ج ١٢ / ص ٤١٨) كذلك (ص ٥٠٥) .

﴿٥٣﴾ [الأحزاب] فَإِنِ اسْتَحْلَوْا ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرُوا ، وَإِن قَالُوا : لَيْسَتْ بِأَمْنًا فَقَدْ كَفَرُوا لِأَنَّ
الله يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ... ﴾ ﴿٦﴾ [الأحزاب]
فألجمهم الحجّة .

وأما الأمر الثالث : فهو أنه محاذ نفسه من أمير المؤمنين ، وذلك أن علياً - رضي الله عنه -
لما كتب وثيقة التّحكيم كتب : " هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية " ولم يكتب :
هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ ، وظنوا أن محوهُ لفظ أمير المؤمنين محاهُ من الخلافة .

فبين لهم ابن عباس أن النبي ﷺ في صلح الحديبية طلب من عليّ أن يكتب : " هذا ما
صالح عليه محمد بن عبد الله ... " ولم يكن محوهُ نفسه ذلك محاهُ من النبوة ! فلا يعني عدم
كتابة عبارة (رسول الله) التنازل عن النبوة ، وطالما أنه مسبق بذلك بمن هو خيرٌ منه فلا
معنى لإنكارهم ! فرجع منهم ألفان ، وقاتل من بقي منهم بعد ذلك المهاجرون والأنصار
على ضلالتهم .

وهذا نصُّ المناظرة التي جرت بين ابن عباس والحروية ، وفيها من الفوائد الثّميّة
الكثير لمن تدبّرها :

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ، قال : " لما
خرجت الحروية اجتمعوا في دار ، وهم ستة آلاف ، أتيتُ علياً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،
أبردُ بالظهر لعليّ آتي هؤلاء القوم فأكلهم . قال : إني أخاف عليك . قلت : كلاً . قال
ابن عباس : فخرجتُ إليهم ولبست أحسن ما يكون من حُللِ اليمن ، قال أبو زميل : كان
ابن عباس جميلاً جهيراً .

قال ابن عباس : فأتيتهم ، وهم مجتمعون في دارهم ، قائلون ، فسلمتُ عليهم فقالوا :
مرحباً بك يا بن عباس فما هذه الحلّة ؟ قال : قلت : ما تعيبون عليّ ؟! لقد رأيتُ على رسول
الله ﷺ أحسن ما يكون من الحُلل ، ونزلت : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأعراف] قالوا : فما جاء بك ؟ قلت : أتيتكم من عند

صحابه النَّبِيِّ ﷺ من المهاجرين والأنصار ، لأبْلَغَكُمْ ما يقولون ... فعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بالوحي منكم ، وفيهم أنزل : وليس فيكم منهم أحد . فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً ، فإنَّ الله يقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ [الزَّخْرَف] قال ابن عباس : وأتيت قوما لم أر قوما قطَّ أشدَّ اجتهاداً منهم مسهمة وجوههم من السَّهر ، كأن أيديهم وركبهم تشنى عليهم ، مضى من حضر ، فقال بعضهم : لنكلمنَّه ولننظرنَّ ما يقول .

قلت : أخبروني ماذا نقتم على ابن عمِّ رسول الله ﷺ ، وصهره والمهاجرين والأنصار ؟ قالوا : ثلاثاً . قلت : ما هنَّ ؟

قالوا : أمّا إحداهنَّ فإنه حَكَمَ الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى ﴿ إِنْ أَلْحَمَكُم إِيَّاهُ ... ﴾ ﴿٥٧﴾ [الأنعام] وما للرجال وما للحكم ؟ فقلت : هذه واحدة .

قالوا : وأمّا الأخرى فإنه قاتل ، ولم يسب^(١) ولم يغنم ، فلئن كان الذي قاتل كَفَّاراً لَقَدْ حَلَّ سبيهم وغنيمتهم ، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم . قلت : هذه اثنتان ، فما الثالثة ؟ قال : إنَّه محام^(٢) نفسه من أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين . قلت : أعندكم سوى هذا ؟ قالوا : حسبنا هذا .

فقلت لهم : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سُنَّة نبيِّه ﷺ ما يردُّ به قولكم أترضون ؟ قالوا : نعم .

فقلت : أما قولكم : حَكَمَ الرِّجال في أمر الله فأنا أقرأ عليكم ما قد ردَّ حكمه إلى الرِّجال في ثمن ربيع درهم في أرنب ونحوها من الصَّيد ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ... ﴾ [المائدة] فنشدتكم الله أحكم الرجال في أرنب ونحوها من الصَّيد أفضل ، أم

(١) السَّبْيُ والسَّيْباء : الأسر وأخذ النِّساء والذُّرية غنيمة في الحرب .

(٢) المحو : الإزالة ، والمسح وذهاب الأثر والتنحية .

حكمتهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم ؟ وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال ، وفي المرأة وزوجها قال الله - عز وجل - : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا... ﴾ (٣٥) [النساء] فجعل الله حُكْمَ الرجال سنَّة مأمونة ، أخرجت عن هذه ؟ قالوا: نعم .

قال : وأما قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغتم ، أنسبون أمكم عائشة ثم يستحلون منها ما يستحل من غيرها ؟ فكنن فعلتم لقد كفرتم وهي أمكم ، ولئن قلت : ليست أمنا لقد كفرتم فإن الله يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ... ﴾ (٦) [الأحزاب] فأنتم تدورون بين ضاللتين أيها صرتم إليها صرتم إلى ضلالة ، فنظر بعضهم إلى بعض ، قلت : أخرجت من هذه ؟ قالوا : نعم .

قال : وأما قولكم محاسن من أمير المؤمنين ، فأنا آتيكم بمن ترضون وأريكم ، قد سمعتم أن النبي ﷺ يوم الحديبية كاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب فقال رسول الله ﷺ لأمر المؤمنين : اكتب يا علي : هذا ما اصطاح عليه محمد رسول الله ، فقال المشركون : لا والله ما نعلم إنك رسول الله لو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنك تعلم أنني رسول الله ، اكتب يا علي : هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله . فوالله لرسول الله خير من علي ، وما أخرجه من النبوة حين محاسن نفسه ، قال عبد الله بن عباس : فرجع من القوم ألفان ، وقتل سائرهم على ضلالة ^(١) .

ومما يستفاد من المناظرة أن على الداعية أن يكون عالماً بالكتاب والسنة فقيهاً في الدين عالماً بالتأويل ...

(١) الحاكم "المستدرک" (ج٢/ص١٥٠) كتاب قتال أهل البغي . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وأخرجه النسائي في " خصائص أمير المؤمنين علي " (ص١٥٠) ، وقال المحقق : إسناده صحيح .

إخبار النبي ﷺ عن الحرورية وأن علياً سيقاتلهم على التأويل

ماذا أخبر النبي ﷺ عن الحرورية (الخوارج) ؟ وبماذا نعتهم ؟ وهل في هؤلاء القوم علامة ؟ وماذا صنعوا حتى يقاتلهم علي - رضي الله عنه - في النهروان ويستبيح دماءهم ؟

الله تبارك وتعالى عرّض على نبيه ﷺ ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة ، لحديث أحمد وغيره عن أم حبيبة عن النبي ﷺ ، قال : " رَأَيْتُ مَا تَلَقَى أُمَّتِي بَعْدِي وَسَفَكَ بَعْضُهُمْ دِمَاءَ بَعْضٍ وَسَبَقَ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يُؤَلِّينِي سَفَاعَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيهِمْ ، ففعل " (١).

وقد أخبر ﷺ بأمر الخوارج وذكر أوصافهم ، وجاء نعتهم لهم كفلق الصبح في عهد الخليفة الراشد علي - رضي الله عنه - ، وذلك من دلائل وعلامات النبوة التي لا تعرف إلا بالوحي ، فقد أخبر ﷺ أنهم سيخرجون في آخر زمان خلافة النبوة ، وذمهم ﷺ في غير حديث ، وحرّض على قتلهم ، وأخبر أن في قتلهم أجراً ، أخرج البخاري عن علي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

" سيخرج قومٌ في آخر الزمان حُدَاتُ الْأَسْنَانِ سَفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ، يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة " (٢).

وأخبر ﷺ أنهم شرُّ الخلق ، أخرج مسلم عن أبي ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ : " سيكون بعدي من أمّتي قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز حلقيمهم ، يخرجون من الدين كما

(١) أحمد " المسند " (ج ١٨ / ص ٥٣٨ / رقم ٢٧٢٨٣) وإسناده صحيح ، وأخرجه الحاكم في " المستدرک " (ج ١ / ص ٦٨) كتاب الإيمان ، وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج ٨ / ص ٥٢) كتاب استتابة المرتدين . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م / ج ٧ / ص ١٦٤) كتاب الزكاة .

يُخْرِجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ " (١).

ومن العلامات التي نَعَتَهُمْ بِهَا ﷺ أَنَّهُمْ مَهْرَةٌ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، لَكِنَّهُمْ يَتَأَوَّلُونَ خَطَأً ، وَأَنَّ فِيهِمُ الْمُخْدَجَ وَهُوَ نَاقِصُ الْيَدِ ، وَيَدُهُ مِثْلُ ثِيَابِ الْمَرْأَةِ ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ كَانَ فِي الْجَيْشِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الَّذِينَ سَارُوا إِلَى الْخَوَارِجِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

" أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : يُخْرِجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُهُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صَلَاتُهُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صِيَامُهُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصَيَّبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لِأَتَكَلَّمُوا عَنِ الْعَمَلِ ، وَآيَةٌ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلْمَةِ الثَّدِيِّ عَلَيْهِ شَعْرَاتٌ بَيْضٌ . فَتَنْدُهِبُونَ إِلَى مَعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ وَتَتْرَكُونَ هَؤُلَاءَ يَخْلِفُونَكُمْ فِي ذُرَارِيكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ؟! وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَغَارُوا فِي سَرْحِ النَّاسِ ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ .

قال سلمة بن كهيل : فَنَزَلَنِي زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ مَنزَلًا حَتَّى قَالَ : مَرَرْنَا عَلَى قَنْطَرَةٍ فَلَمَّا التَقِينَا وَعَلَى الْخَوَارِجِ يَوْمئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبِ الرَّاسِبِيِّ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَلْقُوا الرِّمَاحَ وَسَلُّوا سِوْفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَزْرَوَاءَ ، فَرَجَعُوا فَوَحَّشُوا بِرِمَاحِهِمْ وَسَلُّوا السِّوْفَ وَشَجَّرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ ، قَالَ : وَقُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَمَا أَصِيبُ مِنَ النَّاسِ يَوْمئِذٍ إِلَّا رَجُلَانِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : التَّمَسُّوا فِيهِمُ الْمُخْدَجَ ، فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَقَامَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَى نَاسًا قَدْ قُتِلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، قَالَ : أَخْرَوْهُمْ فَوَجَدُوهُ مَمَّالِي الْأَرْضِ ، فَكَبَّرَ ثُمَّ قَالَ : صَدَقَ اللَّهُ وَبَلَغَ رَسُولُهُ ، قَالَ : فَقَامَ إِلَيْهِ عُبَيْدَةُ السَّلْمَانِيُّ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَسَمِعْتَ هَذَا الْخَلْدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَتَّى اسْتَحْلَفَهُ ثَلَاثًا وَهُوَ

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/٧ج/ص ١٧٤) كتاب الزكاة .

يُحلف له " (١).

ومن دلالات الحديث أنّ عليّاً - رضي الله عنه - كان عنده علمٌ من النبيِّ ﷺ فيما يتعلق بقتال الخوارج وعلاماتهم ، وكان عنده علمٌ بأنّه مقتول وأنّ قاتله أشقى القوم .

وفي الحديث الكفُّ عن قتال من يعتقد الخروج على الإمام ما لم يناصره القتال ، وما لم يسفك الدّم الحرام ، لقول عليّ : " فإتّمم قد سفكوا الدّم الحرام " وفيه كراهة عليّ لقتال أهل الشّام ورغبته في قتال الحروريّة لأنّهم وراء كلّ شرٍّ ، فلا يستبعد أن يكون لهم يد في قتل عثمان ، وإيقاع الفتنة في الجمل وصفين ، وآية ذلك رفضهم التّحكيم في صفين الذي فيه حقن لدماء المسلمين ، وإصرارهم على مواصلة قتال أهل الشّام خشية أن يصطلح الفريقان على دمائهم ، بعد أن فُضِح أمرهم وظهر من أفعالهم وأقوالهم ما أخبر به النبيُّ ﷺ .

وورد في علاماتهم التي يُعرفون بها أنّهم قوم يخلقون رؤوسهم ويتيهون عن الصّواب ولا يهتدون الطّريق الحقّ ، أخرج مسلم عن سهل بن حنيف عن النبيِّ ﷺ ، قال : " يتيه قومٌ قبّل المشرق مُحلّقةٌ رؤوسهم " (٢).

وقد أخبر النبيُّ ﷺ في حياته أنّ عليّاً سيقاتلهم ، أخرج أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد الخدريّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّ منكم من يُقاتل على تأويله كما قاتلتُ على تنزيله ، قال : فقام أبو بكر وعمر ، فقال : لا ، ولكن خاصف النّعل ، وعليّ يخصف نعله " (٣).

ووردت لهم علامات أُخر ، والكتاب ليس موضوعاً لاستقصائها ، أمّا الذي أحدثه هؤلاء حتّى قاتلهم عليّ ، فزيادة على ما تقدّم ذكره ذهبوا إلى إكفار الصحابة وإكفار من لا يعتقد معتقدهم وأنّه مباح الدّم والمال ، وأنّه خالد مخلّد في النّار ، وانتقلوا من القول إلى الفعل فقتلوا الصّحابيّ الجليل عبد الله بن خباب بن الأرت ، وكان والياً للخليفة عليّ على بعض

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج٧/ص١٧١) كتاب الرّكاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/ج٧/ص١٧٥) كتاب الرّكاة .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٠/ص١٠٨/رقم١١٢٢٨) .

تلك البلاد ، وقتلوا معه سرّيته (امرأته) وهي حُبلى بعد أن بقروا بطنها عن ولد لها ، فقد أخرج أحمد عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم قال : "دَخَلُوا قَرْيَةَ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ دَعِرًا يُجْرِرُ رِدَاءَهُ ، فَقَالُوا : لَمْ تُرْعَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ رُعْتُمْوَنِي ، قَالُوا : أَنْتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَبَّابٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتَ مِنْ أَبِيكَ حَدِيثًا يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَدِّثَانَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ سَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ فِتْنَةَ الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِيِّ ، وَالْمَاشِيِّ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي ، قَالَ : فَإِنْ أَدْرَكَتَ ذَاكَ فَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ ، قَالَ أَيُّوبُ : وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ : وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْقَاتِلَ ، قَالُوا : أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ أَبِيكَ يُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَدْ مَوَّهَ عَلَى صَفَةِ النَّهْرِ ؛ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَسَالَ دَمُهُ كَأَنَّهُ شِرَاكُ نَعْلِ مَا ابْدَقَرَ^(١) ، وَبَقَرُوا أُمَّ وَوَلَدَهُ عَمًا فِي بَطْنِهَا"^(٢).

وهذا أول أمرهم ، فطلب منهم علي أن يسلموه قتلة عبد الله بن خباب فأبوا ، وقالوا : كلنا قتله ، فأرسل إليهم يناشدهم فلم تزل رُسُلُهُ تختلف إليهم حتى قتلوا رسوله ، فقَاتلهم علي[ؑ] - رضي الله عنه - فقتلهم ، ثم اختفوا في خلافته وأضمرُوا أن يقتلوه سرًا ، فأرسلوا إليه رجلاً من شر ما أظلمت السماء وأقلتت الغبراء ، وهو عبد الرحمن بن ملجم أشقى الناس ، فكان أن قتله وهو يصلي الفجر .

فلما آلت الخلافة إلى الحسن وصالح بعد ذلك معاوية ثارت منهم جماعة فأوقع بهم معاوية - رضي الله عنه - بجيشه في النجيلة ، فظلُّوا محتفين في زمان معاوية وابنه يزيد ، ثم توسَّعوا بعد ذلك في معتقدهم الفاسد ، فحكّموا بكفر من يعتقد معتقدهم إذا لم يخرج لمقاتلة المسلمين وسيهم ونهبهم ، وأبطلوا رجم المحصن ، وقالوا بقطع يد السارق من الإبط ، وأوجبوا الصلّاة على الحائض في حال حيضها ...

(١) ما ابْدَقَرَ : ما انقطع وما تفرّق .

(٢) أحمد " المسند " (ج ١٥ / ص ٣٩٢ / رقم ٢٠٩٦٢) وإسناده ضعيف لجهالة الراوي الأعلى ، وأخرج نحوه ابن أبي شيبة بسند صحيح في " مصنّف ابن أبي شيبة " (م ١٥ / ص ٣١٠ / رقم ١٩٧٤٢) كتاب الجمل .

قَاتِلْ عَلِيًّا - رضي الله عنه - الأَشْقَى !

مرض أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - ذات يوم ، فجاءه أبو سنان الدؤلي يعوده وقد تخوّف عليه ، لكنّ الخليفة لم يتخوّف على نفسه ؛ لأنّ النّبِيَّ ﷺ أخبره بأنّه سيقتل مظلوماً ، وأنّ قاتله أشقى النّاس ، فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أسلم ، أنّ أبا سنان الدؤلي حدّثه ، أنّه عاد عليّاً - رضي الله عنه - في شكوى له أشكاها ، قال :

" فقلتُ له : لقد تخوّفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه ، فقال : لكنّي والله ما تخوّفتُ على نفسي منه ، لأنّي سمعتُ رسول الله ﷺ الصّادق المصدوق ، يقول : إنّك ستضربُ ضربةً ها هنا ، وضربةً ها هنا - وأشار إلى صدغيه^(١) - فيسيل دمها حتّى تختضب لحيّتك ، ويكون صاحبها أشقاها ، كما كان عاقر النّاقة أشقى ثمود"^(٢).

وأخرج أحمد بسند صحيح عن زيد بن وهب ، قال : " قدم عليّ على قوم من أهل البصرة من الخوارج ، فيهم رجلٌ يُقال له الجعد بن بعجة ، فقال له : أتق الله يا عليّ ، فإنّك ميّت ، فقال عليّ : بل مقتولٌ ، ضربةٌ على هذا تُخضبُ هذه"^(٣) عهدٌ معهود ، وقضاء مقضّي ، وقد خاب من افتري ، وعاتبه في لباسه ، فقال : ما لكم وللباس ؟ هو أبعدُ من الكبر ، وأجدر أن يقنّدي بي المسلم"^(٤).

ولمّا ضرب ابن ملجم عليّاً الضّربة بالكوفة سنة أربعين ، قال عليّ : " افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله ، فقال : اقتلوه ثمّ حرّقوه"^(٥).

(١) الصّدغ : ما بين العين إلى شحمة الأذن.

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣ / ص ١١٣) كتاب معرفة الصّحابة . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرّجاه . وسكت عنه الذهبي . وأخرج نحوه ابن سعد في " الطبقات الكبرى " (٣م / ص ٣٥) بإسناد مرسل ضعيف عن عبيد الله ، لكنّ الحديث صحيح .

(٣) يعني لحيته من رأسه .

(٤) أحمد " المسند " (ج ١ / ص ٤٧٢ / رقم ٧٠٣) .

(٥) أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي نَحْيٍ " المسند " (ج ١ / ص ٤٧٨ / رقم ٧١٣) .

وعبد الرحمن بن ملجم المرادي ، قاتل عليّ ، كان مع عليّ في صفّين ، ثمّ كان منه ما كان ،
وفعل ما فعل ، فعليه من الله ما يستحقّ !

عليّ - رضي الله عنه - شذرات من مناقبه

عليّ بن أبي طالب القرشيّ الهاشميّ ، أبو الحسن ، جَمُّ المناقب ، وُلِدَ قبل البعثة بعشر
سنين ، وتربّى في حجر النّبِيِّ ﷺ ولم يفارقه ، وشهد معه المشاهد كلّها إلّا غزوة تبوك فقد
استخلفه^(١) ﷺ في المدينة ، وقد ثبت في الصّحاحين أنّ النّبِيَّ ﷺ قال له بسبب ذلك : " أما
ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى " ^(٢).

وقد استدلّ أقوام بهذا الحديث على إثبات الخلافة لعليّ واستحقاقه لها بعد النّبِيِّ ﷺ
دون غيره من سائر الصّحابة ، ولا حجة لهم في هذا الحديث في إثبات شيء من هذا ، لأنّ
هارون المشبّه به كان خليفة لموسى - عليه السّلام - في حياته لا بعد مماته ، فقد مات هارون
قبل موسى بسنين مدداً باتّفاق ، وإتّما قال له ﷺ ذلك بعد أن كره عليّ أن يخلف النّبِيَّ في
النّساء والصّبيان ، وقال - رضي الله عنه - للنّبِيِّ ﷺ : " تخلفني في النّساء والصّبيان ؟! فقال
ﷺ : أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي " ^(٣).

والحديث ليس فيه إلّا منقبةً لعليّ - رضي الله عنه - فقد جعله بمنزلة هارون من موسى
في الخلافة في حياته . وقد وُلِدَ المولّدون لعليّ - رضي الله عنه - من المناقب ما هو في غنى عنها ،
وأولّوا ما صحّ من مناقبه تأويلاً غير سائغ خالفوا فيه الكتاب والسّنّة وإجماع الأئمة .

وقد صحّ إيهاء النّبِيِّ ﷺ إلى خلافة أبي بكر في غير حديث ، منها ما رواه الحاكم عن

(١) استخلفه : أي خلفه على المدينة ليدير شؤون النّاس .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٤ج/٢٠٨) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم " صحيح مسلم
بشرح النّووي " (٨م/٨ج/١٥ص/١٧٥) كتاب فضائل الصّحابة .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النّووي " (٨م/٨ج/١٥ص/١٧٥) كتاب فضائل الصّحابة .

عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ : " ... يأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر " (١).

وأوضح من ذلك قول النبي ﷺ لعائشة - رضي الله عنها - : " بل أنا وارأساه ! لقد هممتُ أو أردت أن أرسلَ إلى أبي بكر وابنه فأعهدَ أن يقول القائلون أو يتمنى المؤمنون ، ثم قلتُ يأبى الله ويدفعُ المؤمنون أو يدفعُ الله ويأبى المؤمنون " (٢).

وبهذا الحديث الشريف يُعرف فضل الصّدّيق والصّدّيقة ، فقد أراد النبي ﷺ أن يستميل قلبها ببيان عزمه على أن يعهد بالخلافة لأبيها خشيةً تمنى المؤمنون ، والحديث من دلائل التّبوّة ؛ فقد وقع ما أخبر به ﷺ من أنّ الله يأبى إلاّ خلافة أبي بكر ، ويدفع المؤمنون خلافة غيره .

ومثله ما أخرج مسلم عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه : " ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً فإنّي أخاف أن يتمنى مُتمنٍ ، ويقول قائل : أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر " (٣).

ومن صحيح مناقب عليّ - رضي الله عنه - قوله ﷺ يوم خيبر : " لأعطينَ هذه الرّاية رجلاً يحبُّ الله ورسوله " (٤) فأعطاه إياها ، فثبتت بذلك محبّة الله تعالى له ومحبّة رسوله ﷺ .

وقد أفرد النسائي - رحمه الله - كتاباً في مناقب عليّ - رضي الله عنه - سمّاه " خصائص أمير المؤمنين عليّ " وقد حقّق هذا الكتاب العلامة أبو إسحاق الحويني وغيره ، وحكم على صحيحه وضعيفه .

ويكفي عليّاً - رضي الله عنه - أنّ النبي ﷺ توفّي وهو راضٍ عنه ، وهو زوج ابنته فاطمة

(١) الحاكم " المستدرک " (ج٣/ص٤٧٧) كتاب معرفة الصّحابة ، وقال الذهبي في تلخيص المستدرک: إسناده صحيح .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (م٤/ج٨/ص١٢٦) كتاب الأحكام .

(٣) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (م٨/ج١٥/ص١٥٥) كتاب فضائل الصّحابة .

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (م٨/ج١٥/ص١٧٧) كتاب فضائل الصّحابة .

- رضي الله عنها - ، وأحد كتّاب الوحي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السّنة أصحاب الشورى ، ورابع الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم جميعاً - .

معاوية - رضي الله عنه - نُبذ من مآثره وغرر من فضائله

معاوية بن أبي سفيان: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، أسلم قبل الفتح، وأسلم أبوه بعده ، وولي أمرة دمشق عن عمّ بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان سنة تسع عشرة ، واستمرّ عليها بعد ذلك ، فقد أقرّه عثمان - رضي الله عنه - ، وحسبك بمن يؤمره عمر ويقره عثمان ! وظلّ عليها زمان خلافة عليّ - رضي الله عنه - ، ثم اجتمع عليه النَّاس في سنة إحدى وأربعين إلى أن مات سنة ستين ، وكان مُلكه على الحرمين ومصر والشّام ، والعراق ، وخراسان ، وفارس ، والجزيرة ، واليمن ، والمغرب ... فَحَكَمَ العربَ والعجم ، ودام حكمه بين إمارة وخلافة أكثر من أربعين سنة متصلة ، وعاش قرابة نصف قرن في خدمة الإسلام وأهله .

وهو أقرب النَّاس إلى رسول الله ﷺ نسباً بعد بني هاشم ، فهو يلتقي مع رسول الله ﷺ في عبد مناف .

ويكفي معاوية - رضي الله عنه - أنّه فاز بشرف صحبة النَّبيِّ ﷺ ، وروى عنه الحديث الشّريف ، وكتب له الوحي فكان أميناً على خبر السّماء ، أخرج مسلم عن أبي زميل ، وهو سهاك بن الوليد ، عن ابن عباس ، قال :

" كان المسلمون لا ينظرون إلى أبي سفيان ، ولا يُقاعدونه ، فقال للنبيِّ ﷺ ثلاثُ أعطينهنَّ ، قال : نعم ، قال : عندي أحسنُ العرب وأجملهُ أم حبيبة بنتُ أبي سفيان أزوَّجكها ، قال : نعم ، قال : ومعاويةُ تجعلُهُ كاتباً بين يديك ، قال نعم ، قال : وتؤمّرني حتّى أقاتل الكفّار كما كنتُ أقاتلُ المسلمين ، قال : نعم . قال أبو زميل : ولولا أنّه طلب ذلك من النَّبيِّ ﷺ ما أعطاه ذلك لآته لم يكن يُسأل شيئاً إلا قال نعم ^(١) .

(١) مسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/١٦ج/٦٢) كتاب فضائل الصّحابة - رضي الله عنهم - .

أي أن أبا سفيان - رضي الله عنه - طلب من النبي ﷺ أن يجعل معاوية كاتباً له ، فوافق ﷺ ، ولذلك فإن قلم معاوية الذي سطر به القرآن للنبي ﷺ من أشرف الأقلام ، فأبو سفيان ومعاوية يعلمان شرف الكتابة ، فهما يقرآن قول الله تعالى: ﴿أَلَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق] وقوله تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم] فانظروا ماذا سطر معاوية ، وماذا سطر هؤلاء الذين يجهلون على معاوية! ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِفُونَ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]. طوبى ليد معاوية التي كتبت الوحي لرسول الله ﷺ ، وطوبى لعينيه اللتين رأتا رسول الله ﷺ مسلمتين!

ويكفي معاوية - رضي الله عنه - شرفاً أنه قاتل مع النبي ﷺ في غزوة حنين ، وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ... ﴿١٦﴾﴾ [التوبة] ومعاوية - رضي الله عنه - من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي الأمين ﷺ .
ويكفيه أنه ممن أنفق من قبل الفتح في حنين والطائف وقاتل فيهما ، فاستحق وعد الله الجنة ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى... ﴿١٠﴾﴾ [الحديد].

ويكفيه فخراً أنه قاتل في عهد أبي بكر - رضي الله عنه - المرتدين ، وأنه ولي إمرة دمشق عن عمر بعد موت أخيه يزيد بن أبي سفيان ، وأنه أول من غزا في البحر ، ففتح قبرس سنة ثمان وعشرين في خلافة عثمان - رضي الله عنه - وكان يومئذ أميراً له على الشام ، أخرج البخاري عن أنس بن مالك عن خالته أم حرام بنت ملحان ، قالت :

" نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني ، ثم استيقظ يتبسّم ، فقلتُ : ما أضحكك ؟ قال : أناسٌ من أمّتي عرّضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالمملوك على الأُسرة ، قالت : فادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثم نام الثانية ، ففعل مثلها ، فقالت مثل قولها ، فأجابها مثلها ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : أنت من الأولين ، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصّامت غازياً أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية ، فلما انصرفوا من غزاهم قافلين ،

فنزلوا الشَّامَ ، فَقُرِّبَتْ إِلَيْهَا دَابَّةٌ لتركبها ، فَصَرَ عَثْمَا ؛ فهانت ^(١) .

ويكفي معاوية - رضي الله عنه - أن سيرته في الجهاد في عهد ابن عمّه عثمان - رضي الله عنه - وعهد من قبله - رضي الله عنهم جميعاً - ذائعة مشهورة ، فقد غزا الروم غير مرّة ، وهذا يبين كذب من زعم أن عثمان - رضي الله عنه - كان يجابي قرابته ، أو أنّه كان يوليّ قرابته ؛ فالذي استعمل معاوية - رضي الله عنه - على دمشق هو الفاروق عمر - رضي الله عنه - ، فلما آل الأمر إليه أقره عثمان - رضي الله عنه - لعلمه بفضلته .

أما الحديث الذي يتعلّقون به على عثمان - رضي الله عنه - أنّه قال : " لو أنّ بيدي مفاتيح الجنّة لأعطيتهما بني أميّة حتّى يدخلوا من عند آخرهم " ^(٢) فهذا الحديث إسناده ضعيف لانتقاعه .

ومن أبرز أعمال معاوية - رضي الله عنه - إنشاء ديوان الخاتم ، واستحداث البريد ، وتنظيم الصّوائف والشّواتي ^(٣) ، وإنشاء مراكز لصناعة السفن البحريّة ، والتّصديّ لثورات الخوارج ، ونشر العدل والاستقرار في الولايات الإسلاميّة ...

وكان معاوية - رضي الله عنه - محبوباً في إمارته ، لعلم رعيّته بفضلته وعلمه وحلمه وجهاده وعدله... ولما كانوا ينعمون به من الرّخاء في عهده ، فهذا كلّ جعل منه أميراً محبوباً للنّاس ومحبباً لهم ، وقد قال النّبيّ ﷺ : " خيار أئمتكم الذين تحبّونهم ويحبّونكم ، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنّونهم ويلعنّونكم " ^(٤) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج٣/ص٢٠٣) كتاب الجهاد والسير ، وأخرجه البخاري في كتاب الاستئذان ، وأخرجه مسلم في " صحيح مسلم بشرح النووي " (٧م/ج١٣/ص٥٧) كتاب الإمارة .

(٢) أحمد " المسند " (ج١/ص٣٥٢/رقم٤٣٩) .

(٣) أي تنظيم الجيوش التي كانت تغزو الدّولة البيزنطيّة صيفاً وشتاءً .

(٤) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م/ج١٢/ص٢٤٥) كتاب الإمارة .

ومما يشهد بحسن سياسته مع رعيته مقولته المشهورة : " لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدّوها خلّيتها ، وإذا خلّوها مددتها " (١) .

ومما يشهد بعدله وإنصافه أن قوماً كانوا عند الأعمش فذكروا عمر بن عبد العزيز وعدله ، فقال الأعمش : " فكيف لو أدركتم معاوية ؟ قالوا : يا أبا محمد ، يعني في حلمه ؟ قال : لا والله ، ألا بل في عدله " (٢) .

وقد ثبت عن الزهري أنه قال : " عمل معاوية بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يحرم منها شيئاً " (٣) فيا ليت لنا رجالاً ملء الأرض من أمثال معاوية - رضي الله عنه - ولكن :

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إنَّ الزمان بمثله لبخيل !
ومما يشهد بعلمه وفقهه ، ما أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة ، قال : " أوتر معاوية بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ، فأتى ابن عباس ، فقال : دعه فإنه قد صحب رسول الله ﷺ " (٤) .

وما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة ، قيل لابن عباس : " هل لك في أمير المؤمنين معاوية ، فإنه ما أوتر إلا بواحدة ، قال : إنه فقيه " (٥) وحسب معاوية شهادة ابن عباس له بالصّحة والفقه ، والله درّ القائل :

عاب التّفقه قومٌ لا عقولٌ لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضرّ شمس الصّحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من كان ذا بصير

(١) ابن قتيبة " عيون الأخبار " (م / ١ ص ٦٢) .

(٢) أبو بكر الخلال " السنّة " (ج ٢ / ص ٤٣٧ / رقم ٦٦٧) .

(٣) أبو بكر الخلال " السنّة " (ج ٢ / ص ٤٤٤ / رقم ٦٨٣) وقال المحقق : إسناده صحيح .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٤ / ص ٢١٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٥) المرجع السابق .

وانظر إلى هذه الفوائد في الحديثين السابقين ، ففيها وصف لمعاوية بالفقه والصّحبة ، وفيها زجر للمُنكِر على معاوية في اجتهاده ، فلا مسوّغ للإنكار عليه إذ لا يفعل شيئاً إلا بمسند وبرهان فهو أهل للاجتهاد . وبهذا يُعرف عذر معاوية في صفين إذ أنّه من أهل الفقه والاجتهاد ، وقد وافقه جمع من الصّحابة - رضي الله عنهم - وتابعوه في اجتهاده ووقفوا معه ، فهو أعلم بحُكم الله تعالى فيها جرى ، ويتّج عن ذلك عذرُه كما تقرّر .

أمّا الفائدة التي عَزَّ على كثير التنبّه إليها وقَلَّ مَنْ يلحظها ، فهي أنّ هذه الشّهادة جاءت من حبر هذه الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، الذي لا يُتّهم بمحاباة معاوية ، فهو من أهل البيت والتابعين للخليفة عليّ - رضي الله عنه - فهو ابن عمّه ، والقائم على نصرته في حياته وبعد استشهاده ، لكنّ ذلك كلّهُ لم يمنعه من قول الحقّ الذي تَرَبَّى عليه في مدرسة النّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وتأمّل هذا الدّعاء من النّبِيِّ ﷺ لمعاوية - رضي الله عنه - ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الأزدي ، عن النّبِيِّ ﷺ أنّه ذَكَرَ معاوية ، وقال " اللهم اجعله هادياً مهدياً ، وأهد به " (١) .

وروي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - ، قال : " ما رأيتُ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا ، يعني معاوية " (٢) .

ويكفي الذين يلمزونه إثماً أنّهم يردّون كلام الله ؛ لأنّ الله تعالى أتى عليه فيمن أتى عليهم ، فقال : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح] فالصّحابة - رضي الله عنهم - هم المثني عليهم في التّوراة والإنجيل والقرآن ، ومعاوية - رضي

(١) أحمد المسند " (ج ١٣ / ص ٥٣٩ / رقم ١٧٨٢١) وإسناده صحيح ، وأخرجه الترمذي في " الجامع الكبير " (٦م / ص ١٥٧ / رقم ٣٨٤٢) أبواب المناقب . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وهو في " صحيح سنن الترمذي " للألباني (ج ٣ / ص ٢٣٦ / رقم ٣٠١٨) .

(٢) الذهبي " سير أعلام النبلاء " (ج ٣ / ص ١٣٥) وقال المحقّق : رجاله ثقات ، وذكره المحدث ابن حجر الهيثمي في " تظهير الجنان " (ص ٢٤) وقال : رجاله رجال الصّحيح إلا واحداً منهم فتنة .

الله عنه - واحد منهم ، فمن حقّه علينا - رضي الله عنه - أن نذكره كما ذكره الله في كتابه ، وأن نثني عليه كما أثنى الله على أصحاب نبيّه محمد ﷺ ، والآيات في الثناء عليه وعلى سائر الصحابة - رضي الله عنهم - كثيرة ، وليس هذا موضع إحصائها ولا مكان استقصائها .

ومعاوية - رضي الله عنه - خال المؤمنين ، فأخته أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة) فهو أخو أم حبيبة زوج النبي ﷺ ، والذي لا يعرف فضل معاوية - رضي الله عنه - وقدره ، فذلك عيبٌ فيه لا في معاوية - رضي الله عنه - ، ولعمري قد أحسن من قال :

والتَّجْمُ تستصغُرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ والدَّنبُ للطرفِ لا للتَّجْمِ في الصَّغْرِ

إحياء معاوية للسنن

كان معاوية - رضي الله عنه - حريصاً على إقامة سنن الإسلام وشرائعه وشعائره ، فمن ذلك أنه قدم المدينة المنورة ، ويظهر أنه سمع اختلافاً على صوم يوم عاشوراء ، فخطب في جمعهم ، وأعلمهم بسنة النبي ﷺ وأن صيامه ليس واجباً ولا محرماً ، ولا مكروهاً ، ولم يُنكر عليه أحد :

أخرج البخاري عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنها - يوم عاشوراء عام حج^(١) على المنبر يقول : " يا أهل المدينة أين علمائكم؟! سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : هذا يومٌ عاشوراء ولم يُكْتَبْ عليكم صيامه وأنا صائم فمن شاء فليصم ، ومن شاء فليُفطر " ^(٢) .

إنكار معاوية للمنكر ومحاربه للبدع

كان معاوية كغيره من ولاة الأمر من قبله في عنايته بإنكار المنكر والحض على إزالته ، دخل - رضي الله عنه - المدينة في آخر حجة حجّها سنة إحدى وخمسين ، فأنكر على علمائهم

(١) يظهر أن المراد آخر حجة حجّها .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (١م/٢ج/٢٥٠ ص) كتاب الصّوم ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/٧ج/٨ ص) كتاب الصيام .

غفلتهم عن تحريم فعلِ الواصلةِ والمستوصلة ، ووقف على المنبر خطيباً وأخذ من غلام له كبةً من شعر ، وأعلمهم بأنه يحرم على نسائهم تقليد نساء اليهود في وصل الشعر :

أخرج الشيخان عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج ، وهو على المنبر ، وتناول قصة من شعر كانت بيد حرمي يقول : " يا أهل المدينة ، أين علماءكم سمعتُ رسول الله ينهى عن مثل هذه ، ويقول : إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذا نساؤهم " (١) .

وأخرج مسلم عن سعيد بن المسيب ، قال : " قَدِمَ معاوية المدينة فخطبنا وأخرج كبةً من شعر ، فقال : ما كنتُ أرى أن أحداً يفعله إلا اليهود ، إنَّ رسول الله ﷺ بلغه فسماه الزور " (٢) .

معاوية يُجرئ الناس على التواصي بالحق

كان معاوية - رضي الله عنه - يتمثل أخلاق الخلفاء الراشدين من قبله ، ومن ذلك تشجيعه الرعية على قول الحق وقبوله ، وتقويم الاعوجاج ، ولو كان في مواجهة الخليفة عينه ، فقد خطب معاوية يوم جمعة فتكلم بشيء مما ينكره الناس فردّ عليه أحدهم فسره ذلك ، ويشهد لذلك ما روي عن أبي قبيل ، عن معاوية بن أبي سفيان أنه صعد المنبر يوم القيامة ، فقال عند خطبته : " إنَّما المأل مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطينا ، ومن شئنا منعنا ! فلم يُجبه أحد ! فلما كان في الجمعة الثانية ، قال مثل ذلك فلم يُجبه أحد ! فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته ، فقام إليه رجلٌ ممن حَضَرَ المسجد ، فقال : كلاً ، إنَّما المأل مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا ! فنزل معاوية ، فأرسل إلى الرجل ، فأدخله ، فقال القوم : هلك الرجل ! ثم دخل الناس ، فوجدوا الرجل معه على السرير ! فقال معاوية

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٧م/ج١٤/ص١٠٨) كتاب اللباس . والبخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج٧/ص٦٢) كتاب اللباس .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٧م/ج١٤/ص١٠٩) كتاب اللباس والزينة .

للنَّاسِ : إِنَّ هَذَا أَحْيَانِي أَحْيَاهُ اللَّهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ ، يَقُولُونَ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ يَتَقَاهُونَ فِي النَّارِ . . . الحديث (١) .

وَإِنِّي تَكَلَّمْتُ أَوَّلَ جُمُعَةٍ ، فَلَمْ يُرَدِّ عَلَيَّ أَحَدٌ ، فَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ ، فَلَمْ يُرَدِّ عَلَيَّ أَحَدٌ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي إِنِّي مِنْ الْقَوْمِ ! ثُمَّ تَكَلَّمْتُ فِي الْجُمُعَةِ الثَّالِثَةِ ، فَقَامَ هَذَا الرَّجُلُ ، فَرَدَّدَ عَلَيَّ ، فَأَحْيَانِي ، أَحْيَاهُ اللَّهُ (٢) .

وهذا يذكّر بقول النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا جَاءَهُ رَجُلٌ يَتَقَضَاهُ فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " دَعُوهُ ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا " (٣) .

ويذكر بقول أبي بكر - رضي الله عنه - : " وَإِنْ زَعَمْتَ فَقَوِّمُونِي " ويذكر بقول عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - : " لَا خَيْرَ فِيكُمْ إِنْ لَمْ تَقُولُواهَا ، وَلَا خَيْرَ فِينَا إِنْ لَمْ نَسْمَعْهَا " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ أُمَّرَاءَ أَهْدَى إِلَيَّ عِيُوبِي " .

ماذا قال معاوية عند موته !؟

لَمَّا حَضَرَتْ مَعَاوِيَةَ الْوَفَاةَ سَنَةَ سِتِّينَ ، قَالَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : " لَيْتَنِي كُنْتُ رَجُلًا مِنْ

(١) الحديث رواه أبو يعلى بسند حسن بلفظ : " يكون بعدي أمراء فلا يُرَدُّ عليهم ، يتهافتون في النَّارِ ، يتبع بعضهم بعضاً " ، انظر " مسند أبي يعلى " (ج ١٣ / ص ٣٦٧ / رقم ٧٣٧٧) وأورده أبو يعلى مطولاً كما في " مجمع الزوائد " (ج ١٣ / ص ٣٧٣ / رقم ٧٣٨٢) وذكره الألباني في " سلسلة الأحاديث الصحيحة " (٤م / ص ٣٩٨ / رقم ١٧٩٠) المكتبة الإسلامية ، ط ٣ . وقال الألباني : ذكره أبو يعلى في مسنده من طريق هشام عن ابن عقبة ، عن معاوية ، وهذا إسناد حسن لولا أن ابن عقبة لم أعرفه ، لكنّه قد توبع . وذكر الحديث الحافظ ابن حجر في " المطالب العالية " (١٧م / ص ٥٨٤ / رقم ٤٣٤٨) وعزاه إلى أبي يعلى ، وأخرجه الطبراني في " المعجم الكبير " (ج ١٩ / ص ٣٤١ / رقم ٧٩٠) .

(٢) الهيثمي " مجمع الزوائد " (٥م / ص ٢٣٦) ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى ، ورجاله ثقات .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ج ٣ / ص ٦٢) كتاب الوكالة . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م / ج ١١ / ص ٣٨) كتاب المساقاة .

قريش بذى طوى^(١) ولم آل من هذا الأمر شيئاً ، وكان عنده قميص رسول الله ﷺ وإزاره ورداؤه ، وشيء من شعره ، فقال : كَفَّنُونِي فِي قَمِيصِهِ ، وَأَدْرَجُونِي فِي رِدَائِهِ ، وَأَزْرُونِي بِإِزَارِهِ ، وَاحْشُوا مَنْخَرِي وَشَدَّقِي بِشَعْرِهِ ، وَخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ"^(٢).

عذر أبي سفيان وزوجه هند - رضي الله عنهما -

وهناك من يتحامل على أبي سفيان - رضي الله عنه - ويغري العوام بلمزه كونه قاتل النَّبِيِّ ﷺ في بدر وأحد، فما انفك أقوام يقولون : رَأَسَ أَبُو سُفْيَانَ فِي قُرَيْشٍ بَعْدَ بَدْرٍ ، وَسَارَ بِهِمْ فِي أَحَدٍ ، فَأَلْحَقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مَا أَلْحَقَ مِنَ الْأَذَى مِنْ جَرَحِ وَجْهِهِ الشَّرِيفِ وَكَسْرِ رِبَاعِيَّتِهِ وَتَهْشِيمِ الْبَيْضَةِ عَلَى رَأْسِهِ ، ثُمَّ سَاقَ الْأَحْزَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ... وَقَدْ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا مَا حَاصِلُهُ : أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ ، وَإِسْلَامَهُ جَبَّ مَا قَبْلَهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَفَّرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ... ﴾ [الأنفال] فهذه الآية نزلت في أبي سفيان وأصحابه ، وهو فيمن أنزل الله فيه : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الممتحنة].

أما الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ في أحد فلم يتول ذلك أبو سفيان بنفسه ، ولم يقل أحد من الثقات أن أبا سفيان باشر ذلك ، وإنما قال ابن الجوزي : " وكان الذي تولى أذاه ﷺ عمرو بن قميئة ، وعتبة بن أبي وقاص ، وقيل : إن عبد الله بن شهاب الزهري ، عم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، هو الذي شجّه"^(٣).

وما أصابه ﷺ من الأذى لا يُعارض قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنْ النَّاسِ ... ﴾ [المائدة] إذ أن العصمة التي وُعدَ بها النبي ﷺ عصمة النفس من القتل لا

(١) ذو طوى : هو ما بين الثنية التي يهبط منها إلى مقبرة مكة المسماة بالمعلاة ، والثنية الأخرى التي إلى جهة الزاهر ، وتسمى عند أهل مكة بين الحجونين .

(٢) ابن الجوزي " تلقيح فهوم أهل الأثر " (ص ١١٢) .

(٣) ابن الجوزي " زاد المعاد " (ج ٣ / ص ١٧٦)

عصمته من الأذى بالكليّة ، فقد ثبت في الصّحّيحين أنّه ﷺ أُوذِيَ وأُصِيبَ بجراحاتٍ ليعظم له الأجر ، وليتأسّى به أتباعه في الصّبر على الأذى والشّدّة ، وكانت فاطمة - رضي الله عنها - يومها تغسل جرحه وعليّ - رضي الله عنه - يسكب الماء ، ثم أخذت فاطمة قطعة من حصير فأحرقته حتّى صار رماداً وكمدته به حتّى لصق بالجرح فاستمسك الدم ، فعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أنّه سُئِلَ عن جُرح النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ فقال :

" جُرح وجه النَّبِيِّ وكسرت رِباعِيتهُ وهشمت البيضة على رأسه فكانت فاطمة - عليها السّلام - تغسل الدّم وعليّ - رضي الله عنه - يُمسك ، فلما رأته أنّ الدّم لا يزيد إلاّ كثرة أخذت حصيراً فأحرقته حتّى صار رماداً ثمّ ألزقته فاستمسك الدّم " (١).

وقد شهد أبو سفيان (صخر بن حرب بن أمية) مع النَّبِيِّ ﷺ غزوة الطّائف ، ورُمي يومئذ وفُتئت عينه في سبيل الله تعالى بسهم ، وشهد يوم خيبر ، وشهد اليرموك فذهبت عينه الأخرى يومها في قتال الرُّوم (٢).

قال الشّاعر أحمد محرّم :

| | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| حملت أباسفيانَ عينكَ في يد | بها الخيرُ في كلِّ المواطنِ مقرونُ |
| وجئت رسولَ الله لا الوجهُ شاحبُ | ولا العطفُ مُزورٌ ولا القلبُ محزونُ |
| تقول له ... عيني التي أنت ناظرُ | مضت في سبيل الله والحافزُ الدينُ |
| فقال إذا أحببت فالردُّ مكنُ | بقُدرة ربِّ أمره الكافُ والنُّونُ |
| وإلا فأخري عنده إن لقيتهُ | وذلك وعدٌ عند ربِّك مضمونُ |

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج٣/ص٢٢٩) كتاب الجهاد والسير ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م/ج١٢/ص١٤٨) كتاب الجهاد والسير .

(٢) " نور اليقين " (ص١٦٤) و" الحجّة على تارك الحجّة " (ج٢/ص٥٧٠) و" الإصابة " (٢م/ج٣/ص٢٣٧/رقم٤٠٤١) و" تليقح فهوم الأثر " (ص١١١).

فَأَثَرَتْ هَذِي ثُمَّ أَلْقَيْتَ بَالْتِي
سَتَّبَعُهَا فِي وَقْعَةِ الرُّومِ أَحْتَهَا
فَخَيْرٌ عَلَى خَيْرٍ وَنُعْمَى تَزِيدَهَا
هَنِيئاً أَبَاسَفِيَانٍ لَا الرُّمَحُ آسَفُ
عَطَاؤُكَ فِي الْمُهْجَاءِ لَمْ يُعْطَ مِثْلَهُ
مَنْ النَّاسِ إِلَّا صَادِقُ الْبَاسِ مَأْمُونٌ^(١)
وَقَدْ رَوَى ابْنُ سَعْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ " كَحَدَّتِ
الْأَصْوَاتُ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ وَالْمُسْلِمُونَ يِقَاتِلُونَ الرُّومَ ، إِلَّا صَوْتُ رَجُلٍ يَقُولُ : يَا نَصَرَ اللَّهُ
اقْتَرَبَ ، يَا نَصَرَ اللَّهُ اقْتَرَبَ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي أَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ أَبُو سَفِيَانَ بْنِ حَرْبٍ تَحْتَ رَايَةِ ابْنِهِ
يَزِيدِ بْنِ أَبِي سَفِيَانَ"^(٢).

وَقَدْ عَاشَ أَبُو سَفِيَانَ بَعْدَ ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً بَعْدَ أَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِحَبِيبِيَّتِهِ ، قَالَ الْحَافِظُ :
" رَوَى الْبَغْوِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا سَفِيَانَ دَخَلَ عَلَى عَثْمَانَ بَعْدَ مَا عَمِيَ وَغَلَامَهُ
يَقُودُهُ"^(٣).

وَلَا يَخْفَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا ابْتَلَى عَبْدَهُ بِحَبِيبِيَّتِهِ فَصَبَرَ فَلَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ ، فَقَدْ قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبِيَّتِهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ الْجَنَّةَ ، يُرِيدُ
عَيْنِهِ"^(٤).

وَمَاتَ أَبُو سَفِيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي خِلَافَةِ عَثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَقِيلَ : مَاتَ فِي
أَوَاخِرِهَا ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .

وَأَمَّا زَوْجُهُ هِنْدٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَكَلَتْهُ الْأَكْبَادُ بِوَصْفِهِمْ ، فَمَا زَالَ أَقْوَامٌ يَثْلُبُونَهَا بِهَا كَانِ

(١) أحمد محرم " ديوان مجد الإسلام " (ص ٤٠٥)

(٢) ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج ٣/ص ٢٣٨/رقم ٤٠٤١) وقال الحافظ : إسناده صحيح .

(٣) ابن حجر " الإصابة " (٢م/ج ٣/ص ٢٣٨/رقم ٤٠٤١)

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج ٧/ص ٤) كتاب المرضى .

منها قبل إسلامها ، كونها شهدت أحداً وحرّضت على قتل حمزة عمّ النبي ﷺ بعد أن شقّ عليها قتل أخيها الوليد في وقعة بدر ، وبعد أن أفجعها حمزة - رضي الله عنه - بقتل عمّها شيبه ، فضلاً عن مشاركته في قتل أبيها عتبة .

فأما هند - رضي الله عنها - فأسلمت ليلة الفتح ، وبايعت النبي ﷺ واستغفر لها فلم يضرّها ما سلف ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْتَصِمْنَ فِي مَعْرُوفٍ فَأَبَايَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الممتحنة] فيوم الفتح بايعت هند النبي ﷺ على ما تقدّم في الآية الكريمة ، وهي القائلة للنبي ﷺ لما شرط على النساء المبايعه وقال : " ولا يسرقن ولا يزنين ، قالت هند : وهل تزني الحرّة ؟! " (١) .

وكانت هند - رضي الله عنها - من عقلاء النساء ، وحديثها مع النبي ﷺ يُفهم منه ذلك ، ومن مناقبها ما أخرجه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - ، قالت : " جاءت هند بنت عتبة ، قالت : يا رسول الله ، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلّوا من أهل خيائك ، ثمّ ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحبّ إليّ أن يعزّوا من أهل خيائك . قالت : وأيضاً والذي نفسي بيده قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجلٌ مسيئٌ (٢) ؛ فهل عليّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا ؟ قال : لا أراه إلاّ بالمعروف " (٣) .

قال ابن حجر : " وقد كانت هند في منزلة أمهات نساء النبي ﷺ لأنّ أمّ حبيبة إحدى زوجاته بنت زوجها أبي سفيان " (٤) .

(١) أخرجه ابن سعد بسند صحيح مرسل عن الشعبي وعن ميمون بن مهران : " الطبقات الكبرى لابن سعد " (٨م/٨ص ٩) .

(٢) مسيئٌ : شحيح .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٤ج / ص ٢٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٤) ابن حجر " فتح الباري " (٧ج/٧ص ١١٢) وماتت هند في خلافة عمر .

قلت : والذين ينالون من الصحابة ليسوا من ﴿ الْمُهَلِّجِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ﴿٨﴾ [الحشر] ولا من الذين ﴿ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ ﴿٩﴾ [الحشر] ولا من ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ... ﴾ ﴿٣٨﴾ [الكهف] ولا حتى من الذين ﴿ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ... ﴾ ﴿١٠﴾ [الحشر] ولا من الذين ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ... ﴾ ﴿١٠٢﴾ [التوبة] ، وإنما هم بين غلاة وقلاة في كل عصر ، وجدوا أنفسهم عاجزين عن إصلاح حاضرهم فضلاً عن مستقبلهم ، فلم يجدوا سبيلاً إلى تبرير قصورهم إلا ازدراء ماضيهم ، وتحمله تبعه تخلفهم عن مواكبة الأمم .

قال أحمد محرم في إسلام هند بنت عتبة زوج أبي سفيان :

| | |
|---|---------------------------------|
| يا هندُ حسبك مغنماً وكفاك | أن الذي يهدي النفوس هداك |
| أقبلت تُرخين القناعَ حَيِّيةً | تُخفينَ نفسك والنبيُّ يبراك |
| أولستِ هنداً؟ قلتِ في حجلٍ : بلى | لا تحجلي فالله قد عافاك |
| بايعتِ أهدي العالمين طريقةً | ورضيتِ منه مُهدباً يرضاك |
| مهما تَنَلُ المَحْفَظَاتُ مِنَ الأُلَى | جَهلوا فليس بعاتبٍ أو شاك |
| أعجبتِ إذ ذَكَرَ الفواحشَ هادياً | فَنَهَى اللواتي جِنَّتهُ ونَهاك |
| إن تَعَجَّبِي لِلعُرُضِ يُبَدِّلُ هَيِّنَاً | وهو الحياةُ بأسرها فكذلك |
| يا هندُ إنَّ اللهَ أمضى حُكْمَهُ | فكفأكِ سُوءَ عذابهِ ووَوقأكِ |

أُوتِيَتْ زَادَكَ مِنْ تُقَى وَهَدَايَةِ فَتَزَوَّدِي سُبْحَانَ مَنْ نَجَّاكَ^(١)

عمر وبن العاص - رضي الله عنه - نُتِفَ من مآثره و طرف من مناقبه

أَسْلَمَ - رضي الله عنه - قبل الفتح سنة ثمان ، روى عن رسول الله ﷺ ، فقال شرف الصُّحْبَةِ والرُّوَايَةِ ، ولآه رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل وأمدّه بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة - رضي الله عنهم - ، ثم استعمله على عمان فمات ﷺ وهو أميرها . وكان عمرو - رضي الله عنه - شديد الحياء من رسول الله ﷺ كما سيأتي بعد سطور ، فلم يكن يطيق أن يرفع طرفه إليه ﷺ حياءً منه .

وهو الذي قاتل المرتدين ، فقد وجَّهه أبو بكر - رضي الله عنه - إلى قبيلة قضاة فأخضعها ، وهو الذي افتتح قنسرين ، وافتتح مصر زمن الخليفة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وفتح بلبيس وحصن بابلين ، والإسكندرية سنة عشرين للهجرة ، وبنى مدينة الفسطاط وجعلها مركزاً لقواته .

وقد ولي إمرة مصر زمن عمر - رضي الله عنه - وصدرًا من خلافة عثمان - رضي الله عنه - ، ثم وليها زمنًا من جهة معاوية - رضي الله عنه - ، وشهد عمرو اليرموك مع خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ، وقاد معركة أجنادين المشهورة ، وافتتح طرابلس الغرب ...^(٢)

وهذا الذي يؤمّره رسول الله ﷺ ، ويستعمله الخلفاء ، ويفتح كل هذه البلاد ، لم يسلم من الذين لم يفتحوا إلا أفواههم بثلب الصحابة ، بعد أن نبذوا قول النبي ﷺ وراء ظهورهم ، فقد قال ﷺ : " لا تسبوا أصحابي ، لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه " ^(٣) .

(١) أحمد محرم " ديوان مجد الإسلام " (ص ٣٧٤) .

(٢) وانظر ترجمته في " الإصابة " (٣م/ج ٥/ص ٢/رقم ٥٨٧٧) و " سير أعلام النبلاء " (ج ٣/ص ٥٤) .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/ج ١٦/ص ٩٢) كتاب فضائل الصحابة ، والبخاري عن أبي سعيد الخدري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٤/ص ١٩٥) كتاب أحاديث الأنبياء .

ولكن أين يذهب هؤلاء من قول النَّبِيِّ ﷺ: " نَكِلْتَكَ أُمَّكَ ؛ وهل يَكُفُّ النَّاسَ على مناخرهم في جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم" (١).

ومن ذا الذي يستطيع أن يقدح في عمرو بن العاص بعد أن أثنى عليه رسول الله ﷺ ، فقال: " أسلم النَّاسُ وآمن عمرو بن العاص " (٢) وقال ﷺ: " نِعَمَ أهل البيت أبو عبد الله ، وأمَّ عبد الله ، وعبد الله " (٣).

وفي " المسند " عن عمرو بن العاص ، قال : كان فرغ بالمدينة ، فأثبَّت على سالم مولى أبي حذيفة وهو مُحْتَبٍ بحمائل سيفه ، فأخذت سيفاً فاحتبَّت بحمائله ، فقال رسول الله ﷺ: " يا أيها النَّاسُ ، ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله ، ثم قال : ألا فعلتُم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان " (٤) فعَبَّر النَّبِيُّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى عن رضاه على عمرو بن العاص ، وشهد له بالإيمان ! فكيف نطعن فيمن يثني عليه رسول الله ﷺ ويشهد له بالإيمان !؟

ولما حضرت عمرو بن العاص - رضي الله عنه - الوفاة دخل عليه ابنه عبد الله مع نفر من الصحابة وهو في النزاع الأخير ، فلما رأهم حوّل وجهه إلى الجدار وأخذ بالبكاء ، أخرج مسلم عن ابن شُبَّانَة المَهْرِيِّ ، قال :

-
- (١) أحمد بسند صحيح عن معاذ " المسند " (ج١٦/ص١٨٣/رقم٢١٩٦٢) وهو في " المسند " (ج١٦/ص١٦٧/رقم٢١٩١٥) فما وقع بين الصحابة - رضي الله عنهم - اللسان فيه أشد من السيف !
- (٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عقبه بن عامر " المسند " (ج١٣/ص٣٦٥/رقم١٧٣٤٤) وهو عند الترمذي في " الجامع الكبير " (٦م/ص١٥٨/رقم٣٨٤٤) وقال : ليس إسناده بالقوي . ولكن حسنه الألباني في " صحيح سنن الترمذي " (ج٣/ص٢٣٦/رقم٣٠٢٠) .
- (٣) أحمد بإسناد حسن عن عقبه بن عامر " المسند " (ج١٣/ص٣٥١/رقم١٧٢٩٣) .
- (٤) أحمد " المسند " (ج١٣/ص٥٠٦/رقم١٧٧٣٧) وهو في مجمع الزوائد " (ج٩/ص٣٠٠) وقال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

" حَضَرْنَا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَّاقَةِ الْمَوْتِ ، فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوْلَ وَجْهِهِ إِلَى الْجِدَارِ فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ : يَا أَبَتَاهُ ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا ، قَالَ : فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقِ ثَلَاثٍ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدُّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ مِنِّي وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمَكَنْتُ مِنْهُ فَفَقَتَلْتُهُ ، فَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي آتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأَبَايِعَكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ ، قَالَ : فَكَبَضْتُ يَدِي ، قَالَ : مَالِكَ يَا عَمْرُو ؟ قَالَ : قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أُشْتَرِطَ ، قَالَ : تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟ قُلْتُ : أَنْ يُغْفَرَ لِي ، قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ، وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ . وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ ، وَمَا كُنْتُ أَطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ ، وَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أُدْرِي مَا حَالِي فِيهَا ، فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَلَا تَصْحَبَنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي ، فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًا ، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جُرُورٌ وَيُقَسَّمُ لَحْمُهَا ؛ حَتَّى اسْتَأْنَسَ بِكُمْ ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أَرَا جِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي " (١).

ما جرى بين الصحابة لا يؤثر في عدالتهم

ورغم ما جرى بين الصحابة ، فإن ذلك لا يؤثر في عدالتهم ، ولا يحتاج أحدهم بعد تعديل الله ورسوله لهم إلى تعديل أحد من الخلق ، فقد نصَّ النبي ﷺ على عدالتهم ، فقال : " خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م/٢ج/١٣٨) كتاب الإيمان ، وذكر نحوه الذهبي وفي آخره أنه قال : " ... ولكن لا إله إلا أنت ، وما زال يقولها حتى مات " الذهبي " سير أعلام النبلاء " (ج٣/ص ٧٧) وقال المحقق : إسناده قوي .

يُسْتَشْهِدُونَ ، وَيُحْتَوُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيُنذَرُونَ وَلَا يُفُونَ ، وَيُظَهَّرُ فِيهِمُ السَّمَنُ^(١)"(٣)

فشهد النبي ﷺ بالخيرية لأصحابه ، ثم للتابعين لهم ، ثم لتابعيهم ، ولذلك فالطبقة الأولى المشهود لها بالخيرية هي الصحابة .

قلت : فانظر إلى من يطعن في الصحابة من أي الطبقات هو ؟! لا هو من الصحابة ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من تابعيهم .

فإن قال قائل : بل هو من التابعين ، فالطعنُ بدأ من عهدهم . قلنا : بل هو خلف سوء ، وليس من التابعين لهم بإحسان ، لأنَّ التابعين بإحسان شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية كما تقدّم ، فهم في الطبقة الثانية ، وقد نطق القرآن بفضلهم وقرنه بفضل الصحابة ، قال تعالى : ﴿ وَالسَّيْقُوتِ الْأُولَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة] .

وانظر كيف اشترط الله تعالى على التابعين ليرضى عنهم ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ ... [التوبة] فأخرج بذلك من لم يتبعهم بإحسان ، وانظر إلى إعجاز القرآن الكريم ، فلم يشترط الله تعالى على الصحابة ما اشترطه على التابعين ، فلم يستثن من الصحابة أحداً ؛ لأنَّ الصحابة كلهم أجمعين عدول دون استثناء ، فتدبر !

وقد أكد النبي ﷺ في غير حديث على فضل الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، فقال ﷺ : " يأتي على الناس زمانٌ فيَغزُو فُتَامٌ من النَّاسِ ، فيقولون : فيكُم من صاحب رسول الله

(١) كثرة اللحم ، ووجه كونه مذموماً أنه ليس خِلقَةً ، وإنما يحصل عن التوسع والإسراف في المأكَل والمشرب فذلك مدعاة السَّمَن ، والمراد جمعهم الأموال ، وأدعاء ما ليس عندهم من الشرف ، وقيل غير ذلك .

(٢) " البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٤ج/ص ١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٨م/١٦ج/ص ٨٧) كتاب فضائل الصحابة .

ﷺ؟ فيقولون لهم: نَعَمْ؛ فَيَفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَعْزُوا فِتْنًا مِّنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هل فِيكُمْ مَنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيَفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ فَيَعْزُوا فِتْنًا مِّنَ النَّاسِ فَيُقَالُ: هل فِيكُمْ مَنْ صَاحِبٍ مِّنْ صَاحِبِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيقولون: نَعَمْ؛ فَيَفْتَحُ لَهُمْ^(١).

والحديث فيه معجزة للنبي ﷺ، فقد فُتِحَ لِلصَّحَابَةِ، ثُمَّ لِلتَّابِعِينَ، ثُمَّ لِتَابِعِيهِمْ؛ لِفَضْلِهِمْ. ولذلك فإتينا لا نقبل أن يُشَكَّكَ فِي عَدَالَةِ الصَّحَابَةِ وَفَضْلِهِمْ، وَفَضْلِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَتَابِعِيهِمْ، وَكُلٌّ مِّنْ يَحَاوِلُ أَنْ يِنَالَ مِنْهُمْ، فَهُوَ مَفْضُولٌ يَتَطَاوَلُ عَلَى فَاضِلٍ، أَوْ مَجْرُوحٌ يَتَطَاوَلُ عَلَى عَدْلٍ، أَوْ شَقِيٌّ يَتَطَاوَلُ عَلَى مَنْ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [التَّوْبَةِ].

ويؤيد الحديث المتقدم قوله ﷺ: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"^(٢).

فلا يتقدم أحدٌ أيًّا كان على أصحاب رسول الله ﷺ ولو بلغ من الفضل الغاية؛ ذلك أن شرف الصحبة لا يعدله شرف آخر، وقد سُئِلَ المعافي بن عمران: "أيُّهما أفضل، معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أجمعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؟! معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله"^(٣).

وقال عبد الله بن المبارك: "تراب في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز"^(٤).

ذلك أن معاوية جمع بين شرف الصحبة، وشرف النسب، وشرف مصاهرته للنبي

(١) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج٤/ص١٨٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم "صحيح مسلم بشرح النووي" (٨م/ج١٦/ص٨٣) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) البخاري "صحيح البخاري" (٢م/ج٤/ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٣) ابن كثير "البداية والنهاية" (٨ج/ص١٣٩).

(٤) المرجع السابق.

ﷺ ، وشرف كتابة الوحي ، وشرف الفقه بشهادة الصحابة ، وواحدة من هذه تجعله مفضلاً على عمر بن عبد العزيز ، فكيف إذا اجتمعت كلها؟!

وقيل لأبي عبد الله : " هل يُقاسُ بأصحاب رسول الله أحد ؟ قال : معاذ الله ! قيل : فمعاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز ؟ قال : أي لعمرى ؛ قال النبي ﷺ : خير الناس قرني"^(١).

كما نصّ القرآن الكريم على عدالة الصحابة وطهارتهم واختيار الله لهم ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ (١١٠) [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (١٠٩) لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... ﴾ (١٨) [الفتح] ، وقوله تعالى ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... ﴾ (١٠٠) [التوبة] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١١) فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (١٢) [الواقعة] ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٤) [الأنفال] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ... ﴾ (٥١) [النمل] ، وقوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ... ﴾ (٥٤) [المائدة] ، وقوله تعالى : ﴿ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤) [الأنفال] ، وقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ (٨)

(١) أبو بكر الخلال " السنة " (٢م / ص ٤٣٥ / رقم ٦٢٢) وقال المحقق : إسناده صحيح .

(٢) ﴿ وَسَطًا ﴾ خياراً عدولاً . ووسط كل شيء خياره ، ووسط العقد : أنفسه ، والوسط : العدل والخيار ، ومنه

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ... ﴾ (١٨) [القلم] أي أعددهم وخيرهم . وقيل في صفة النبي ﷺ : إِنَّهُ كَانَ مِنْ أَوْسَطِ قَوْمِهِ : أي خيارهم .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ [الحشر].

الدليل على أن الفئة الباغية لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام

فإن اعتلَّ أحدهم بما جرى بصقّين ، وقال : إن معاوية بَغَى على عليّ ، بدليل قول النَّبِيِّ ﷺ لعمار : " وَيَحْ عَمَّارُ تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ، عَمَّارُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَيَدْعُوهُ إِلَى النَّارِ " (١) وَقَاتِلْ عَمَّارَ مِنْ فِتْنَةٍ مَعَاوِيَةٌ فَلَزِمَ أَنَّهُمْ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ، كَمَا لَزِمَ خُرُوجُهُمْ عَنِ الْعَدَالَةِ .

قلنا : فإنَّ هذا أقلُّ من أن نردَّ عليه ؛ ذلك أنَّ الله تعالى ، قال ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا... ﴾ (١) [الحجرات] فسأهم مؤمنين مع الاقتتال ، وهذا صريح على بقائهم أجمعين على الإيـان .

وقال النَّبِيُّ ﷺ : " إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (٢) فَسَمَّى ﷺ الْجَمِيعَ مُسْلِمِينَ مَعَ الْاِخْتِلَافِ ، وَهَذَا صَرِيحٌ عَلَى بَقَائِهِمْ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ عَلَى كِمَالِ الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّهُمْ مَجْتَهِدُونَ مُتَأَوِّلُونَ ، فَهَمُ مَعْدُورُونَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .

وقال ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ فِتْنَتَانِ دَعَاوَهُمَا وَاحِدَةٌ " (٣) وَالفِتْنَتَانِ هُمَا جَمَاعَةٌ عَلَيٌّ وَجَمَاعَةٌ مَعَاوِيَةٌ ، وَالْمَرَادُ بِالذَّعْوَةِ كَمَا قَالَ ابْنُ حَجْرٍ : " الْإِسْلَامُ عَلَى الرَّاجِحِ ، وَقِيلَ الْمَرَادُ اعْتِقَادُ كُلِّ مِنْهُمَا أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ " (٤) .

قلنا : فإنَّ كان المراد الإسلام فقد أثبت ﷺ الإسلام لهما مع الاقتتال ، وإن كان المراد

-
- (١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٣/ ص ٢٠٧) كتاب السير .
 (٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٣/ ص ١٦٩) كتاب الصلح .
 (٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/ج ٨/ ص ٥٣) كتاب استنابة المرتدين .
 (٤) ابن حجر " فتح الباري " (ج ١٣/ ص ٢٥٥) .

اعتقاد كل منهما أنه على الحق ، فإن هذا ينشأ عنه عذرهما ، فكل منهما معذور بتأويله لأنه متأول تأويلاً سائغاً عن وجه في العلم معتقداً أنه على الحق ، فلا أحد منهما آثم ، بل كلاهما مأجور ؛ فلم يقع بينهما ما وقع إلا عن اجتهاد ، ولذلك أخبر ﷺ أن دعواتهما واحدة ليظهر عذرهما ، فلم يكن أحدهما يقاتل الآخر وهو يظن أن الحق ليس بيده ، ولو كان ذلك كذلك ما شهد لهما ﷺ أن دعواتهما واحدة ، وهذا يتتبع عنه عذرهما ووجوب حسن الظن بهما .

ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ " في حديث ذكر فيه قوما يخرجون على فرقة مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق " (١).

قلتُ : وانظر إلى اسم التفضيل " أقرب " وما يوحى إليه هذا اللفظ ، فاسم التفضيل يدلُّك على أن المفضَّل والمفضَّل عليه اشتركا في صفة واحدة ، وهي القرب من الحق ، ولكن أحدهما زاد فيها على الآخر فكان الأقرب إليه ، وهو علي وأصحابه لأنهم قاتلوهم وأمكثهم الله منهم ، فالحديث فيه تصريح بأن الطائفتين تشتركان في صفة الحق وأن الطائفتين مؤمنون لا يخرجون بها جرى بينهم عن الإيذان ، بل يقولون على كمال إيمانهم وعدالتهم .

فإن قال قائل : فقد حكَم عليهم النبي ﷺ بالبغي ، وأخبر أن عمارة يدعوهم إلى الله ويدعوونه إلى النار !؟

فالجواب أن البغي ليس اسم ذمٍّ وقدح وتنقيص لهم ؛ لأن الباغي المجتهد المتأول تأويلاً سائغاً غير قطعي البطلان معذور في اجتهاده ومأجور . ولا ريب في أن الحديث حجة جازمة في أن علياً - رضي الله عنه - كان مصيباً ، لكن الفئة الأخرى مجتهدة فلا إثم عليها ، والحديث فيه معجزة للنبي ﷺ لوقوع ما أخبر به ﷺ .

وقول النبي ﷺ لعمار بن ياسر - رضي الله عنه - " تقتلك فئة باغية " (٢) لا يفهم منه أن فئة معاوية تتحمَّل دمه ؛ فما جاء مطلقاً في هذا الحديث الشريف ، جاء مقيداً في حديث آخر -

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م/٤ج/٧ص/١٦٨) كتاب الزكاة .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٩م/٩ج/١٨ص/٤٠) كتاب الفتن .

كما تقدّم - ، فقد أخرج أحمد بإسناد حسن عن أبي غادية ، قال : " قُتِلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، فَأُخْبِرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِنَّ قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ فِي النَّارِ . فَقِيلَ لِعَمْرُو : فَإِنَّكَ تَقَاتِلُهُ ؟ قَالَ : إِنَّمَا قَالَ : قَاتِلَهُ وَسَالِبَهُ"^(١) فَالَّذِي يَتَحَمَّلُ إِثْمَهُ وَوَزْرَهُ قَاتِلُهُ وَسَالِبُهُ ، وَلَيْسَ مِنْ يُقَاتِلُهُ .

والفئة التي باشرت قتله وكانت وراء قتله هي الفئة الباغية ، وهي الفئة نفسها التي كانت وراء إثارة الفتنة في الجمل وصفين ، ووراء كلِّ شرٍّ وبلاء . أمّا قوله ﷺ : " ويدعونه إلى النار " فإنَّ الضمير لم يُسمَّ فاعله ، والمراد قتلته .

العفو عمّن قاتل من الصّحابة في الجمل وصفين

تمّ لا ريب فيه أنّ للصّحابة - رضي الله عنهم - فيما جرى بينهم عذر يخفى علينا ، فإنّ غمّ علينا معرفته فإنّه يسعنا قول أبي هريرة - رضي الله عنه - : " إنّ هذه الأمة أمة مرحومة ، لا عذاب عليها إلّا ما عدّبت هي أنفسها ، قال : قلت : وكيف تعدّبت نفسها ؟ قال : أمّا كان يوم الجمل عذاب ؟ أمّا كان يوم صفين عذاب ؟ أمّا كان يوم النهروان عذاب ؟ "^(٢)

وقول أبي هريرة - رضي الله عنه - مأخوذ من حديث النّبِيِّ ﷺ الذي أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ : " إنّ أمتي أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب إنّما عذابها في الدنيا : القتل والبلابل والزلازل "^(٣)

وعن أمّ حبيبة أنّ النّبِيَّ ﷺ قال : " أريت ما يلقي أمتي بعدي ، وسفك بعضهم دماء

(١) أحمد " المسند " (ج١٣/ص٤٩١/رقم١٧٧٠٤) .

(٢) ابن حجر " المطالب العالية " (١٨م/ص١٩٥/رقم٤٤٣٠) وهو في باب الإشارة إلى العفو عمّن قاتل من الصّحابة في هذه المواطن ، وقال المحقّق : صحيح بهذا الإسناد لأنّ جميع رواته ثقات .

(٣) أحمد " المسند " (ج١٤/ص٥٤٦/رقم١٩٥٦٦) وأخرج نحوه في " المسند " (ج١٥/ص٢٥/رقم١٩٦٤٠) وأخرجه الحاكم في " المستدرک " (ج٤/ص٢٥٤) وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه . ووافقه الذهبي .

بعض ، وسبق ذلك من الله كما سبق في الأمم قبلهم ، فسألته أن يوليني يوم القيامة شفاعة فيهم ، ففعل" (١).

والمعنى أن الله تعالى أطلع نبيه ﷺ على ما ينوبُ أمته بعده من نوائب وفتن ونواكب ، وآته مع كل ذلك شافعٌ مشفعٌ فيهم . فإذا كان الله سيوليه شفاعة في أمته ، فما ظنك بخير هذه الأمة أصحابه - رضي الله عنهم - !

أقوال بعض التابعين فيما شَجَرَ بين الصحابة

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة] من هداية الآية الكريمة أن الأمم السابقة التي مضت إلى الدار الآخرة لها أعمالها ولنا أعمالنا ، وسنة الله أن يُسأل كلُّ عن عمله لا عن عمل غيره ، ولذلك لا ينبغي لأحد من التابعين إذا سُئل عن أصحاب رسول الله ﷺ المشهود لهم بالخيرية في القرآن والسنة أن يقول فيهم إلا خيراً .

قال يزيد بن بشر : " سُئل عمر بن عبد العزيز عن عليّ وعثمان والجمل وصفين وما كان بينهم ؟ فقال : تلك دماء كفَّ الله يدي عنها ، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها " (٢) .
وسُئل ابن المبارك عن معاوية ، فقال : " ما أقول في رجل قال رسول الله ﷺ : سمع الله لمن حمده ، فقال خَلْفَهُ رَبَّنَا ولك الحمد " (٣) .

وقيل لأحمد بن حنبل ما تقول فيما كان بين عليّ ومعاوية ؟ فقال أبو عبد الله : " ما أقول فيهم إلا الحسنى " (٤) .

(١) الحاكم "المستدرک" (ج ١/ ص ٦٨) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٢) ابن سعد "الطبقات الكبرى" (٥م/ ص ٣٩٤) و "الحجة" (ج ٢/ ص ٥٦٣) .

(٣) ابن كثير "البداية والنهاية" (ج ٨/ ص ١٣٩) .

(٤) ابن الجوزي "مناقب الإمام أحمد" (ص ١٦٤) وأبو بكر الخلال "السنة" (ج ٢/ ص ٤٦٠/ رقم ٧١٣) . وقال المحقق : إسناده صحيح .

وذكر لأحمد بن حنبل أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : " رحمهم الله أجمعين !
ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والمغيرة كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه ،
فقال : ﴿ سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ... ﴾ (١٩) ﴿ [الفتح] " (١) .

وقال ابن كثير : " وأما ما شجر بينهم بعده - عليه الصلاة والسلام - ، فمنه ما وقع عن
غير قصد ، كيوم الجمل ، ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين . والاجتهاد يخطئ ويصيب ،
ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ، ومأجور أيضاً ، وأما المصيب فله أجران اثنان ، وكان عليّ
وأصحابه أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه - رضي الله عنهم أجمعين - " (٢) .

وقال ابن حجر : " واتَّفَقَ أهلُ السُّنَّةِ على وجوب منع الطَّعن على أحد من الصَّحابة
بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عُرِفَ المحقُّ منهم ؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن
اجتهاد ، وقد عفا الله عن المخطئ في الاجتهاد ، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً ، وأن المصيب
يؤجر أجرين " (٣) .

وقال أبو زرعة : " إذا رأيتَ الرَّجلَ يَنْتَقِضُ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ،
فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق ، والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا
القرآن والسَّنة أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ؛ ليبتلوا الكتاب
والسُّنة ، والجرحُ بهم أولى ، وهم زنادقة " (٤) .

وقال رجل لأبي زرعة : " يا أبا زُرعة ، أنا أبغضُ مُعاوية ، قال : لم ؟ قال : لأنه قاتل
عليّ بن أبي طالب ، قال : فقال له : إن ربَّ معاوية ربُّ رحيم ، وخصم معاوية خصم كريم ،

(١) ابن الجوزي " مناقب الإمام أحمد " (ص ١٦٤) .

(٢) ابن كثير " الباعث الحثيث " (ص ١٦٧) .

(٣) ابن حجر " فتح الباري " (ج ١٣ / ص ٢٨) .

(٤) الخطيب البغدادي " كتاب الكفاية " (ص ٤٩) .

فأيش^(١) دخولك أنت بينهما - رضي الله عنهم أجمعين -^(٢).

ويُذَكَّرُ عن مالك بن أنس أنه قال : " من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله

ﷺ فقد أصابته هذه الآية ﴿يُعْجِبُ الزُّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ...﴾ ﴿٢٩﴾ [الفتح] ^(٣).

حكم البغاة من هذه الأمة

عَرَفَ الفقهاء أحكام البغاة من هذه الأمة ممَّا شجر بين المسلمين ، كما عرفوا

أحكام الخوارج والمحاربين ، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - ، قال : " شهدتُ صفين فكانوا لا

يجهزون على جريح ولا يقتلون مولياً ولا يسلبون قتيلاً"^(٤).

(١) أيش : أي شيء .

(٢) ابن عساكر " تاريخ مدينة دمشق " (ج ٥٩ / ص ١٤١) .

(٣) ابن الجوزي " زاد المسير " (م ٧ / ص ١٧٥) .

(٤) الحاكم " المستدرک " (ج ٢ / ص ١٥٥) كتاب قتال أهل البغي ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح

الإسناد في هذا الباب ، ووافقه الذهبي ، وقال الألباني : وهو كما قال " إرواء الغليل "

(ج ٨ / ص ١١٤) .

القسم الخامس المبحث الأول

دفع بعض الشبهات والطعون عن معاوية ويزيد

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة]

دعوى أن معاوية نازع الحسن الخلافة

معاوية - رضي الله عنه - بحرّ عذب الفُراتِ لا تكذُّره الدلاء ، واتهامه - رضي الله عنه - بأنّه نازع الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - الخلافة إن هي إلاّ دعوى ، وما أكثر الدعاوى التي ظاهرها الرّحمة وباطنها العذاب !

وأظهر ما يردُّ هذه الدّعوى أنّ معاوية - رضي الله عنه - لما قُتل عليّ - رضي الله عنه - واستُخِلَفَ الحسنُ بن عليّ - رضي الله عنهما - سار إليه الحسنُ بكتائب لا يرى لها طرف لعظمتها وكثرتها ، فأرسل له معاوية - رضي الله عنه - رجلين من قُريش يطلبُ منه الصّلاح وحقن دماء المسلمين ، وهذا يؤكد نزعة الخير في نفس معاوية وشفقته على المسلمين ، وهذان الرّجلان هما : عبد الله بن عامر ، وعبد الرّحمن بن سمرة . وطلب منهما أن يموّضا الأمر إلى الحسن ، وأن يبذلا له النّصح ، وما شاء من مال وغيره ، ويرغبانه بما يريد لرفع السّيف ، ويذكّرانه بوصيّة جدّه النّبويّ ﷺ ، فقد قال ﷺ : " إنّ ابني هذا سيّد ، ولعلّ الله أن يُصلّح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " (١).

وطلب معاوية - رضي الله عنه - الصّلاح يدلّ على قوة نظره في تدبير أمور المسلمين ، فهو يعلم عواقب الأمور ، ويعلم خطر هذا المسير ، فقد كان أهل الشّام يريدون أن يسودّهم معاوية - رضي الله عنه - ، وأهل العراق يريدون الحسن بن عليّ - رضي الله عنهما - .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م / ٣ / ص ١٦٩) كتاب الصّلاح .

وقد تحقّق ما رجاه معاوية من مراسلته الحسن من وأد الفتنة ، فقد ترك الحسنُ حقّه في الخلافة تحقيقاً لقول النبي ﷺ : " ابني هذا سيّد ... " ولما لفضيلة الإصلاح وحقن الدماء وتسكين الفتنة من الأجر والثوبة عند الله تعالى . ولو كان معاوية كما يتقول عليه المتقولون ما تنازل له عن الخلافة رجُلٌ مثل الحسن ، رجُلٌ يحمل بين جنبيه نفساً كريمة ، رجلٌ وصفه رسول الله ﷺ بأنّه سيّد لأنّ الصّالح سيقع على يديه .

ولذلك صالح الحسنُ معاوية على ما صالح عليه ، واشترط على معاوية ما اشترط عليه ، فوافقاه على ما شرط ، وضمننا له الوفاء من معاوية ، فاجتمع النَّاسُ على معاوية وسمّوا ذلك العام عام الجماعة .

فقد أخرج البخاري عن أبي موسى قال : سمعتُ الحسنَ يقول : " استقبل والله الحسنُ ابنُ عليّ معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاصي : إنّي لأرى كتائب لا تويّ حتى تقتل أقرانها ! فقال له معاوية ، وكان والله خيرَ الرّجلين : أي عمرو ، إن قتل هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء ، مَنْ لي بأمر النَّاسِ ؟ مَنْ لي بنسائهم ؟ مَنْ لي بضيعتهم ؟ فبعثَ إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس : عبد الرحمن بن سمرّة ، وعبد الله بن عامر بن كرز ، فقال : اذهبا إلى هذا الرّجل ، فاعرضا عليه ، وقولا له ، واطلبا إليه ، فأتياه ، فدخلا عليه ، فتكلّما ، وقالا له ، وطلبنا إليه ، فقال لهما الحسنُ بنُ عليّ : إنّنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإنّ هذه الأمة قد عاثت في دمائها .

قالا : فإنّه يعرضُ عليك كذا وكذا ، ويطلبُ إليك ويسألك ، قال : فمَنْ لي بهذا ؟ قالوا : نحنُ لك به . فما سألهما شيئاً إلّا قالوا : نحنُ لك به ، فصالحه .

فقال الحسنُ : ولقد سمعتُ أبا بكره يقول : رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر والحسنُ بنُ عليّ إلى جنبه ، وهو يُقبلُ على النَّاسِ مرّةً وعليه أخرى ، ويقولُ : إنّ ابني هذا سيّدٌ ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بين فتنتين عظيمتين من المسلمين"^(١).

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج ٣/ص ١٦٩) كتاب الصّالح .

وهذا الخبر فيه أنّ الحسن كان معه من العدة والعدد ما يحقق له العَلْبَة ، وبذلك يعرف فساد دعوى من زعم أنّ الحسن تنازل عن الخلافة عن صَعْف وقهر، ولم يتنازل عنها اختياراً؛ لعلمه - بزعمهم - أنّ معاوية سيقاتله على الخلافة كما قاتل أباه .

كما أنّ هذه القصة عَلِمَ من أعلام النبوة لإخبار الصادق الأمين ﷺ عنها قبل وقوعها، وتحقق ما أخبر به ، وفيها منقبة للحسن - رضي الله عنه - فقد ترك الخلافة لا عن عجز ولا عن قِلَّة ، وإنّما تركها لمن هو أَسْوَدُ منه رغبةً فيما عند الله تعالى ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص] أخرج أبو بكر الخلال بسند صحيح عن جبلة بن سحيم، قال : سمعتُ ابن عمر يقول : " ما رأيتُ بعد رسول الله ﷺ أَسْوَدَ (من السيادة) من معاوية ، فقيل : ولا أبوك ؟ قال : أبي عمر - رحمه الله - خير من معاوية ، وكان معاوية أَسْوَدَ منه " (١) .

كذلك ترجي النبي ﷺ للإصلاح من الحسن فيه دلالة على صحّة نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، فما نَزَلَ عنها الحسن - رضي الله عنه - إلّا ببرهان ، وما فعل إلّا ما أحبه الله ورسوله . وهذا فيه دلالة واضحة على صحّة خلافة معاوية إذ تنازل عنها الحسن تحقيقاً لرجاء النبي ﷺ .

والرغبة في الصلح لم تكن عند معاوية وحده ، فقد مهّد الحسن بن عليّ للصلح منذ أن بويع بالخلافة ، فقد اشترط عليهم قبل أن يبايعوه أن يسلموا من يُسلم ، أخرج الحاكم عن حارثة بن مضرب ، قال : سمعتُ الحسن بن عليّ يقول : " والله لا أبايعكم إلّا على ما أقول لكم . قالوا : ما هي ؟ قال : تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت " (٢) .

وبعد أن صالح الحسن معاوية خطبهم ، فقال : " ... وإنّ هذا الأمر الذي اختلفتُ فيه

(١) أبو بكر الخلال " السنّة " (ج ٢/ص ٤٤٣/رقم ٦٨٠) وذكره الذهبي في " سير أعلام النبلاء " (ج ٣/ص ١٥) .

(٢) الحاكم " المستدرک " (ج ٣/ص ١٧٣) كتاب معرفة الصحابة .

أنا ومعاوية حقٌّ لامرئٍ وكان أحقَّ بحقه منِّي ، أو حقٌّ لي فتركته لمعاوية إرادة استضلاع المسلمين وحقن دماهم ، ﴿وَلَنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمُنْعٌ لِي حِينَ ۞﴾ [الأنبياء] (١) .

حتى قيس بن سعد ، وهو أحد قادة كتائب الحسن لما تناهى إلى سمعه خبر الصلح وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية سرّه ذلك ، وخطب في أصحابه ، ورجعوا بعد ذلك فبايعوا معاوية جميعاً ، ففي " المطالب العالية " بإسناد صحيح عن حبيب بن أبي ثابت قال :

" ... واستخلف النَّاسُ الحسن بن عليّ - رضي الله عنه - فبعث الحسن بالبيعة إلى معاوية - رضي الله عنه - وكتب بذلك الحسن إلى قيس بن سعد - رضي الله عنهما - فقام قيس ابن سعد في أصحابه ، فقال : يا أيُّها النَّاسُ ، أتاكم أمران ، لا بُدَّ لكم من أحدهما دخول في الفتنة ، أو قتلٌ مع غير إمام ، فقال النَّاسُ : ما هذا ؟ فقال : الحسن بن عليّ قد أعطى البيعة معاوية ، فرجع النَّاسُ ، فبايعوا معاوية " (٢) .

والحسن - رضي الله عنه - لم يكن يرغب في الخلافة أصلاً ، فقد أخرج أحمد بسند صحيح عن صدقة بن المثني ، قال حدّثني جدّي أنّ النَّاسَ اجتمعوا إلى الحسن بن عليّ في المدائن ، فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " ... وإني والله ما أحببت أن ألي من أمر أمة محمد بما يزن مثقال حبة خردل يُهراق فيها محجّمة من دم " (٣) .

أمّا من قال : إنّ عهد الخلافة الرّاشدة انتهى بتنازل الحسن عن الخلافة إلى معاوية - رضي الله عنه - من أهل الحلّ والعقد ، إلى عهد الملك العاصّ بدليل ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن النّعمان بن بشير ، قال : ... فقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ : " تكونُ النّبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثمّ تكون خلافة على منهاج النّبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثمّ تكون ملكاً عاصّاً فيكون ما شاء

(١) أخرجه الحاكم عن الشّعبية في " المستدرک " (ج ٣ / ص ١٧٥) كتاب معرفة الصّحابة .

(٢) ابن حجر " المطالب العالية " (١٨م / ص ٢١٦ / رقم ٤٤٣٩) وقال المحقّق : هذا الإسناد صحيح .

(٣) أحمد " فضائل الصّحابة " (ج ٢ / ص ٧٧٣ / رقم ١٣٦٤) وقال المحقّق : إسناده صحيح .

الله أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة^(١).

فالجواب : أن الملك العاص ليس المراد به الملك العاص على الإمارة والحرص عليها كما فهم البعض ، وإنما هو الملك العاص على الكتاب والسنة المتمسك بهما ، فهو وصف مدح لا وصف ذم وقدح .

دعوى أن معاوية كان من المسرفين

كل ما يتعلّق به على معاوية لا يصحّ ، ومن ذلك قولهم السّقيم ورأيهم غير المستقيم بأنّ معاوية كان من المبذرين المسرفين... وهذه الدعوى يردّها ما أخرجه أحمد في " كتاب الزهد " عن عليّ بن أبي حملة ، عن أبيه ، قال : " رأيت معاوية على المنبر بدمشق يخطب النّاس وعليه قميص مرقوع "^(٢) ولولا أنّه - رضي الله عنه - كان رأساً في الزهد ما ذكره أحمد في كتاب الزهد ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [٧٨] [النساء].

وعليّ - رضي الله عنه - كان زاهداً أيضاً ، أخرج أحمد بسند صحيح عن عمرو بن قيس ، قال : " رأيت عليّ بن ثوب مرقوع ، فعوتب في لباسه ، فقال : يقتدي المؤمن ويخشع القلب "^(٣).

فمعاوية أو عليّ - رضي الله عنهما - كانا طالبي دين لا دنيا فانية ، وإذا كانت لمعاوية هفوات ، فنحن لا نعتقد العصمة لأحد بعد النبي ﷺ ، وهفواته إن وجدت فهي مغمورة في بحر فضائله ومحيط مناقبه .

(١) أحمد " المسند " (ج ١٤ / ص ١٦٣ / رقم ١٨٣١٩) وهو في " مجمع الزوائد " (ج ٥ / ص ١٨٨) وقال الهيثمي: رواه أحمد والبيزار والطبراني ، ورجاله ثقات .

(٢) أحمد " كتاب الزهد " (ص ١٧٢) وأبو بكر الخلال " السنة " (ج ٢ / ص ٤٣٩ / ص ٦٧٣).

(٣) أحمد " كتاب الفضائل " (م ١ / ص ٥٤٩ / رقم ٩٢٣).

دعوى أن معاوية همّ بنقل منبر الرسول ﷺ من المدينة إلى الشام

أخرج الطّبري عن محمد بن عمر ، عن يحيى بن سعيد بن دينار ، عن أبيه ، قال :
"قال معاوية : إني رأيتُ أن منبر رسول الله وعصاه لا يتركان بالمدينة وهم قتلَةُ أمير المؤمنين
عثمان وأعداؤه ..."^(١)

وهذه الرواية باطلة سنداً ، لأنَّ محمد بن عمر ، الواقدي يضع الحديث وهو متروك ، أمّا
متنها فمُنكر ، ففيه اتّهام لأهل المدينة بأنهم قتلوا عثمان وأعداؤه ، وفيه اتّهام لمعاوية أنّه يُغضّ
الأنصار .

ومعاوية لو كان ييغض الأنصار ما ولى أحداً منهم ، فقد ولى معاوية فضالة بن عبيد
الأنصاري القضاء والبحر بمصر^(٢) ، وأقر رويغ بن ثابت بن سكن الأنصاري على
طرابلس^(٣) ، وعين النعمان بن بشير الأنصاري على الكوفة^(٤) .

ومعاوية لا يُصدّق أنّه يفكّر في نقل منبر رسول الله ﷺ وهو يعلم فضل ما بين بيته
ومنبره ﷺ ، فقد ثبت في الصحيحين قوله ﷺ : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض
الجنة ، ومنبري على حوضي "^(٥) .

دعوى أن معاوية حرّك منبر رسول الله ﷺ فكسفت الشمس

دعوى أنّ الشمس كسفت لأنَّ معاوية حرّك منبر رسول الله ﷺ دعوى باطلة ،
أخرج ذلك الطّبري بسند فيه ثلاثة مجروحين ، عن محمد بن عمر ، عن سويد بن عبد العزيز ،

(١) الطّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ١٧٧) .

(٢) عبد الله المالكي " رياض النفوس " (م ١ / ص ٨٠) .

(٣) ابن عبد البر " الاستيعاب في معرفة الأصحاب " (م ٢ / ص ٥٠٤) .

(٤) أحمد " العلل ومعرفة الرجال " (م ٢ / ص ٤٦٥) .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (م ١ / ج ٢ / ص ٢٢٤) كتاب الحجّ ، ومسلم " صحيح مسلم بشرح
النّوي " (م ٥ / ج ٩ / ص ١٦١) كتاب الحجّ .

عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن أبان بن صالح عن قبيصة بن ذؤيب ، قال : " كان عبد الملك قد همَّ بالمنبر ، فقال له قبيصة : أذكرك الله - عزَّ وجلَّ - أن تفعل هذا وأن تحوِّله ؛ إنَّ أمير المؤمنين معاوية حرَّكه فكسفت الشمس " (١) .

فأمَّا محمَّد بن عمر ، فهو الواقدي : متروك . وسويد بن عبد العزيز ، قال عنه الحافظ : ضعيف (٢) . وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، قال عنه الحافظ : متروك (٣) .

والمتن لا يصحُّ ؛ فقد ثبت في الصحيحين قولُ النَّبِيِّ ﷺ : " إِنَّ الشَّمْسَ والقمر لا ينكسفان لموت أحد من النَّاس ، ولكنَّهما آيتان من آيات الله ، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا " (٤) .

دعوى أن معاوية دَسَّ السُّمَّ للحسن

أمَّا الأخبار التي فيها اتهام لمعاوية بدم الحسن - رضي الله عنه - فلا تصحُّ ، ومنها قول الواقدي : " وقد سمعت بعض من يقول : كان معاوية قد تلطَّف لبعض خدمه أن يسقيه سماً " (٥) .

ولا يعتبر نقل الذهبية والسيوطي وابن حجر وغيرهم من أئمة أهل السنة عن الواقدي مبرراً لأن نعتهم روايته ؛ لأنهم نقلوا عنه في كتب ليست بمظنَّة الحجاج والتعليل ، ولهم أقوال صريحة وصحيحة فيه في كتب التَّراجم والجرح والتَّعديل ، وهي المعتمدة عند

(١) الطُّبري " تاريخ الأمم والملوك " (ج ٤ / ص ١٧٨) .

(٢) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ٢٦٠ / رقم ٢٦٩٢) .

(٣) ابن حجر " تقريب التهذيب " (ص ١٠٢ / رقم ٣٦٨) .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ج ٢ / ص ٢٤) كتاب الكسوف . ومسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٣م / ج ٦ / ص ٢٠٠) كتاب الكسوف .

(٥) الذهبية " سير أعلام النبلاء " (ج ٣ / ص ٢٧٤) والواقدي يضع الحديث ويروي عن مجاهيل ، وقد تقدَّمت ترجمته .

ولا يُصدّق أنّ صحابياً يأمر بقتل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما بالك إذا كان هذا الصحابي من آل البيت الذين افترض الله مودّتهم وأوجب احترامهم على كلّ مسلم ، بقوله تعالى خطاباً لنبية ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا... ﴾ [الشورى] فالله تعالى جعل أجر النبي ﷺ على ما جاءهم به من الهدى المودّة في أهل بيته ، وهذا المعنى لا يخفى علينا حتّى يخفى على معاوية .

كما لا يخفى على معاوية عظيم قدر آل البيت ، فقد أمر النبي ﷺ بالصلاة والسلام عليه وعلى آل بيته ، روى مسلم عن كعب بن عُجرة قال :

" خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقلنا : قد عرفنا كيف نُسلم عليك ، فكيف نُصلي عليك؟ قال : قولوا : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيدٌ " (١) فأقام ﷺ أهل بيته في الصلاة والسلام بعد التّشهُد مقام نفسه .

وهذا أبو بكر - رضي الله عنه - يوصي الناس بالمحافظة على الحسن والحسين والآل يؤذيهم أحد ، فيقول : " ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته " (٢) بمثل هذا كان يتواصى الصحابة - رضي الله عنهم - ، فأصحاب النبي ﷺ خيرٌ من كان يعلم فضائل آل البيت ، فضائل آل البيت والوصايا بهم كثيرة لا يحجدها مسلم .

ولعلّ أظهر ما يردّ هذه التّهمة الباطلة قول ابن خلدون : " وما ينقل من أنّ معاوية دسّ إليه السّمّ مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة ، وحاشا لمعاوية من ذلك " (٣) .

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/٤ج/١٢٧) كتاب الصلاة ، والبخاري " صحيح

البخاري " (٤م/٤ج/٧ص/١٥٦) كتاب الدعوات .

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٤ج/٢٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٣) ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " (٢م/٢ص/١٨٧) .

وقول ابن تيمية في معرض ردّه على قول من قال إنّ معاوية سمّ الحسن : " ولم يثبت ذلك بيّنة شرعيّة ، أو إقرار معتبر ، ولا نقل يجزم به . وهذا ممّا لا يمكن العلم به ، فالقول به قول بلا علم"^(١).

دعوى أنّ معاوية أكره النَّاس على مبايعة يزيد

ومَن لم ينصفهم المؤرِّخون نتيجة ما نقلوه عن الوضّاعين يزيد بن معاوية ، الذي قال النَّبِيُّ ﷺ في حقّه : " أول جيشٍ من أمّتي يغزون مدينة قيصر مغفورٌ لهم "^(٢) فكان أوّل جيش غزى مدينة قيصر بقيادة يزيد بن معاوية - رضي الله عنه - وإذا كان الجيش مغفوراً له ، فما بالك بقائد هذا الجيش !

ومن هذه الأباطيل التي يُتجنّى بها على يزيد أنّ معاوية أكره النَّاس على مبايعة يزيد ، وأنّ بيعته غير صحيحة ، وأنّ أهل المدينة خلعوه لما بلغهم عنه من شُرْب الخمر وغير ذلك من الأباطيل التي لو صحّ منها شيءٌ ما وقف الصّحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر بن الخطّاب - رضي الله عنهما - يومها يدافع عنه ويقرّر صحّة ولايته ، ويكذب ما بلغهم عنه ، فقد أخرج البخاري عن نافع ، قال :

" لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابنُ عمر حشَمَه وولده ، فقال : إنّي سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ : يُنصَبُ لكلِّ غادر لواءٌ يومَ القيامة ، وإنّا قد بايعنا هذا الرّجل على بيع الله ورسوله ، وإنّي لا أعلمُ غَدراً أعظمَ من أن يُبايعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله ، ثمّ يُنصَبُ له القتالُ ، وإنّي لا أعلمُ أحداً منكم خلّعه ولا بايع في هذا الأمر إلاّ كانت الفيصل بيني وبينه"^(٣).

وهذا الحديث يكذب أيضاً دعوى أنّ عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - كان يطمع

(١) ابن تيمية " منهاج السنّة " (٤م/٤ ص ٤٦٩).

(٢) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/٣ ج ٢٣٢) كتاب الجهاد والسير .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (٤م/٨ ج ٩٩) كتاب الفتن .

في الخلافة ؛ فهو يرى أنّ البيعة قد انعقدت ليزيد ، ولا يرى ما يوجب نقض بيعته ، فلو كان يطمع في الدنيا كما يتقوّلون ما قال عبد الله ذلك . وهذا الكلام أسوقه ليعلم القارئ أنّ أحداً من أصحاب النبي ﷺ لم يسلم من التّقد والتّجريح من الوضّاعين حتّى يسلم يزيد وهو من كبار التّابعين !

ويزيد بن معاوية عنده من تقوى الله ما لو وُزّع على عُدّاته لكفاهم ، فهذا معاوية - رضي الله عنه - يقول ليزيد : " كيف تراك فاعلاً إن وليت ؟ قال : يمتع الله بك يا أمير المؤمنين ، قال : لتخبرني . قال : كنتُ والله يا أبة عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطّاب ، فقال معاوية : سبحان الله يابني ، والله لقد جهدتُ على سيرة عثمان بن عفّان فما أطقّتها ، فكيف بك وسيرة عمر ؟ " (١).

وقد صدق معاوية - رضي الله عنه - ؛ فإنّ عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - قد أعجز بسيرته من كان بعده ! ولا يتقدّم عليه بالفضل إلاّ أبو بكر - رضي الله عنه - ، وهذا عثمان بن عفّان - رضي الله عنه - لما جفاه عبد الرّحمن بن عوف - رضي الله عنه - لأسباب منها تركه سنّة عمر - رضي الله عنه - بين له عثمان أنّ سنّة عمر لا يطيقها عثمان ولا يقدر عليها عبد الرّحمن ابن عوف ولا غيره - رضي الله عنهم جميعاً - ، أخرج أحمد بسند صحيح عن عاصم عن شقيق ، قال :

" لقي عبد الرّحمن بن عوف الوليد بن عقبة ، فقال له الوليد : مالي أراك قد جفوت أمير المؤمنين عثمان ؟ فقال له عبد الرحمن : أبلغه أيّ لم أفّر يوم عينين ، قال عاصم : يقول يوم أحد ، ولم أتخلّف يوم بدر ، ولم أترك سنّة عمر ، قال : فأنتلق فخبّر ذلك عثمان ، قال : فقال : أمّا قوله إنّي لم أفّر يوم عينين فكيف يُعيّرني بذنب وقد عفا الله عنه ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمْ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ... ﴿ ١٥٥ ﴾ [آل عمران] وأمّا قوله إنّي تخلّفتُ يوم بدر فإنّي كنتُ أمرّضُ رقيّة بنت

(١) ابن كثير " البداية والنهاية " (ج٨/ص ٢٢٩) .

رسول الله ﷺ حين ماتت ، وقد صَرَبَ لي رسول الله ﷺ بسهمي ، ومن ضرب رسول الله ﷺ بسهمه فقد شهد ، وأما قوله إني لم أترك سنّة عمر فإني لا أطيقها ولا هو ، فأته فحدثه بذلك " (١) .

وإذا كان كبار الصّحابة لا يستطيعون سنّة عمر ، فكيف لهم بسنّة النّبي ﷺ الذي كان يُعصم بالوحي !

معاوية ستر للصّحابة - رضي الله عنهم -

وَحُبُّ أصحاب النّبي ﷺ الميزان فيه حُبُّ معاوية - رضي الله عنه - فلا تنفع محبة للصّحابة تنقصها محبة أحد من أصحابه ﷺ ، ومن جرح واحداً من الصّحابة فهو المجرح دونهم !

قال أبو توبة الرّبيع بن نافع الحلبيّ : " معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ ، فإذا كَشَفَ الرّجلُ السّترَ اجترأ على ما وراءه " (٢) فهناك من يتجرأ على معاوية ليجعل من ذلك مدخلاً للطعن على غيره من الصّحابة - رضي الله عنهم - .

وقال الميمونيّ : قال لي أحمد بن حنبل : " يا أبا الحسن ، إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصّحابة بسوء فاتهمه على الإسلام " (٣) .

دعوى أنّ يزيد لم يسلم من دم الحسن والحسين

أما الأخبار التي فيها اتهام ليزيد بدم الحسن فلا تصحّ ، فقد ورد أنّ الحسن - رضي الله عنه - لم يكن متيقّناً من قاتله ، فإنّه لما أشرف الحسن - رضي الله عنه - على الموت دخل عليه الحسين فوجده يمجد بأنفاسه الأخيرة ، فسأله عن قاتله ، فامتنع عن إخباره ، فقد ورد أنّ

(١) أحمد " المسند " (ج ١ / ص ٣٧٥ / رقم ٤٩٠) .

(٢) ابن كثير " البداية والنهاية " (ج ٨ / ص ١٣٩) .

(٣) المرجع السّابق .

الحسين جاءه وهو يسوق^(١) فقال: "أي أخي، أنبئني من سقاك؟! قال: لم؟ لتقتله؟ قال: نعم. قال: ما أنا مُحَدِّثُكَ شيئاً، إن يكن صاحبي الذي أظنُّ، فالله أشدُّ نعمةً، وإلا فوالله لا يُقْتَلُ بي بريء"^(٢).

وعن قتادة: "قال الحسن للحسين: قد سُقيْتُ السُّمَّ غير مرّة، ولم أُسَقَ مثل هذه، إنِّي لأضغُ كبدي، فقال: مَنْ فعله؟ فأبى أن يُخبره"^(٣).

وأظهر ما يردُّ هذه الدَّعوى ما رواه المدائني: "أنَّ عبد الله بن عبَّاس وفد إلى معاوية، فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن عليّ، فلما دخل على ابن عبَّاس رحَّب به وأكرمه، وجلس عنده بين يديه، فأراد ابن عبَّاس أن يرفع مجلسه فأبى، وقال: إنَّها أجلس مجلس المعزِّي لا المهنيّ، ثمّ ذكر الحسن، فقال: رحم الله أبا محمَّد أوسع الرِّحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرَكَ وأحسنَ عزاءك، وعوضك من مصابك ما هو خيرٌ لك ثواباً وخير عقبى. فلما نهض يزيد من عنده، قال ابن عبَّاس: إذا ذهب بنو حرب ذهبَ علماء النَّاس"^(٤).

وقد توفِّي الحسن - رضي الله عنه - في عهد معاوية، قال البخاريّ: "توفِّي الحسن بن عليّ بعد ما مضى من إمارة معاوية عشر سنين"^(٥).

أمّا اتِّهام يزيد بدم الحسين، فباطل من وجوه، أظهرها ما رواه البخاري عن عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - قال لرجل من أهل العراق يسأله عن مُحْرِمٍ قتل ذبأباً ماذا يلزمه؟ فقال - رضي الله عنه - : "أهلُ العراق يسألونَ عن الدِّباب ! وقد قَتَلوا ابنَ ابنة رسول الله

(١) يسوق: أي في التزج الأخير.

(٢) الذهبي "سير أعلام النبلاء" (ج ٣/ ص ٢٧٣).

(٣) الذهبي "سير أعلام النبلاء" (ج ٣/ ص ٢٧٤).

(٤) ابن كثير: "البداية والنَّهاية" (ج ٨/ ص ٢٢٨).

(٥) البخاري "كتاب التَّاريخ الكبير" (٢م/ ص ٢٦٧/ رقم ٢٤٩١).

ﷺ ، وقال النبي ﷺ : هما ريحانتي من الدنيا ^(١) فهذا ابن عمر - رضي الله عنهما - يصرح بأن قتل الحسين هم أهل العراق الذين يسألون عن الشيء اليسير وقد فرطوا بالشيء الجليل ! ولم يقل قتلته أهل الشام .

وأخرج نحوه أحمد بسند صحيح عن ابن أبي نعم ، قال : " كنتُ عند ابن عمر ، فسأله رجلٌ عن دمِ البعوض ، فقال : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق ، قال : انظروا إلى هذا يسألني عن دمِ البعوض وقد قتلوا ابنَ رسولِ الله ﷺ ، وقد سمعتُ رسولَ الله يقول : هما ريحانتي من الدنيا - رضي الله عنهما - " ^(٢) .

أمَّا خبر جعدة فلا يصحُّ ، وقد أنكره ابن كثير ، فقال : " وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمي الحسن وأنا أتزوجك بعده ، ففعلت ؛ فلما مات الحسن بعثت إليه ، فقال : إنا والله لم نرضك للحسن أنفرضاك لأنفسنا ؟ وعندني أن هذا ليس بصحيح ، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأوثى والأحرى " ^(٣) .

خاب وخسر من افترى الكذب على دولة بني أمية

لا معنى لكلام من يطعن في دولة بني أمية ؛ فقد جمعت دولتهم خير الناس : الصحابة ، والتابعين ، وأتباع التابعين ، فحظيت بقول النبي ﷺ : " خير الناس قرني ^(٤) ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " ^(٥) .

(١) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج٤/ص٢٠٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

(٢) أحمد " كتاب فضائل الصحابة " (٢م/ص٧٨١/رقم١٣٩٠) .

(٣) ابن كثير " البداية والنهاية " (ج٨/ص٤٣) .

(٤) القرن من الناس : أهل كلِّ مئة كان فيها نبيٌّ أو طبقة من أهل العلم والفضل قلَّت السنين أو كثرت ، والمراد هنا : جيل الصحابة الذين أدركوا النبي ﷺ ، وجيل التابعين الذين أدركوا الصحابة ، وجيل أتباع التابعين الذين أدركوا التابعين الأوائل .

(٥) البخاري " صحيح البخاري " (٢م/ج٤/ص١٨٩) كتاب أحاديث الأنبياء .

وقد بدأت دولة بني أمية سنة إحدى وأربعين من الهجرة بعد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ، واستمرت إلى سنة مائة واثنين وثلاثين من الهجرة . ومن قرأ تاريخ عهد بني أمية عجب من القادة الأعلام الذين نشروا الإسلام في طول البلاد وعرضها في ذلك الزمان ، ففي عهد الوليد بن عبد الملك وحده ، فتح قتيبة بن مسلم الباهليّ : بخارى ، وسمرقند ، وخوارزم ، وطشقند ... ونشر الإسلام فيها وكان يومها عاملاً على خراسان للحجاج بن يوسف الثقفي .

كما وجه الحجاج محمد بن القاسم إلى بلاد السند (باكستان وأفغانستان) فكان له فتح مكران والديبل والمثلتان ... وتم في عهد الوليد أيضا فتح الأندلس ، حيث فتح طارق بن زياد قرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ... والتقى مع موسى بن نصير في طليطلة ، فكان فتح إشبيلية ، وماردة ، وباجة ...

ولو لم يكن لدولة بني أمية سوى أمها أنجبت عمر بن عبد العزيز لكفى !

المبحث الثاني

التأليف بين الأمة مقصد عظيم

﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...﴾ (٧٨) ﴿[الحجّ]

التحذير من فتنة الجماعات !

ينبغي للمسلم أن يحذر من فتنة الجماعات ، وألا يزيد في فرقة المسلمين بتعصبه إلى جماعة أو فرقة ؛ فإنك ترى في هذا الزمان من يوالي ويعادي لأجل جماعته ! دون فقه بعقيدة الولاء والبراء ، فالواجب أن نعتصم بحبل الله جميعاً وألاً نفرّق ، فقد عاب الله تعالى على المشركين أنهم فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً وجماعات ، وحذّرنا أن نكون مثلهم ، فقال : ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم].

فهذه الفرق والجماعات على اختلاف أسماؤها لم تكن في عهد النبي ﷺ ، ولم يأمر بها ؛ فإن الله سمّانا المسلمين من قبل القرآن ومن بعده ، وأمرنا أن نعتصم به جلّ قدره ، قال تعالى : ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ...﴾ (٧٨) ﴿[الحجّ] .

كما سمى الله تعالى المؤمنين أخوة في الدين والولاية ولم يستثن أحداً ، فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ (١٠) ﴿[الحجرات] فالأصل أننا أخوة نرجع إلى أصل النسب آدم وحواء إذا كنّا مؤمنين بحقّ .

والولاء والبراء لا يعني أن نوالي جماعة ونتبرأ من الجماعات الأخرى ، بل الولاء أن نوالي الله تعالى ، ورسوله ﷺ ، والذين آمنوا ، قال تعالى : ﴿إِنهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ [المائدة] وعن عمرو بن العاص قال سمعتُ رسول الله ﷺ جهاراً غير سرّ، يقول: "ألا إن آل أبي - يعني فلانا - ليسوا بأولياء، إنهما وليي الله وصالح المؤمنين" (١) والبراء يكون من الكافرين، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا...﴾ (٢٨) [آل عمران] وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ إِنَّكُمْ فَاؤَلِيكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) [التوبة].

آن هذه الأمة أن تعود إلى سالف مجدها، آن لهذا الخلف الذي اتّبع الشّهوات والمتشابهات أن يعود إلى الحقّ الذي كان عليه السلف، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (١١٠) [آل عمران].

وانظر ما يوحى إليه لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ هاهنا، أي أمة واحدة، إلهها واحد، ودينها واحد، وكتابتها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، هكذا كانت هذه الأمة وهكذا ينبغي أن تكون حتّى يرث الله الأرض ومن عليها!

فإن قال قائل: لكننا نشهد غربة الإسلام، ونسمع عن اختلاف السلف ونرى ونشهد فرقة الخلف، فلكلّ أمة إمام، والجميع دون إمام! فكيف نكون خير أمة والحال ليس كما كان عليه الصّحابة الكرام؟!

فالجواب أنّ علينا أن نكون على ما كان عليه النّبى ﷺ وأصحابه، فهذا مالك بن أنس - رضي الله عنه - يقول "لن يصلح آخر هذه الأمة، إلا ما أصلح أولها" وحتّى نكون كذلك يجب أولاً أن نعتزل هذه الفرق كلّها، فهذا الصّحابيّ الجليل حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يأمره النّبى ﷺ باعتزال الفرق كلّها إذا مدّ الله في عمره وأدرك زماناً لم يكن للأمة

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٢م/ج ٣/ص ٨٧) كتاب الإيمان .

فيه جماعة ولا إمام ، يقول - رضي الله عنه - :

" كان النَّاسُ يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير ، وكنْتُ أسأله عن الشَّرِّ مخافةً أن يدرِكَنِي ، فقلْتُ : يا رسولَ الله ، إنا كنا في جاهليَّةٍ وشرٍّ ، فجاءنا اللهُ بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخيرِ شرٌّ ؟ قال : نعم . فقلْتُ : هل بعد ذلك الشَّرِّ من خيرٍ ؟ قال : نعم . وفيه دَخْنٌ . قلتُ : وما دَخْنُهُ ؟ قال : قومٌ يَسْتَتِنُونَ بغيرِ سُنَّتِي ، وَيَهْدُونَ بغيرِ هُدْيِي ، تعرفُ منهم وتُنكِرُ . فقلْتُ : هل بعد ذلك الخيرِ من شرٍّ ؟ قال نعم ، دُعَاةٌ على أبوابِ جهنَّمَ ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . فقلْتُ : يا رسولَ الله ، صِفْهُم لنا . قال : نعم ، قومٌ من جلدتنا ، ويتكلمونَ بألسنتنا . قلتُ : يا رسولَ الله ، فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال تلزُمُ جماعةَ المسلمين وإمامَهُم . فقلْتُ : فإن لم تكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعصَّ على أصلِ شجرةٍ حتى يدرِكَك الموتُ وأنت على ذلك " (١) .

فنحن نريد أن نُجمِعَ لا أن نفرِّقَ ، ونريد أن نؤلِّفَ لا أن نشتتَ ، ومما لا ريبَ فيه أن التَّأليفَ بين الأُمَّة - بعد أن انفرط عقدها - مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشريعة الإسلامية ؛ فأعداؤنا منذ غابر الأزمان يريدون لهذه الأُمَّة أن تكون أُمماً ، وهذه الفرق أن تظلَّ فرقا لا ربح لها ، لتبقى الأُمَّة الإسلامية متفرِّقة ، عاجزة عن الوقوف في وجه أعدائها ، الذين اجتمعوا عليها كما اجتمعت الأكلة على قصعتها !

وقد قصَّ الله تعالى علينا نبأ فرعون الذي علا في الأرض بأن جعل أهلها فرقا وجماعات ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ؛ ليقبوا ضعفاء ، ولا يقبوا على دفع الظلم عن أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ... ﴾ (٤) [القصص] .

وإنما أقول هذا الكلام للمؤمنين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْفَعُونَ أَوْ يُحِثُّ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (١١٣) [طه] قال

(١) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (٦م / ج١٢ / ص ٢٣٦) كتاب الإمارة ، والبخاري " صحيح البخاري " (٤م / ج٨ / ص ٩٢) كتاب الفتن .

تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة].

وأنا أعلم أنّ الله تعالى قد أمضى علينا التفريق قدرًا ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ ... ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود] لكن الله أمرنا أن ندفع هذا التفريق ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَأَسْتَمْتَهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ... ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

فإذا كان الأمر كذلك ، كيف ندفع التفريق شرعاً ١٩ الجواب ، بأن نردّه إلى الله والرسول ، وبفهم السلف الصالح ، لا بفهم أحدنا وتأويله ، فذلك خيرٌ من التنازع وأحسنُ مآلاً .

فإن قال قائل : لكنّ الله أوجب علينا أن نبين الحق للناس وإن كان الحق مرّاً قولاً ودفاعاً ! بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ... ﴿١٧٧﴾ ﴾ [آل عمران].

فالجواب ، أنّ جهاد البيان والحجّة والبرهان سابق على جهاد السنان ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي جاهد الكفار بالقرآن وحججه الربانية وآياته التنزيلية ، وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل].

التَّحذِيرُ مِنْ فِتْنَةِ التَّكْفِيرِ !

كما ينبغي للمسلم أن يحذر من فتنة التكفير ، فلا يكون لأحد يؤمن بالله ورسوله أن ينجرَّ إلى التكفير دون فقه بقواعد التأويل ، فقد حذَّر النَّبِيُّ ﷺ أن يكفِّر أحدُ أخاه من غير تأويل سائغ ، أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : " إذا قال الرَّجُلُ لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما " (١) وأخرج مسلم عن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : " أيُّا امرئٍ قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، إن كان كما قال ، وإلَّا رجعت عليه " (٢) وقال ﷺ : " وَمَنْ قَدَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ " (٣).

والأعظم من ذلك الجزم بتكفير العموم بسبب أقوال أو أفعال من هنا أو هناك ، فإنك تجد من النَّاسِ ناساً يكفِّرون طائفة ، أو جماعة ، أو فرقة بقصِّها وقضيضها ، من ألفها إلى يائها ، ويخرجونها من الإسلام ، ويرمونها عن قوسٍ واحدة ، ويقطعون أنها في النَّارِ ؛ لأجل ظاهر لأفراد منها في زمن من الأزمان ، وقد يكون هذا الظاهر مخالفاً حقيقةً لواقع ، ولا يغفرون لها مهما تعاقبت العصور ، وتوالت الدُّهور ! فهل اطَّلَع هؤلاء على قلوب العباد حتَّى كشفوا عن سرائرهم واستيقنوا ممَّا خَلَصُوا إليه ؟! أم أتهم عُيُنُوا على اللوح المحفوظ حتَّى علموا حال هؤلاء ، وخواتيم أعمالهم ؟!

ومن تدبَّر الآية الثالثة عشرة بعد المائة من سورة البقرة وجد فيها ما ينهيه عن ذلك ، فقد عاب الله تعالى على المشركين العرب وغيرهم أنهم قالوا لكلِّ ذي دين ليسوا على شيء ، وشبهه أخلاقهم بأخلاق اليهود والنصارى ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ؕ قَالَ اللَّهُ يُحْكِمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة].

(١) البخاري : " صحيح البخاري " (٤م / ج ٧ / ص ٩٧) كتاب الأدب .

(٢) مسلم " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م / ج ٢ / ص ٤٩) كتاب الإيمان .

(٣) البخاري عن ثابت بن الضَّحَّاك " صحيح البخاري " (٤م / ج ٧ / ص ٨٤) كتاب الأدب .

وهذا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - لما بعثه رسول الله ﷺ في سرية أدرك رجلاً من الكفار فقتله بعد قوله لا إله إلا الله ، يقول أسامة : " فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته؟! قال : قلت : يا رسول الله ، إننا قالها خوفاً من السلاح ، قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ! فما زال يكررها حتى تمتيت أني أسلمتُ يومئذ " (١).

فنحن لسنا مأمورين بتقبُّب قلوب العباد ، والاطلاع عليها ، للنظر إن كان ما قاله العبد معتقداً إياه قلبه ، أم أن ما قاله من اللسان ولم يقصده القلب برهان .

وبعد ، فالحديث الشريف المتقدم فيه مصداق للقاعدة الشهيرة في الفقه والأصول " أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر ، والله يتولى السرائر " .

والمذهب الحقّ - الذي ندين الله به - أننا لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنوب ولا بكبيرة من كبائر الذنوب ، بل لا نكفر أحداً من أهل الأهواء والبدع ما لم يستحلّ ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام ، أو نشأ بمكان منكور ، وجهل ذلك ، فيعرف ، فإن لم يرجع حكمه بكفره .

وقد أصاب الإمام الشوكاني حين قال : " وباب التكفير باب خطر ولا نعدل بالسلامة شيئاً " (٢).

وهناك مقولة فاسدة عند الغلاة مفادها أن من كفرنا كفرناه ، فمن كفر مسلماً فقد كفر ، وهذا فكر فاسد ؛ وإلا فما الفرق بين الفريقين!؟

فهذا عليّ - رضي الله عنه - لما سُئِلَ عن الخوارج إن كانوا كفّاراً ، نفى أن يكونوا كذلك ، أخرج الصنعاني عن شيخه عبد الرزاق عن معمر ، سمع الحسن ، قال :

" لما قتل عليّ - رضي الله عنه - الحرورية ، قالوا : من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟ أكفار

(١) مسلم : " صحيح مسلم بشرح النووي " (١م / ج ٢ / ص ٩٩) كتاب الإيمان .

(٢) الشوكاني " نيل الأوطار " (ج ٧ / ص ٣٥٣) .

هم؟ قال : من الكفر فَرُّوا ، قيل : فمنافقين ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، وهؤلاء يذكرون الله كثيراً ، قيل فما هم ؟ قال : قوم أصابهم فتنة فعموا فيها وصمّوا^(١) ذلك أن الخليفة عليّ - رضي الله عنه - يقرأ قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا... ﴾ (١٤) ﴿ [النساء] .

ولذلك تورّع أعلام العلماء المسلمين عن تكفير الخوارج ، مع ما صحّ عنهم من أحاديث تصفهم بالمروق من الدين ، وتأمر بقتلهم .
ولذلك قال النووي : " ... وقد سبق الخلاف في تكفيرهم وأنّ الصّحيح عدم تكفيرهم^(٢) .

ومن تدبّر الآيات والأحاديث عَلم ما قلنا ؛ فقد أثبت القرآن الأخوة بين القاتل العمد وولي المقتول إن كان مسلماً ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ... ﴾ (١٧٨) ﴿ [البقرة] فكلمة أخيه تفيد بأن القتل لا يقطع أخوة الإيوان ، فالكباير لا تنقض الإيوان ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا... ﴾ (٩) ﴿ [الحجرات] فسّمّاهم المؤمنين ، بل أكد الإيوان والأخوة بينهما ، فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٠) ﴿ [الحجرات] .

ومن الأحاديث في هذا المعنى قوله ﷺ : " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار^(٣) فسّمّاهما مسلمين رغم الاقتتال .

وهذا الحديث لا ينطبق على الصحابة الذين شاركوا في الجمل وصفين ، فإنهم متأولون

(١) المصنّف " (ج ١٠ / ص ١٥٠ / رقم ١٨٦٥٦) كتاب اللقطة ، وأخرجه ابن أبي شيبة في " مصنّف ابن أبي شيبة " (م ١٥ / ص ٣٣٢ / رقم ١٩٧٨٨) ، وفي آخره : " قال : قوم بغوا علينا " وأخرجه البيهقي من طريق آخر في " السنن الكبرى " (٨م / ص ١٧٤) .

(٢) النووي " صحيح مسلم بشرح النووي " (٤م / ج ٧ / ص ١٦٥) كتاب الزكاة .

(٣) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ج ١ / ص ١٣) كتاب الإيوان .

مجتهدون ، وأهل الحقّ مجمعون على كمال عدالتهم ، وعدالتهم ثابتة في القرآن والسُّنة .

كذلك قوله ﷺ : " وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي " (١) .

فستاهم النبي ﷺ أمته مع الافتراق ، فالأصل أمتها من أمة محمد ﷺ وإذا كان النبي ﷺ قد حكم عليها أمتها في النار فلا يخفى على من كان له قلب أنه سكت عن خلودها في النار ، فلم يقل : كلها خالدة مخلدة في النار !

وهذا الحديث لا يفهم منه أن النبي ﷺ يدعو إلى الفرقة ، كما أنه لا ينص على فرقة ناجية باسمها ، وإنما بين الفرقة الناجية ، وهي التي على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، فمن كان على ذلك فهو ناج إن شاء الله تعالى .

هذا وكل الشبهات التي يستند إليها الغلاة مردودة بالمحكمات البيّنات .

قلة أهل الحق وكثرة أهل الباطل !

لا يميزك قلة أهل الحق وكثرة أهل الباطل ، فأهل الحق قليل ؛ لأن أمر الحق يصعب على أكثر من في الأرض ، وقد أقسم ربُّ الناس على خسارة الناس ، فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ۝٢ ﴾ ثم استثنى منهم فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر] والغالبية في طرف المستثنى منه ، وهو استثناء عام متصل يدخل تحته كل مؤمن ومؤمنة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ۝١١٣ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١١٣ ﴾ [يوسف] فالكثرة الكاثرة على باطل .

(١) الترمذي " الجامع الكبير " (م/٤ ص/٣٨١ رقم ٢٦٤١) أبواب الإيمان . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسنٌ غريبٌ مُفسَّرٌ لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه .

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (١٣) [سبأ] فالقلّة القليلة شاكرة^(١)، وقال تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٤) [الواقعة] وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ...﴾ (١٤) [ص]. و﴿مَّا﴾ في الآية زائدة للإيهام والتعجب من قلتهم.

طوبى لهذه الأمة وحسن مآب !

من ثمرات طاعة الله تعالى والرسول واتباع هديه وسنته : مواكبة النبيين ، والصديقين، والشهداء ، والصالحين في دار النعيم ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦١) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) [النساء].

وكم هي الآيات والأحاديث التي تحمل بين طياتها بشرى هذه الأمة ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ومعاذ رديفُهُ على الرّحل ، قال : " يا معاذ بن جبل ، قال : لبيك يا رسول الله ، وسعدك ثلاثاً ، قال : معاذ ، قال : لبيك يا رسول الله ، وسعدك ثلاثاً ، قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه ، إلا حرمه الله على النار . قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس ؛ فيستبشروا . قال : إذا يتكلموا^(٢) . وأخبر به معاذٌ عند موته تأثماً^(٣) " (٤).

الأوصاف التي شاركت بها أمتنا النبي ﷺ

وقد شاركت أمتنا النبي ﷺ بأوصاف منها : أن الله تعالى قال للنبي ﷺ : ﴿وَبَشِّرْهُ بِنِعْمَتِهِ

(١) المراد بالشكر العمل ، فالآية : ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ (١٣) [سبأ]

(٢) نهي النبي ﷺ نهي تنزيه لا تحريم .

(٣) أخبر به خشية الوقوع في الإثم من كتمان العلم .

(٤) البخاري " صحيح البخاري " (١م / ١ج / ١ص ٤١) كتاب العلم .

عَلَيْكَ ... ﴿٢﴾ [الفتح] وقال لأُمَّته : ﴿وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ...﴾ ﴿٢﴾ [المائدة].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿وَهَدَيْكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾ [الفتح] وقال لأُمَّته : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٥٤﴾ [الحج].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٣﴾ [الفتح] وقال لأُمَّته : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [الروم].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَتْنَا ...﴾ ﴿٧٤﴾ [الإسراء] وقال لأُمَّته : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ...﴾ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٢﴾ [القلم] وقال لأُمَّته : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ﴿٦﴾ [التين].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ [النساء] وقال لأُمَّته : ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ ...﴾ ﴿١٤٢﴾ [البقرة].

وقال للنَّبِيِّ ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ...﴾ ﴿٥٦﴾ [الأحزاب] وقال لأُمَّته : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ...﴾ ﴿٤٣﴾ [الأحزاب].

كما شاركت أمتنا سائر الأنبياء بأوصاف كثيرة ، فما أعظمها من أمة !

الخاتمة

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ...﴾ (١١٤) [النساء]

نمّا يدمي القلب أن تجد من يجترئ على كلام الله تعالى ، وحديث الرسول ﷺ ، ويتنقذ الصحابة - رضي الله عنهم - ويستطيل ويتطاول ، ويهرف بما لا يعرف من فضول الكلام ، ولا يقيم وزناً لقوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١٨) [ق].

ولو أن هؤلاء يعقلون كلام الله لتوقفوا ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمُحَرِّمٌ عَلَيْهُمُ الْخَبِيثَاتُ ... ﴾ (١٥٧) [الأعراف] ومن الخبائث المحرمة : الكلام الخبيث ، فقد قسم الله تعالى في كتابه الكلام إلى خبيث وطيب ، فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴾ (١٢٤) [إبراهيم] وقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ... ﴾ (١٣٦) [إبراهيم] فليتنقذ الله امرؤ مردّه إلى الله ! فلا يقل إلا خيراً ، ولا يعمل إلا صالحاً ، فلا خير في قول لا يراد به وجه الله ﴿ وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٦٠) [الروم].

وليعلم أن الله تعالى مدح الكلمة الطيبة ، فقال : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ... ﴾ (٣٣) [البقرة] وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... ﴾ (١٠) [فاطر] وانظر كيف جعل الله تعالى العمل الصالح الموافق للقول الطيب هو الذي يرفع الكلم الطيب ، فتدبّر !

ووالله الذي لا إله إلا هو إنّ كلّ إنسان يسعى بنفسه ، فبائع نفسه لله تعالى بطاعته فيعتقها ، وبائع نفسه للشيطان والهوى فيوبقها ؛ فليحذر العاقل ، وليتق الله ، فأخر آية نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يظَلْمُونَ ﴿٨١﴾ [البقرة] (١).

وليزك نفسه ؛ فقد أقسم مولانا تبارك وتعالى أحد عشر قسماً في سورة الشمس على فلاح من زكى الله نفسه ، أو زكى نفسه بالطاعة ، فقال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَضَحَّهَا ﴾ ﴿١﴾ هذان قَسَمَانِ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهَا ﴾ ﴿٢﴾ قسم ثالث ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ ﴿٣﴾ قسم رابع ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ﴿٤﴾ قسم خامس ﴿ وَالسَّمَاءِ ﴾ ﴿٥﴾ قسم سادس ﴿ وَمَا بَنَدَهَا ﴾ ﴿٥﴾ قسم سابع ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿٦﴾ قسم ثامن ﴿ وَمَا لَحَّهَا ﴾ ﴿٦﴾ قسم تاسع ﴿ وَنَفْسٍ ﴾ ﴿٧﴾ قسم عاشر ﴿ وَمَا سَوَّيْتَهَا ﴾ ﴿٧﴾ فَاهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ القسم الحادي عشر ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّهَا ﴾ ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿١٠﴾ [الشمس] على هذا أقسم الله تعالى ، فتدبر .

أعوذ بالله أن أكون عند نفسي عظيماً وعند الله حقيراً ! اللهم اجعلني من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿٢٤﴾ [الحج] اللهم ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿٨٤﴾ [الشعراء] ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ ﴿٤١﴾ [إبراهيم].

وختاماً ، الله أسأل أن يسبغ على من طالع هذا الكتاب أو قدمه أو اشتغل به أو أعانني عليه نعمة تترى ، وأن ينفعه به ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء] إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ [يونس].

(١) وفي آخر آية نزلت اختلاف ، انظر " الإتيان في علوم القرآن " للسيوطي (ج ١ / ص ٥٧)

المصادر والمراجع

- ١- إحياء علوم الدين : أبو حامد ، محمد الغزالي . دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٢- أخوة الإسلام فوق مستوى الخلافات وتباين الأفهام : محمد الحكمي . مكتبة الإرشاد - اليمن ، ومكتبة جدة - السعودية ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .
- ٣- إرواء الغليل : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ٤- أسباب النزول : علي بن أحمد النيسابوري . دار الفكر ، بيروت - لبنان ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
- ٥- استشهاد عثمان - رضي الله عنه - ووقعة الجمل : د. خالد الغيث . دار الإيمان ، إسكندرية ، ط ٢ .
- ٦- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق د. محمد الاسكندراني . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- ٧- أصحاب الرسول ﷺ : محمود المصري . مكتبة الصفا ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ٨- إعجاز القرآن البياني : د. صلاح الخالدي . دار عمّار - عمّان ، ط ٣ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .
- ٩- إعجاز القرآن الكريم : فضل حسن عبّاس . دار الفرقان ، عمّان ، ط ٤ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ١٠- إعراب القرآن : التّحّاس ، أحمد بن محمد ، تحقيق د. زهير غازي . عالم الكتب ، بيروت ،

- ط ٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م .
- ١١- إغاثة اللّهبان من مصائد الشّيطان : ابن قيم الجوزيّة ، تحقيق محمد الفقي . دار المعرفة ، بيروت ، ط٢، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م .
- ١٢- الإتيقان في علوم القرآن : السيوطي . دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .
- ١٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ابن عبد البر ، تحقيق علي البجاوي ، مكتبة نهضة مصر، مصر .
- ١٤- الإصابة في تمييز الصّحابة : ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي . دار الكتب العلميّة ، بيروت .
- ١٥- الإعجاز اللغوي في القصّة القرآنيّة : محمود السيد حسن . مكتبة مركز الدّراسات الإسلاميّة ، ط١، ١٩٨١م .
- ١٦- الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتلّ : بهجت عبد الواحد . دار الكتب العلميّة - بيروت ، ودار الفكر - عمّان ، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م .
- ١٧- الإمام عليّ - رضي الله عنه - رابع الخلفاء الرّاشدين : محمّد رضا ، تحقيق د. أحمد عوض . المكتبة العصريّة ، صيدا - بيروت ، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م .
- ١٨- الأنصار في العصر الرّاشدي : د. حامد الخليفة . مكتبة الصّحابة ، الإمارات - الشّارقة ، ومكتبة التّابعين ، القاهرة - عين شمس ، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .
- ١٩- الإيضاح في علوم البلاغة : الخطيب القزويني . مؤسّسة الكتب الثّقافيّة ، بيروت ، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م .
- ٢٠- الباعث الخيّيّ شرح اختصار علوم الحديث : ابن كثير ، شرح أحمد شاكر ، تحقيق محمّد صبحي ، مؤسّسة الرّسالة ، ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .
- ٢١- البداية والنّهاية : ابن كثير . مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٢، ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ .
- ٢٢- البرهان في توجيه متشابه القرآن : محمود بن حمزة الكرمانيّ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا . دار الكتب العلميّة ، لبنان ، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

- ٢٣- البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) : فضل حسن عباس . دار الفرقان ، عمان ، ط ١١ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
- ٢٤- البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) : فضل حسن عباس . دار الفرقان ، عمان ، ط ٥ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- ٢٥- البيان والتبيين : عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ، ١٩٦٨م .
- ٢٦- التاريخ الأوسط والضعفاء الصغیر : البخاري ، محمد بن إسماعيل ، قراءة وضبط د. يحيى مراد . دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ .
- ٢٧- التّربية عند الإمام الشّاطبي : د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
- ٢٨- التّغيب والتّرهيب من الحديث الشّريف : عبد العظيم المنذري ، تحقيق مصطفى عمارة . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٢٩- التّصوير الفني في القرآن : سيد قطب . دار الشروق ، ط ٦ ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ٣٠- التّطبيق الصّرفي : د. عبده الرّاجحي . دار النهضة العربيّة ، بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- ٣١- الجامع الكبير : الترمذي ، تحقيق د. بشّار عوّاد ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٩٨م .
- ٣٢- الجامع لشعب الإيوان : البيهقي ، أحمد بن الحسين ، تحقيق د. عبد العلي حامد . مكتبة الرّشد - السّعوديّة ، ط ١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .
- ٣٣- الجرح والتّعديل : عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي ، تحقيق مصطفى عبد القادر . دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- ٣٤- الجواب الكافي فيمن سئل عن الدّواء الكافي : ابن قيم الجوزيّة ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكّة المكرّمة - الرياض ، ط ٢ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٣٥- الحجّة على تارك المحجّة : إسماعيل محمد الأصهباني ، تحقيق محمد المدخلي . دار الرّاية ،

الرياض، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٣٦- الخلفاء الراشدون : د. أمين القضاة . دار الفرقان ، عمان ، ط ١ ، ٢٠٠٠م - ١٤٢٠هـ .

٣٧- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع : أحمد بن الأمين الشنقيطي . دار المعرفة ، بيروت .

٣٨- الدولة الأموية المفترى عليها : د. حمدي شاهين . دار القاهرة للكتاب ، ٢٠٠١م .

٣٩- الردّ على من أخلد إلى الأرض وجهل أنّ الاجتهاد في كلّ عصر فرض : جلال الدين السيوطي ، تحقيق خليل الميس . دار الكتب العلميّة بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٤٠- الرّحيق المختوم : صفّي الرحمن المباركفوري . مؤسّسة الرّسالة ، بيروت - لبنان ، ط ٢ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

٤١- الرّصف لما روي عن النّبّي ﷺ من الوصف : ابن العاقولي، محمّد الواسطي، تحقيق محمّد الشافعي . دار الكتب العلميّة ، لبنان ، ط ١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

٤٢- الرّوح : ابن القيم الجوزيّة ، تحقيق د. السيّد الجميلي . دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٤٣- السنّة : لأبي بكر الخلال ، أحمد بن محمّد بن هارون ، تحقيق د. عطية الزهراني ، دار الرّاية، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

٤٤- السنن الكبرى : البيهقي . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة ، حيدر أباد ، الهند ، ١٣٥٤هـ .

٤٥- السنن الكبرى للنسائي : النسائي ، أحمد بن شعيب ، تحقيق د. عبد الغفار سليمان وسيّد كسروي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٤٦- السّيف المسلول على من سبّ الرّسول : تقي الدين علي السّبكيّ ، تحقيق إياد الغوج . دار الفتوح ، الأردن ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٤٧- الشّفا : القاضي عياض ، تحقيق نواف الجراح . دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

- ٤٨- الصّارم المسلول على شاتم الرّسول ﷺ : ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحلّيم ، خرّج أحاديثه أحمد شعبان . مكتبة الصّفا ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ٤٩- الصّحوة الإسلاميّة بين الجحود والتّطرف : د. يوسف القرضاوي . مؤسسة الرّسالة ، ط ٦ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ٥٠- الصّحيح المسند من فضائل الصّحابة : مصطفى العدوي . دار ابن عفّان ، السّعوديّة - الخبر ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
- ٥١- الصّواعق المحرقة في الرّد على أهل البدع والزّندقة ومعه كتاب تطهير الجنان واللسان : أحمد بن حجر الهيتمي ، تحقيق عبد الوهّاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، ط ٢ ، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- ٥٢- الطّبقات الكبرى : ابن سعد . دار بيروت ، ودار صادر - بيروت ، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .
- ٥٣- العقائد الإسلاميّة : السيّد سابق . دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان .
- ٥٤- العواصم من القواصم : ابن العربي ، تحقيق محبّ الدّين الخطيب . المكتبة العصريّة ، بيروت ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .
- ٥٥- الفتن : نعيم بن حمّاد ، تحقيق مجدي بن منصور . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ .
- ٥٦- الفتنة بين الصّحابة : محمّد حسّان . مكتبة فيّاض ، المنصورة ، ط ١ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م .
- ٥٧- الفتنة ووقعة الجمل : جمع أحمد راتب عرموش . دار النّفائس ، بيروت ، ط ٦ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٥٨- الفِصل في الملل والأهواء والنّحل : ابن حزم الأندلسي ، علي بن أحمد ، وضع حواشيه أحمد شمس الدّين . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .
- ٥٩- الفقه على المذاهب الأربعة : عبد الرحمن الجزيري ، دار الكتب العلميّة ، بيروت - لبنان ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

٦٠- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان : محمد بن قِيم الجوزية . دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان .

٦١- الكامل في ضعفاء الرجال : عبد الله بن عدي الجرجاني ، تحقيق د. سهيل زكّار ، دار الفكر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

٦٢- المبشرات بانتصار الإسلام : د. يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٦٣- المستدرک على الصحيحين في الحديث : الحاكم . مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض .

٦٤- المستقبل لهذا الدين : سيد قطب . دار الشروق ، ط ٦ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

٦٥- المسند : أحمد بن حنبل ، شرحه أحمد شاكر وحمزة الزين . دار الحديث ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٦٦- المصنّف : الصنعاني ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي . المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٦٧- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية : ابن حجر العسقلاني ، تحقيق عبد القادر بن عبد الكريم . دار العاصمة ، ودار الغيث ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

٦٨- المعجم الأوسط : الطبراني ، تحقيق محمد حسن الشافعي . دار الفكر ، عمان ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٦٩- المعجم الكبير : الطبراني ، تحقيق حمدي السلفي . مطبعة الوطن العربي ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٧٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي . دار الفكر بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٧١- المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، دار عمران ، مصر ، ط ٣ .

٧٢- المغني في الضعفاء : الذهبي ، محمد بن أحمد . دار الكتب العلمية ، بيروت ، تحقيق حازم القاضي ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

- ٧٣- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج : سيّد عبد المجيد بكر . النَّاشِر : تهامة ، جدّة ، ط١ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
- ٧٤- المنجد في اللغة والأعلام : دار المشرق ، بيروت ، ط٢٨، ١٩٨٦م .
- ٧٥- الموطأ : مالك بن أنس - رضي الله عنه - . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .
- ٧٦- النَّاسخ والمنسوخ في القرآن الكريم : ابن العربي المالكي . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .
- ٧٧- النَّحو وكتب التفسير : د. إبراهيم عبد الله رفيده . المنشأة العامّة ، ليبيا - طرابلس ، ط٢ ، ١٩٨٤م .
- ٧٨- النَّكت على العمدة في الأحكام : الزركشي . مكتبة الرشد ، الرّياض ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- ٧٩- بدائع الفوائد : ابن قيّم الجوزيّة . مكتبة نزار مصطفى ، مكّة المكرّمة - الرّياض ، ط٢ ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .
- ٨٠- بستان الواعظين ورياض السّامعين : ابن الجوزي ، تقديم د. السيّد الجميلي . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .
- ٨١- تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدّينوري ، تحقيق رضى فرج الهمامي ، المكتبة العصريّة ، ط١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .
- ٨٢- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تحقيق السيّد أحمد صقر . المكتبة العلميّة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
- ٨٣- تاريخ ابن خلدون : ابن خلدون . مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ١٣٩١هـ-١٩٧١م .
- ٨٤- تاريخ الإسلام : د. حسن إبراهيم . دار الفكر ، ط١٣ ، ١٤١١هـ-١٩٩١م .
- ٨٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : الدّهبي ، محمّد بن أحمد ، تحقيق د. عمر عبد السّلام . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٤١١هـ-١٩٩١م .
- ٨٦- تاريخ الأمم والملوك : محمّد بن جرير الطّبري ، مكتبة أروميّة .

- ٨٧- تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي . دار القلم ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٨٨- تاريخ يعقوبي : يعقوبي . مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .
- ٨٩- تاريخ خليفة بن خياط : خليفة بن خياط العصفري . مؤسسة الرسالة - بيروت ، ودار القلم - دمشق ، ط٢ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- ٩٠- تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر ، تحقيق عمر العمروي . دار الفكر ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٩١- تاريخنا المفترى عليه : د. يوسف القرضاوي . دار الشروق ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٦م .
- ٩٢- تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة : د. محمد أمحزون . دار طيبة ومكتبة الكوثر ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- ٩٣- تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال : الذهبي ، محمد بن أحمد . الناشر الفروق الحديثة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .
- ٩٤- تفسير الطبري : الطبري . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .
- ٩٥- تقريب التهذيب : ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد عوامة . دار الرشيد - سوريا ، ط٤ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- ٩٦- تلبيس إبليس : ابن الجوزي . مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط٤ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- ٩٧- تلقيح فهم الأثر في عيون التاريخ والسير : ابن الجوزي . شركة دار الأرقم ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٩٨- تمييز الطيب من الخبيث : عبد الرحمن بن الدبوع الشيباني . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- ٩٩- تهذيب الأسماء واللغات : محيي الدين بن شرف النووي ، تحقيق علي محمد وعادل أحمد . دار النفائس - بيروت ، ط١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ١٠٠- تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية : أ.د عبد الله الجبرين . دون دار نشر ، ط١ ،

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

١٠١- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد : سليمان بن عبد الله بن محمد عبد الوهاب. دون دار نشر .

١٠٢- جامع الدروس العربية : مصطفى الغلاييني . المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١٢ ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .

١٠٣- جامع العلوم والحكم : عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي ، تحقيق د. محمد الأحدي . دار السلام القاهرة ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٠٤- جلاء الإفهام : ابن قيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

١٠٥- جواهر الأدب : أحمد الهاشمي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

١٠٦- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين : مجموعة من العلماء . جمهورية مصر ، وزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

١٠٧- حياة محمد ﷺ : محمد حسين هيكل ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ط ١٣ .

١٠٨- دراسات في عهد النبوة والخلافة : د. عبد الرحمن شجاع . دار الفكر المعاصر ، اليمن ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

١٠٩- دلائل النبوة : البيهقي ، أحمد بن الحسين ، تحقيق عبد المعطي قلعجي . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

١١٠- ديوان أبي الطيب المتنبي : شرح العلامة عبد الرحمن البرقوقي ، تحقيق د. عمر الطباع . دار الأرقم ، بيروت .

١١١- ديوان الإمام الشافعي : شرح د. عمر الطباع . دار الأرقم ، بيروت .

١١٢- ديوان الباكيين (الخنساء وليلى الأخيلية) : شرح د. يوسف عيد . دار الجليل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١١٣- ديوان أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - : شرح د. عمر الطباع . دار الأرقم ، بيروت .

- ١١٤- ديوان حسن بن ثابت الأنصاري- رضي الله عنه - : تحقيق عبد الله سنده . دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .
- ١١٥- ديوان مجد الإسلام : أحمد محرم ، تحقيق محمود محرم . مكتبة الفلاح ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م .
- ١١٦- رفع الملام عن الأئمة الأعلام : ابن تيمية . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .
- ١١٧- روائع البيان : محمد علي الصابوني . مكتبة الغزالي- دمشق ، ومؤسسة مناهل العرفان - بيروت ، ط٣ ، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م .
- ١١٨- زاد المسير في علم التفسير : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي . دار الفكر، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .
- ١١٩- زاد المعاد : ابن قيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .
- ١٢٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة : محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ، ط٤ ، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م .
- ١٢١- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : محمد ناصر الدين الألباني . مكتبة المعارف، الرياض، ط١ ، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .
- ١٢٢- سنن ابن ماجه : الحافظ محمد بن يزيد القزويني ، ابن ماجه ، تحقيق د. بشار عواد . دار الجليل - بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م .
- ١٢٣- سنن النسائي : شرح جلال الدين السيوطي . المكتبة العلمية ، بيروت .
- ١٢٤- سير أعلام النبلاء : الذهبي ، محمد بن أحمد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ١٢٥- سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - : د. علي الصلابي ، دار الكتاب الثقافي ، الأردن - إربد .
- ١٢٦- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد ، عبد الحلي بن أحمد ، تحقيق عبد القادر

- الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط. دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٢٧- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : عبد الله بن عقيل . دار الفكر ، بيروت ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ١٢٨- شرح العقيدة الطحاوية : ابن أبي العز الحنفي ، خرّج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ، ط ٥ ، ١٣٩٩هـ .
- ١٢٩- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها : أحمد الشنقيطي ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي . دار المعرفة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م .
- ١٣٠- شرح ديوان كعب بن زهير - رضي الله عنه - : أبو سعيد السكري . الدار القومية ، القاهرة .
- ١٣١- شرح رياض الصالحين : محمد بن صالح العثيمين . دار الوطن ، ط ١ ، ١٤١٦هـ .
- ١٣٢- شرح نهج البلاغة : عبد الحميد بن أبي الحديد . دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ١٣٣- شفاء العليل : ابن القيم الجوزية . دار المعرفة ، بيروت .
- ١٣٤- شهيد الدار عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : أحمد محمود ، مراجعة أ. د. محمود السرطاوي ، دار عتار ، عمان ، ط ١ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ١٣٥- صحيح البخاري : البخاري ، محمد بن إسماعيل . دار الفكر ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ١٣٦- صحيح السيرة النبوية : محمد ناصر الدين الألباني . المكتبة الإسلامية ، عمان - الأردن ، ط ١ ، ١٤٢١هـ .
- ١٣٧- صحيح سنن ابن ماجه : محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية ، ط ١ ، ١٩٨٦م - ١٤٠٧هـ .
- ١٣٨- صحيح سنن الترمذي : محمد ناصر الدين الألباني . مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ١٣٩- صحيح سنن النسائي : محمد ناصر الدين الألباني . مكتبة التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
- ١٤٠- صحيح مسلم بشرح النووي : يحيى بن شرف . دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ،

١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

١٤١- صفوة التفاسير : محمد علي الصّابوني . دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ-

١٩٨١م .

١٤٢- صفين وتدايعاتها في الاجتماع السياسي الإسلامي : د. عبد اللطيف الهميم . دار عمّار ، عمّان ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

١٤٣- صور من حياة الصحابة : د. عبد الرحمن رأفت .، بيروت ، دار النفائس ، ١٤١٢هـ-

١٩٩٢م .

١٤٤- صيد الخاطر : ابن الجوزي . المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ، ط٤ ، ١٤١٦هـ-

١٩٩٦م .

١٤٥- ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة : عبد الله القرني . مؤسسة الرسالة ، بيروت

، ط١ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

١٤٦- عظمة الرسول ﷺ : محمد بيومي . دار مكة المكرمة ، مصر ، ط١ ، ١٤٢٦هـ-

٢٠٠٥م .

١٤٧- علم أصول الفقه : عبد الوهاب خلاف . دار القلم ، الكويت .

١٤٨- عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : بسام العسلي . دار النفائس ، بيروت ، ط٤ ،

١٤٠١هـ-١٩٨١م .

١٤٩- عمرو بن العاص - رضي الله عنه - : عباس محمود العقاد . شركة نهضة مصر ، ط٢ ،

٢٠٠٥م .

١٥٠- فتاوى الشيخ كشك : عبد الحميد كشك . دار المختار الإسلامي ، القاهرة .

١٥١- فتاوى علماء البلد الحرام : د. خالد الجريسي . مؤسسة الجريسي ، الرياض ، ط٣ ،

١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

١٥٢- فتح الباري : ابن حجر العسقلاني . دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ط٢ ،

١٤٠٢هـ-

١٥٣- فتح القدير : محمد بن علي الشوكاني . دار الخير ، ط١ ، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

- ١٥٤- فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - : د. محمد الغبان . مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .
- ١٥٥- فصل الخطاب في مواقف الأصحاب : محمد الغرسي . دار القلم ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ١٥٦- فضائل مكة وحرمة البيت الحرام : عاتق البلادي . دار مكة ، مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .
- ١٥٧- فقه السنة : السيّد سابق . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٨ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- ١٥٨- فقه السيرة النبوية : د. محمد سعيد البوطي . دار الفكر المعاصر - بيروت ، ودار الفكر - دمشق ، ط ٢٦ ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .
- ١٥٩- فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن : ابن الجوزي ، تحقيق رشيد العبيدي . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ١٦٠- في رحاب التفسير : عبد الحميد كشك . المكتب المصري الحديث ، القاهرة .
- ١٦١- قراع الأسنة : عبد العزيز اليميني . مكتبة الحرمين ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- ١٦٢- كتاب الأذكياء : عبد الرحمن بن الجوزي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- ١٦٣- كتاب التاريخ الكبير : البخاري ، محمد بن إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد القادر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ١٦٤- كتاب الثقات : محمد بن حبان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ط ١ ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- ١٦٥- كتاب الزهد : أحمد بن حنبل . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- ١٦٦- كتاب الضعفاء الصغير : البخاري ، محمد بن إسماعيل ، تحقيق محمود إبراهيم . دار المعرفة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ١٦٧- كتاب الضعفاء الكبير : محمد بن عمرو العقيلي ، تحقيق د. عبد المعطي قلعجي . دار

- الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط ١ .
- ١٦٨- كتاب الضّعفاء والمتروكين : ابن الجوزي ، تحقيق عبد الله القاضي . دار الكتب العلميّة، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .
- ١٦٩- كتاب العلل ومعرفة الرّجال : أحمد بن حنبل ، تحقيق د. وصي الله بن محمّد . المكتب الإسلاميّ- بيروت ، ودار الخاني- الرّياض ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- ١٧٠- كتاب الكفاية في علم الرّواية : الخطيب البغداديّ ، أحمد بن عليّ . المكتبة العلميّة ، المدينة المنوّرة .
- ١٧١- كتاب المراسيل : عبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي ، علّق عليه أحمد عصام الكاتب . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣م-١٤٠٣هـ .
- ١٧٢- كتاب خصائص أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - : النّسائي ، أحمد بن شعيب ، تحقيق أبو إسحاق الحويني . دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .
- ١٧٣- كتاب رياض النّفوس : عبد الله المالكي . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .
- ١٧٤- كتاب عيون الأخبار : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوريّ . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .
- ١٧٥- كتاب فضائل الصّحابة : أحمد بن حنبل ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .
- ١٧٦- كشف الشّبهات : محمّد بن عبد الوهّاب ، شرح محمّد بن العثيمين . دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م .
- ١٧٧- كنز العمّال : علاء الدّين عليّ المتقيّ بن حسام الدّين الهندي . مؤسّسة الرّسالة ، بيروت -لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .
- ١٧٨- لسان العرب : ابن منظور . دار إحياء التّراث العربي ، ومؤسّسة التّاريخ العربي ، بيروت -لبنان ، ط ١ ، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م .

- ١٧٩- لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة . دار البشائر الإسلامية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- ١٨٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي . مكتبة القدسي ، القاهرة .
- ١٨١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد ، مطابع الرياض - الرياض ، ط٢ ، ١٩٦١م .
- ١٨٢- محمد رسول الله ﷺ : محمد الصادق عرجون . دار القلم ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- ١٨٣- مختصر إتحاف السادة المهرة بزوائد المسانيد العشرة : البوصيري ، أحمد بن أبي بكر ، تحقيق سيد كسروي . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .
- ١٨٤- مختصر الشمائل المحمدية للإمام الترمذي : اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني . مكتبة المعارف ، الرياض ، ط٣ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .
- ١٨٥- مختصر الصواعق المرسله : ابن قيم الجوزية ، تحقيق سيد إبراهيم . دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- ١٨٦- مروج الذهب : المسعودي . مؤسسة الأعلمي ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- ١٨٧- مرويات معاوية - رضي الله عنه - في تاريخ الطبري : د. خالد الغيث . دار الإبيان ، إسكندرية .
- ١٨٨- مسند أبي يعلى الموصلي : أحمد بن علي التميمي ، تحقيق حسين سليم أسد . دار المأمون للتراث ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .
- ١٨٩- مصنف ابن أبي شيبة : عبد الله بن أبي شيبة ، صححه مختار أحمد الندوي . منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، باكستان ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ١٩٠- معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - : د. علي الصلابي . دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ .
- ١٩١- معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - صحابي كبير وملك مجاهد : منير الغضبان ، دار

- القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- ١٩٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق علي البجاوي . دار الفكر العربي .
- ١٩٣- معجم أسامي الرواة : محمد ناصر الدين الألباني . دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
- ١٩٤- معجم إعراب ألفاظ القرآن الكريم : د. محمد سيد طنطاوي . مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٩٨م .
- ١٩٥- معجم البلدان : ياقوت الحموي . دار صادر ، بيروت .
- ١٩٦- معجم شيخو الطبري : أكرم محمد الفالوجي . الدار الأثرية - عمان ، ودار ابن عقان - القاهرة، ط ١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .
- ١٩٧- معرفة علوم الحديث : الحاكم محمد بن عبد الله . المكتبة العلمية - المدينة المنورة ، ودار الكتب العلمية - بيروت ، ط٢، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
- ١٩٨- مغني اللبيب عن كتب الأعراب : ابن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
- ١٩٩- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . دار الجليل ، بيروت .
- ٢٠٠- مناقب الإمام أحمد بن حنبل : عبد الرحمن المشهور بابن الجوزي . دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢، ١٩٧٧م .
- ٢٠١- من الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم : محمد متولي منصور . ط ١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .
- ٢٠٢- من كنوز السنة : محمد علي الصابوني ، دار الصابوني ، ط ٥ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- ٢٠٣- منهاج السنة النبوية : ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- ٢٠٤- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف : محمد السعيد زغلول . عالم التراث ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

- ٢٠٥- نصب الرّاية لأحاديث الهداية : عبد الله بن يوسف الحنفي . دار القبلة جدّة ، ومؤسسة الريان بيروت ، ط٤ ، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م .
- ٢٠٦- نصب المجانيق لنسف رواية الغرائق : الألباني . المكتب الإسلامي ، دمشق .
- ٢٠٧- نهج البلاغة : محمّد عبدة . دار أسامة ، بيروت ، ١٩٨٦م .
- ٢٠٨- نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين : محمّد الخضري بك . مكتبة الرّسالة ، عمّان - الأردنّ .
- ٢٠٩- نيل الأوطار : محمّد بن علي الشّوكاني . دار الجليل ، بيروت ، ١٩٧٣م .
- ٢١٠- وقعة صفّين : نصر بن مزاحم ، تحقيق عبد السّلام هارون . المؤسّسة العربية الحديثة ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

الفهرس

| الصفحة | الموضوع |
|--------|---|
| ٤ | الإهداء |
| ٥ | مقدمة أ.د محمود السّطاوي |
| ٨ | مقدمة أ.د أحمد نوفل |
| ١٠ | مقدمة أ.د محمد العمري |
| ١٣ | المقدمة |
| ١٩ | القسم الأول : المبحث الأول : النَّبِيُّ ﷺ في سطور من المولد إلى النّشور |
| ١٩ | مولده ﷺ |
| ١٩ | نسبه الشّريف ﷺ ومعدنه المنيف |
| ٢٠ | البشارة بالرّسول ﷺ في التّوراة والإنجيل |
| ٢٢ | مبعثه ﷺ |
| ٢٣ | كنيته ﷺ |
| ٢٣ | صفته وصورته ﷺ كأنك تراه |
| ٢٦ | شبيهه ﷺ |
| ٢٦ | سنّه ﷺ |
| ٢٧ | واكراهه ! (وفاته ﷺ) |

- ٢٧ " الموافاة يوم القيامة "
- ٢٨ المبحث الثاني : أحب من آلي ومالي
- ٢٨ وجوب محبته ﷺ ونصرته
- ٣٠ توعد الله من قدّم محبة على محبة الله والرسول ﷺ
- ٣٠ من مناقب الأنصار : محبة المهاجرين ، ونصرة سيّد المرسلين ﷺ
- ٣١ المحيا محياكم والممات مماتكم
- ٣٢ قتال جبريل وميكائيل عنه ﷺ
- ٣٢ نصرة أبي طالب للنبي ﷺ مع أنّه لم يكن على دينه
- ٣٤ لا عذر لنا عند الله إن خُليص إلى رسول الله ﷺ
- ٣٥ دفاع حسان بن ثابت عن النبي ﷺ
- ٣٩ القسم الثاني : المبحث الأول : من آذى النبي ﷺ فقد أغضب ربه
- ٣٩ ألا تعجبون كيف يصرف الله عن نبيه الأذى !؟
- ٤٠ الذين يتناجون بالإثم والعدوان
- ٤٢ من آذى النبي ﷺ فقد أغضب ربه !
- ٤٤ المغايرة في الجزاء بين أذى الرسول ﷺ وأذى غيره
- ٤٤ حكم الاستهزاء بالنبي ﷺ
- ٤٥ الحكم فيمن سب النبي ﷺ
- ٤٦ حكم الاستهزاء بالصّحابة - رضي الله عنهم - وبالمؤمنين
- ٤٧ من منح المحنة
- ٤٨ المبحث الثاني: صور ممّا لقي النبي ﷺ من الأذى وهو صابر وما نزل من القرآن

أشدّ ما صنع المشركون بالنبيّ ﷺ ودفاع أبي بكر عنه

مقالة العاصي بن وائل وما أنزل فيه من القرآن

مقالة عبد الله بن سلول وما أنزل فيه من القرآن

مقالة أبي جهل وما نزل فيه من القرآن

مقالة أبي لهب وما نزل فيه من القرآن

مقالة أمّ جميل العوراء وما نزل من القرآن

مقالة عبد الله بن أبيّ وما نزل من القرآن

مقالة لييد وإسلامه

أشدّ ما لقي النبيّ ﷺ من قومه وعفوه

دعاء النبيّ ﷺ على نفر من قريش آذوه في صلاته ومصيرهم

القسم الثالث : المبحث الأوّل : شبهات المرجفين : دوافعها ودفوعها

لم يؤذون النبيّ ﷺ؟!؟

دعوى انتشار الإسلام بالسيف

دعوى النهي عن كتابة الحديد وأن لا كتاب مع كتاب الله

دعوى عدم الأخذ بالسنة لأنّ جلّها بالرأي لا بالوحي

مثل الذين حملوا هدي النبيّ ﷺ ثم لم يحملوه كمثل قيعان

دعوى أنّ الأنبياء ارتكبوا ما يخالف عصمتهم

قولهم : إذا لم يكن للنبيّ ذنب فماذا غفر الله له؟

قولهم : صلاة الله وملائكته والمؤمنين على النبيّ ﷺ دليل حاجة

- ٨٩ قو لهم : هل شكّ النبي ﷺ في حقيقة ما قصّ الله عليه
- ٩٠ قو لهم : ترك النبي ﷺ الأولى والأفضل فعاتبه ربّه - عزّ وجلّ -
- ٩٦ قو لهم : علم النبي ﷺ كفرهم ثمّ استغفر لهم
- ٩٦ دعوى أنّ الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ جملة : تلك الغرائق
- ١٠٠ أقلّوا اللوم على العلماء أو سدّوا المكان الذي سدّوا
- ١٠٤ دعوى أنّ القرآن فيه آيات متناقضة متعارضة
- ١١٤ آية أنّ القرآن وحي الله وكلامه سلامته من التناقض والتضاد لفظاً ومعنى
- ١١٥ دعوى الاختلاف في الحديث الشريف
- ١٢٢ دعوى أنّ الحديث الشريف يعارض جزم القرآن بمستقبل الإسلام
- ١٢٥ دعوى أنّ الحجّ أشبه بالوثنية
- ١٢٨ المبحث الثاني : أمّتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها
- ١٢٨ رضيهم الله لدينه أفلا نرضاهم لدينانا ؟
- ١٣٢ ليس في أصحاب رسول الله ﷺ نخالة
- ١٣٣ توقير أمّهات المؤمنين
- ١٣٥ الأدلة على أنّ أمّهات المؤمنين من آل البيت
- ١٣٨ المبرأة من الله عائشة صديقة الأمة وأمّ المؤمنين
- ١٤٠ طرف من خصائص أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -
- ١٤٣ القسم الرابع : المبحث الأوّل : الحقّ المبين في الجمل وصفين
- ١٤٣ سبب خطأ الباحثين في التعامل مع تاريخ المؤرّخين
- ١٤٥ سبب خروج عائشة - رضي الله عنها - ومن معها إلى البصرة

- ١٤٩ عدد من خرج إلى البصرة وعلم عليّ بخبرهم
- ١٥١ عائشة تهم بالرجوع والزير بثنيها عن عزمها
- ١٥٢ إنكار ابن العربي - رحمه الله - لحديث الحوآب
- ١٥٣ علي يخرج إلى البصرة ليردّ عائشة إلى مأمونها عملاً بوصية النبيّ ﷺ
- ١٥٦ الأيدي الخبيثة توقع الفتنة بين الفريقين
- ١٥٧ المنافقون يؤججون الفتنة بقتل كبار الصحابة
- ١٥٩ الردّ على من احتجّ على خروج عائشة بقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ... ﴾ [الأحزاب]
- ١٦١ ندم عائشة - رضي الله عنها - على خروجها ودلالته
- ١٦٢ الردّ على من طعن على عائشة بقوله ﷺ: " لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة "
- ١٦٣ تجنّب الصحابة للقتال
- ١٦٤ حادثة الجمل لم تقع بدافع العصبية
- ١٦٥ أثر استشهاد طلحة والزبير في نفس عليّ
- ١٦٦ براءة مروان من دم طلحة
- ١٧٠ عدد قتلى الجمل وزمن القتال ودلالته
- ١٧٢ الأسباب التي جعلت حادثة الجمل تؤلم المسلمين عبر التاريخ
- ١٧٣ الثناء على عائشة قبل موتها على لسان ابن عباس
- ١٧٥ المبحث الثاني: صاحب الأجر وصاحب الأجرين
- ١٧٥ عذر معاوية في التّعجيل وعذر عليّ في التّأخير
- ١٧٧ سبب تشدّد معاوية في الطّلب بدم عثمان

- ١٧٨ من الأدلة على أنّ عليّاً ومن معه أولى بالحقّ من معاوية وصحبه
- ١٧٩ بطلان خبر رفع المصاحف على الرّماح
- ١٨٤ ترجمة أبي مخنف
- ١٨٥ ترجمة نصر بن مزاحم
- ١٨٥ بطلان قصّة التحكيم المشهورة من وجوه
- ١٩١ رواية التحكيم من طريق آخر
- ١٩٥ ترجمة أبي جناب الكلبي
- ١٩٥ انخداع غير كاتب وقارئ في الروايات الموضوعة
- ١٩٩ تنبيه المؤرّخين إلى روايات الوضّاعين
- ٢٠٠ الدليل على أنّ الخلاف لم يكن على الملك كما زعموا
- ٢٠٢ معاوية يرسل بمصحف إلى عليّ ليحتكموا إليه
- ٢٠٥ نصّ كتاب الصّالح (وثيقة التحكيم) كما في كتاب الثّقات
- ٢٠٥ عدد القتلى في صفّين وزمن القتال
- ٢٠٨ براءة معاوية وعمرو من دم عمّار بن ياسر
- ٢٠٩ عدد من شهد الفتنة من الصّحابة - رضي الله عنهم -
- ٢١١ من اعتزل الفتنة من الصّحابة
- ٢١٥ سبب ملابسة الفتنة واعتزالها
- ٢١٦ أحاديث الوعيد على من حمل السّلاح على أخيه المسلم
- ٢١٩ اجتماع الحكّمين
- ٢٢٣ ذكرنا لما شجر بين الصّحابة لا ينافي أمر النّبِيِّ ﷺ بالإمساك عن ذكرهم

- ٢٢٥ مناظرة ابن عباس الخوارج فيما نقموه على عليّ
- ٢٣١ إخبار النبيّ عن الحرورية وأنّ عليّاً سيفقاتلهم على التأويل
- ٢٣٥ قاتل علي الأشقى
- ٢٣٦ عليّ - رضي الله عنه - شذرات من مناقبه
- ٢٣٨ معاوية - رضي الله عنه - نبذ من مآثره وغرر من فضائله
- ٢٤٣ إحياء معاوية للسنن
- ٢٤٣ إنكار معاوية للمنكر ومحاربتة للبدع
- ٢٤٤ معاوية يجزئ الناس على التواصي بالحقّ
- ٢٤٥ ماذا قال معاوية عند موته
- ٢٤٦ عذر أبي سفيان وزوجه هند - رضي الله عنهما -
- ٢٥١ عمرو بن العاص نتف من مآثره وطرف من مناقبه
- ٢٥٣ ما جرى بين الصحابة لا يؤثّر في عدالتهم
- ٢٥٧ الدليل على أنّ الفئة الباغية لا تخرج بالبغي عن تسمية الإسلام
- ٢٥٩ العفو عمّن قاتل من الصحابة في الجمل وصفين
- ٢٦٠ أقوال بعض التابعين فيما شجر بين الصحابة
- ٢٦٢ حكم البغاة من هذه الأمة
- ٢٦٣ القسم الخامس : المبحث الأول : دفع بعض الشبهات عن معاوية ويزيد
- ٢٦٣ دعوى أنّ معاوية نازع الحسن الخلافة
- ٢٦٧ دعوى أنّ معاوية كان من المسرفين
- ٢٦٨ دعوى أنّ معاوية همّ بنقل منبر الرسول ﷺ من المدينة إلى الشام

| | |
|-----|---|
| ٢٦٨ | دعوى أنّ معاوية حرّك منبر رسول الله ﷺ فكسفت الشمس |
| ٢٦٩ | دعوى أنّ معاوية دسّ السّم للحسن |
| ٢٧١ | دعوى أنّ معاوية أكره الناس على مبايعة يزيد |
| ٢٧٣ | معاوية ستر للصّحابة - رضي الله عنهم - |
| ٢٧٣ | دعوى أنّ يزيد لم يسلم من دم الحسن والحسين |
| ٢٧٥ | خاب وخسر من افترى الكذب على دولة بني أميّة |
| ٢٧٧ | المبحث الثّاني : التّأليف بين الأمة مقصد عظيم |
| ٢٧٧ | التّحذير من فتنة الجماعات |
| ٢٨١ | التّحذير من فتنة التّكفير |
| ٢٨٤ | قلّة أهل الحقّ وكثرة أهل الباطل |
| ٢٨٥ | طوبى لهذه الأمة وحسن مأب |
| ٢٨٥ | الأوصاف التي شاركت بها أمّتنا النّبويّ ﷺ |
| ٢٨٧ | الخاتمة |
| ٢٨٩ | المصادر والمراجع |
| ٣٠٧ | الفهرس |
| ٣١٥ | صدر للمؤلف |

صدر للمؤلف

- ١- اكتساح السحر : تقديم ومراجعة أ. د. راجح الكردي ، دار الفرقان ، ط١ ، عمّان ، ١٩٩٠ م .
- ٢- قصّة يوسف - عليه السّلام - في القرآن الكريم : تقديم ومراجعة : أ. د. أحمد نوفل ، أ. د. محمود السّرطاوي ، أ. د. أحمد شكري . دار عمّار ، عمّان ، ط١ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- ٣- شهيد الدّار عثمان بن عفّان - رضي الله عنه - : تقديم ومراجعة أ. د. محمود السّرطاوي . دار عمّار ، عمّان ، ط١ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
